عبد العزيز الصقعبي

غفوةٌ ذاتَ ظهيرة

رواية

دار الساقي

غفوةٌ ذاتَ ظهيرة

عبد العزيز الصقعبي

غفوةٌ ذاتَ ظهيرة

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشترِه، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٨

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٨

ISBN-978-614-03-0160-3

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

١

في مدينة تحبها كثيراً، تعيش، تستيقظ باكراً، تحاول أن تبتسم. الشمس مشرقة جداً. نادراً ما تتوارى خلف سحابة. تمارس عاداتك الصباحية أحياناً، ربما لا تتناول فنجان قهوة، ولا تتصفّح جريدتك المفضلة، ولا تستمع إلى فيروز، ولا تثقل سمعك ببرنامج صباحي إذاعي يبُث غالباً أخباراً غير مبهجة. فقط، تقف لثوانٍ أمام المرآة لتعدل غترتك أو شماغك، تلمح وجهك غير مبتسم، لا بأس! تغادر غرفتك، بيتك، الحيَّ، تستقل سيارتك التي تحرص على أن تكون مشبعة بالبرودة قبل أن تمسك بمقودها لتتجه إلى عملك.

مكيف السيارة يمارس عمله برتابة، وأنت تؤْثر الصمت، يرتفع صوته قليلاً، تستعين بمحطات في ''إف إم'' لتهبك شيئاً من... من ماذا؟ لا تدري أبداً. لا ترغب في أن تستمع إلى موسيقا هذا اليوم، وبعض أصوات المذيعين عبر ''إف إم'' تدفعك إلى أن تكتم صوت المذياع مباشرة، وتستمتع بصوت المكيف وصخب أبواق السيارات من حولك!

الطرق غير سالكة دوماً، تخاف أن تتجاوز إشارة مرور وهي خضراء، ولكن هل ستثق أنها ستبقى كذلك عندما تقترب منها؟ قد تتحوّل إلى حمراء فجأة، وتحيط بك فلاشات لكاميرا تضيف عليك عبئاً ماليّاً. ها أنت تتجه إلى مكان تفاجأ فيه بأن كل الناس الذين يحيطون بك يتجهون إليه. كتل من الحديد، وكتل من البشر. أنت تعيش صراعاً مع شمس محرقة، وأناس يريدون أن تبتعد عن طريقهم، إلى أين؟ لا تدري أبداً، ولكن حتى لو أفسحت لهم الطريق كسيارة طوارئ، وتركتهم

يتجاوزونك، لأمر قد يكون مهمّاً لهم، فإنك سرعان ما تجدهم خلفك يطلبون منك مرة أخرى أن تسمح لهم بتجاوزك. أنت تمشي كسلحفاة وهم كالأرانب. تتذكر قصة الأطفال تلك، وتحاول أن تبتسم، ولكن لا تقدر، تفكر في المذياع مرة أخرى ومحطات الـ"إف إم". ربما تستمع لصوت يريحك قليلاً، قد يكون الصوت الذي بدأت تستمع له مريحاً قليلاً، ولكن تصفعك الكلمات التي تستمع لها، تغلق المذياع بعنف، وتتساءل: لماذا يشوهون الكلمات؟

الطريق طويل رغم قصره، وأنت تتجه إلى مكان تتحوّل فيه، أو يفترض أن تتحوّل فيه، إلى رجل آخر...

تبحث عن مكان آمن لسيارتك، تحزن على بقائها مدة طويلة تحت شمس محرقة، تتذكر الهدية التي تلقيتها من الورق المقوى والتي تحمل إعلاناً لشركة لا تحب أبداً منتجاتها، أخذتها لتستخدمها غطاءً واقياً للمقود وواجهة السيارة الداخلية (الطبلون).

الظل في الداخل، لا بأس! تطمئن على سيارتك، وتتجه إلى عملك. يجب أن تبتسم وأنت تلقي تحية الصباح على من تقابله. لحسن حظك لا أحد يعرفك لتلقي عليه تحية الصباح وتتبعها بابتسامة. تستخدم المصعد، معك مجموعة رجال لا تعرفهم، وتحافظ على ابتسامتك مرة أخرى دون أن تمنحها لهم، يفتح باب المصعد لتغادر أنت ويبقَوْا هم. تتجه إلى مكتب صغير مستقلّ مطلّ على غرفة كبيرة، يقدم إليك عامل آسيوي كوب شاي، تشكره، وتفكر في أن تبتسم، تحاول لكنك تعجز.

يأتي بقية الموظفين، لا أحد ينتبه إليك، ولا يفطن لوجودك، أنت هنا؟ جئت قبلهم، لماذا يبخلون عليك بتحية وابتسامة؟

لا يهم! تمسك ورقة بيضاء وتبدأ الكتابة، تستهل قائلاً: "سأطوي الصفحة القديمة، وأفتح صفحة جديدة في حياتي". ملامح وجهك بدأت تتغيّر، يا إلهي! ها أنت تبتسم.

***

هل انتهت حكايتي؟ ها أنا أحمل حقيبتي وأغادر المكتب، لم يطلب مني أحد البقاء، ولم يلوّح آخر بيده للوداع.

أغادر وأنا أشعر بألم؛ لا أقدر أن أبكي. سنوات طويلة وأنا هنا وحيداً في عالم صاخب، ألقي نظرة أخيرة على مكتبي: هل ستبكي الأوراق؟ هل ستفقد الأقلام الأصابع التي تحتضنها؟ هل سأسمع أنين المكتب؟

عذراً أصدقاء زمن طويل، مجبَر أن أرحل؛ ليست رغبتي تماماً، ولكنه الزمن الذي لا يرحم. أنا إنسان طيب ومحبّ لعملي، وكل ما في هذه الغرفة الصغيرة يشهد على ذلك؛ علاقة خاصة تربطني بكل ملف بجهاز الحاسب الآلي القديم، والحاسبة الأقدم، علاقة صداقة تربط كتلاً جامدةً برجل أكثر جموداً...

الزمن تغيّر، السنوات تعاقبت، وأنا، خاصة في السنوات الأخيرة، لم أتغيّر.

لم أكن أبداً الأول، ولن أكون، أفضل من أن أكون الثاني أو الثالث أو الأخير. أخاف من المقدمة، حتى عندما أجلس، أفضّل أن أجلس في المقاعد الخلفية، في الفصل الدراسي، وقاعات المحاضرات، والحافلة، حتى في صلاة الجمعة أتعمّد أن أتأخر قليلاً حتى لا أجد نفسي في الصفوف الأولى.

هل قررت أن أكون الأخير منذ طفولتي؟ لا أدري، أأنا المولود البكر لوالدي أم الأخير؟ ربما، لم ينتبه إلى وجودي أحد!

كنت... باهتاً...

صامتاً...

كنت كائناً وُجِدَ فجأة يحتلّ حيّزاً في الكون، ضئيلاً، كميكروب لا يرى بالعين المجردة.

لا مجال للتخلص منه، في الوقت نفسه ليس عبئاً؛ تساوى فيه الوجود والعدم.

لن تحزن أبداً هذه الغرفة، ولا تلك الأوراق، ولا اللوحة المعلقة للطفل اليتيم الباكي.

***

مثقَل أنت بهمٍّ يحاصرك، تغادر مكتبك، تلقي نظرة سريعة على الأشياء التي كانت حولك سنواتٍ طويلةً، تغادر مقر عملك السابق. سيارتك تعاني من جَلْد الشمس، يستنجد بك أحدهم أن تقلّه إلى بيته، يؤكد لك أنه في الطريق إلى بيتك، ويضيف قائلاً: "ستكسب أجري". ليس لديك رغبة في الكلام، وهو لا يعلم أنك مغادِر هذا المكان إلى الأبد، يسترسل بالحديث عن الزحام، وحرارة أغسطس الحارقة، وتنبؤات الفلكيين بصيف يحرق الأجساد.

يسألك: "كم أمضيت في هذه الشركة؟"، تجيبه باقتضاب: "أكثر من ربع قرن". يقول بانفعال: "لا بد أنك من المؤسسين!". لا تجيبه، تتمنى أن يخفّ الازدحام لتصل إلى مكان سكنه.

صخَب مكيّف السيارة لم يسكته، لديه كلام كثير يريد أن يتخلّص منه ليبحث عن كلام آخر يلقيه إلى رجل آخر، أو إلى زوجته، أو أبنائه؛ المهم أن يتحدث. ربما يقف في غرفته أمام المرآة في بيته، في غرفة نومه، ويتحدّث مع نفسه، وأنت

تمارس الصمت رغم أنك تعجّ بالكلام، مملوء بحكاياتك الخاصة التي أزعجتك كثيراً، وأزعجَتْ كل من سمعك وأنت تقتطف منها مقاطع بسيطة حين تقرر أن تبوح قليلاً.

يمنحك مدة صمت قصيرة تجعلك تبادر إلى رفع صوت الراديو لتستمع لأغنية، بكل تأكيد لم تعجبك، ولكنها محاولة هرب من صوته وحديثه، ولكنه يفاجئك بكتمه صوت الراديو، ليبادرك بقوله: "لدي عتب بسيط عليك!". يبدأ قلبك بالخفقان، لا أحد يعلم بأمر استقالتك ومغادرتك الشركة. وتتساءل داخلك: عتبه على ماذا؟ تريد أن تقول له: "على ماذا؟"، لكنه لا يترك لك مجالاً للسؤال، فيتابع بقوله: "أنت من أقدم الموظفين في الشركة، ولكنك غير اجتماعي!"، ويرفع صوته قليلاً رغبة في أن يكون كلامه مؤثراً متحدثاً عن أهمية تكوين العلاقات مع زملاء العمل، مؤكداً أن لديك من الخبرة ما تحتاجه غالبية حديثي العهد بالعمل، مكملاً نصحه بتقديم أمثلة من ممارسات بعض الموظفين.

تردّ باقتضاب: "جزاك الله خيراً، يهمني كلامك". تشعر بالراحة أنك أوقفت سيارتك بالقرب من بيته ليغادر سيارتك إلى الأبد أيضاً. هو لا يعلم ذلك، وهذا يريحك كثيراً. تبقى متدثّراً بصمتك وصمت مذياع السيارة عدا هدير المحرك.

تصل إلى سكنك، تركن سيارتك في موقفها المعتاد، وتتجه إلى شقتك الصغيرة حاملاً مجموعة من الأوراق والكتب والأدوات المكتبية التي تخصّك، وارتحلت معك من عملك.

٢

لم أصدق نفسي عندما غادرت المكتب، كان من المفترض أن تكون هذه الخطوة منذ سنوات.

لستُ مهماً. أعرف وأعي ذلك، قرابة ثلاثين عاماً وأنا أعمل في هذه الشركة، منذ كانت تحتل شقة صغيرة في شارع الخزّان، حتى توسّعت وتجاوز عدد موظفيها المئة؛ أصبحتُ من قدامى الموظفين. موظف قديم! هذا القدم لم يحقق لي فرصة أن أكون صاحب معالي أو سعادة، أو حتى أستاذ. بعض الموظفين ينادونني: يا عم منير، وزيادة في الاحترام يقولون: يا أبا عبد الله، ولكن لأكن صادقاً: أنا عند الغالبية "منير"، حاف!

لم أفكر أبداً في ترك المكتب حتى اليوم الأخير من حياتي، وقد قلت ذلك بصراحة لمدير الشركة والمسؤول الأول فيها.

هو يرغب في التخلص مني، وفي الوقت نفسه يفضّل أن أبقى، فهو يعرف ظروفي الخاصة التي أراها معقدة. لذا، لم أتوقع أبداً أن يطرأ جديد على حياتي الرتيبة.

أنا أعرف بثقة أنني لو بقيت ألف عام في عملي هذا، وأمارس حياتي الرتيبة التي أعيشها الآن، لن أتغير. هذه مأساتي: إنني كائن جامد لا تنفع معه حتى عوامل التعرية. في سنواتي الأخيرة، حرصت أن أبتعد عن الجميع. اكتفيت بسكني في شقة متواضعة في حي الوزارات في مدينة الرياض، يشاركني فيها

كتبي وصحفي ومجلاتي وأوراقي، وجهاز حاسب في غرفة الجلوس، وصمت مطبق لا يخترقه إلا صوت التلفاز أو جهاز التسجيل.

بقائي في هذا العمل يعني وجودي مع أناس لا علاقة لي بهم: موظفون فقط. حتى من يحاول أن يتقرب مني، ليس حباً فيَّ بقدر ما هو فضول لمعرفة هذا الرجل الغامض الذي يؤثر الوحدة والانزواء بعيداً عن أعين الناس.

ليس لدي شيء أخسره أبداً، فمع سكني في شقتي الصغيرة أعيش وحيداً بعد تجارب زواج فاشلة. الأثاث متواضع وقديم. لم أفكر يوماً أن أصبح مشهوراً. أحمل آلاماً وهموماً كثيرة، وتختزن ذاكرتي قصصاً لبعض الأصدقاء. ليسوا تماماً أصدقاء، ولكن حدث ذات زمن أن عبرت من بينهم، فكنت منهم، أو هكذا اعتقدوا، ربما لو كنت فعلاً أنتمي إليهم، لتغيرت حياتي...

مولَع جداً بالكتابة، ولكنني لست بكاتب، وقبل ذلك شغوف بالقراءة. الأفكار كثيرة في رأسي ومتداخلة. كانت صفحات القراء وسيلة لتفريغ شحنات مما يعتلج داخلي، وبعد ذلك المنتديات عبر الشبكة العنكبوتية، وأخيراً مواقع التواصل الاجتماعية الحديثة التي أصبحت وسيلة لبعض التنفيس لي.

أنا هذا الغريب! حياتي جميعها أسئلة دون إجابات.

ها قد قررت ترك العمل، والابتعاد عن الناس، وكتابة قصة حياتي، قد أكون مشهوراً آخر عمري، قد يتذكرني بعض من عشت معهم ورافقتهم.

***

- ليتهم ناموا!

أثق بمدى صدقه وهو يقذف بتلك الكلمات في وجهي. أستجمِع ما تناثر من جسدي، وأُرغم قدمي على مغادرة محله الصغير الذي خصصه لعقد صفقات بيع البيوت والأراضي وشرائها، أو كما يسميه أحد الأصدقاء: تجارة التراب الذي يتحوّل إلى ذهب.

قالها ليعبر عن موقف ليس عدائياً تماماً، ولكن يوحي بدعوة كامنة وراءه بأن الكائن الذي كان يقف أمامه قبل أن يغادره كان من الأفضل ألّا يكون.

قالها ليعبر عن خيبة وإحباط واستياء وصدمة من شخصي المتواضع الذي أهدر فرصة لا تتكرر أبداً.

أردت أن أسأله: ماذا فعلت؟ فخفت من كلمات أكثر قسوة، أو قسوة أكبر من كل الكلمات، وربما لن تجدي كل الكلمات بعد ذلك.

شعرت بالراحة قليلاً عندما تأكدت أنني ابتعدت قليلاً عن محله. أغلقت الهاتف المحمول. ربما يتذكّر شيئاً آخر فلا يجد منفذاً للوصول إليّ إلّا عبر الهاتف.

الرياض وهذا الزحام الذي لا أدري كيف أصفه: المركبات ومن فيها قنابل غضب موقوتة، ما الذي يستطيع أن يفعله الشخص عندما يجد نفسه عالقاً بين كتل من السيارات على جسر الخليج، وحركة السير متعطّلة لأمر ما؟ أستنجد بمذياع السيارة لقطع الوقت الذي يمزقني إرباً، نشرة الأخبار: بيان رسمي حكومي يورد مجموعة من الأسماء ممن أرادوا العبث بهذا الوطن، قُتِل بعضهم، وقبض على بعضهم الآخر. تذكرت مقولة ذلك الرجل: "ليتهم ناموا!". ربما النوم أفضل من أن يرى الأبوان أن الطفل الذي فرحا به كثيراً عندما بدأ يضع مكاناً في قلبيهما بدأ يعبث بأمن الوطن.

والدي ووالدتي لم يناما ذلك المساء، وها أنا وحيدٌ غريب، لم يرد في ذهنهما ذلك اليوم أن ابنهما الذي سيشتركان في إنجابه سيفقدهما وسيفقدانه.

لو ناما! ليتهما! ربما لم أكن عبئاً عليهما، أو على هذه الأرض، أو على نفسي. من يترك ابنه ويغادر؟ سؤال أزعجني كثيراً، ربما أنا نتاج نزوة، وأرادا أن يتخلّصا منّي فكانت حكاية السفر والمرض. ولكن هل ستصدق تلك العائلة ذلك؟

حكايتي بلا بداية، هذا ما يزعجني. أحاول أن أتذكر لأحكي، ولكن مشكلتي أنني لا أدري كيف أبدأ. ليكن بيننا معاهدة صدق: سأكون صادقاً وواضحاً، ولكن كيف أبدأ؟

أمر آخر أعتقد أنه يجول في ذهن غالبيتكم: هل سيتمحور حديثي حول نفسي فقط؟ ماذا عن الآخرين، رجالاً ونساءً، بل ماذا عنّي أنا؟ من أكون؟ عائلتي؟ والدي والدتي؟ زوجتي؟ أبنائي؟

قد يكون الأمر ممجوجاً إذا قلت إنني ابن أسرة غنية أو فقيرة لأن هذا لا يعنيكم. قد يكون له تأثير خاص في حياتي، فهنالك فرق بين أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء.

ولكن ماذا عنّي؟

لا بأس إن كررت عليكم السؤال مرة أخرى. بصراحة، سأكون صادقاً معكم وأقول:

ليس لديّ أب ولا أم، ولا زوجة، ولا أبناء!

- يتيم، لقيط؟!

- لا!

الحقيقة أن قصتي غريبة، أنا لم أصدقها!

ولكم الحرية في تصديقها أو لا.

ولادتي كانت في أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات الميلادية. لا أوراق رسمية توضح تاريخ مولدي.

والآن سأحدثكم دون إسهاب عن العبد الفقير إلى مغفرة ربه ورضوانه: منير...

بكل تأكيد أنكم قرأتموها في الكتب: تأليف العبد الفقير إلى مغفرة ربه ورضوانه فلان، أو العبد الفقير الشيخ ابن الشيخ حفيد الشيخ (رحمهم الله وجعل قبورهم روضة من رياض الجنة).

يقال يا سادة يا كرام، وكما أخبرني بعضهم أن والدتي أصيبت بمرض عضال بعد ولادتي بسنة، ما اضطر والدي إلى أن يبحث لها عن علاج، فكان القرار مغادرة مدينة الطائف، ثم التوجه خارج الوطن.

لا أعلم بالتحديد!

هنالك من يقول إنهما اتجها إلى مصر بحثاً عن طبيب ومستشفى.

وماذا عني أنا؟

ربما خاف والدي أن يعول رضيعاً في رحلة يعلم أنها شاقة ومكلفة. وبالطبع، في ذلك الزمن، وتحديداً أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات الميلادية، كانت الدولة تضع خطواتها الأولى في الركب الحضاري، والسفر مرهق ومكلف.

لذا، كان هنالك قرار صعب على الوالدين: حمل الرضيع معهما، وقد يكون هنالك خطر على حياته، أو إبقاؤه عند من يعوله من الأهل، فاختير الأمر الثاني. لم يكن هنالك أهل لعائلتي، ولكن هنالك صديقة مقربة لوالدتي. هذه الصديقة تقطن مع زوجها وطفلتين، إحداهما بعمري، قد تكون صديقة وقد تكون قريبة، لا أدري!

لم تمضِ سنة أو سنة ونصف، أو ربما أقل بكثير، على بقائي عند هذه العائلة، حتى حدث ما لم يكن بالحسبان: تركتني هذه الأسرة، الأب والأم والطفلتان، ذهبوا إلى مكان من يذهب إليه لا يرجع، لسبب عرفته في ما بعد، وعرفه سكان حي السلامة في الطائف؛ كانت النار سبباً في مغادرتهم هذه الحياة.

في ذلك الوقت، كنت أجلس على عتبة بيتهم، كأنني أنتظر أمراً ما: مجيء والدي، ربما! مستقبل غامض بكل تأكيد!

***

أعذرك كثيراً عندما تعيش مأزق البداية. أنت تريد أن تحكي قصتك الغريبة، وتريد ألّا يغادر أحد إلّا بعد نهاية القصة التي هي بلا شك طويلة ومتشعبة، ولكنها متميّزة ومختلفة. هي أوراق تريد أن تكشفها للجميع، أوراق خاصة، وبعضها خاصّ جدّاً وقد يمسّ أيضاً خصوصية آخرين. لن تتطرق إلى ما هو سيئ. ربما، لكن تسعى أن تقدّم الواقع كما عشته وخبرته.

هذه حياتك، قدّمها كيف تشاء، ولكن قبل ذلك، ثقْ أن القارئ ذكي، ويعرف الصدق من الكذب.

الساعة تشير إلى الثانية ظهراً. لم يسألك ذلك الرجل: لماذا غادرت العمل قبل أن ينتهي وقته؟ ربما خاف أن تباغته بسؤالك: وأنت أيضاً لماذا تغادر في هذا الوقت المبكر؟ بقي ثلاث ساعات على نهاية العمل. تدخل بيتك، شقتك الصغيرة، الحقيرة، تضع الأوراق والكتب التي أحضرتها من مكتبك قرب جهاز الحاسب.

لا تدري: هل تنام قليلاً ثم تستيقظ لتعد لنفسك طعاماً وتبدأ مشروعك الجديد؟ أنت الآن تعيش الفصل الأخير من حياتك، هذا ما يدور في خلدك. أنت دون عمل،

مسؤول عن نفسك فقط، لست مطالباً بإعالة أحد. لديك رصيد بنكي يكفي لكي تعيش مطمئناً، وراتب تقاعديّ يساعدك على ممارسة الحياة في مدينة صاخبة مثل الرياض.

تتجه إلى غرفة نومك، تغلق ستائر الغرفة القديمة، يعمّ الظلام، تتّجه إلى سريرك، وتقذف بنفسك على السرير بعد أن لبست ثوباً بيتيّاً فضفاضاً. تقرر أن تنام.

٣

هل لك أن تتخيّل أيامك الأولى! لتكن ولادتك في مدينة الطائف، في عهد الملك سعود، تحديداً بعد توليه الحكم بخمس سنوات أو ستّ. هذه الولادة يصعب أن تتحدّث عنها، حتى لو أردت أن تكتب عن الطائف مثلاً، وتحديداً حي السلامة. لن تتذكر شيئاً أبداً، ولن يتذكرك أحد في ذلك الحي لأنك غادرته بعد ولادتك تلك بقرابة السنة والنصف، ربما وأنت لا تعي، إلى حيّ الشرقية. في ذلك الوقت، وُلِدتَ مرة أخرى، لكن بصورة مختلفة.

تتذكر العم مسعود وهو يحدثك عن ذلك. أنت تتذكّر حديثه لأنه كرره عليك أكثر من مرة، وفي مناسبات متعددة. يقول:

> كنتُ مدعوّاً لتناول الغداء عند أحد الأصدقاء في حي السلامة، وكنت حريصاً على مغادرة بيت ذلك الصديق مباشرة بعد تناول الغداء حتى أتمكن من التوجه إلى حيّ الشرقية حيث أقطن، وأصلي العصر في مسجد الحيّ، في طريقي متجهاً إلى باب الريع. وفي أحد الأحياء الداخلية، حيث غالبية البيوت من دور واحد مبنية من الطين، لمحت طفلاً يجلس على عتبة بيته، صغيراً ربما لم يتجاوز السنتين، أعجبتني ملامحه. وأنا أمشي لم تغادر عينيَّ هيئتُه البسيطة الجذابة. لقد شد انتباهي لدرجة أنني أردت أن أتّجه إليه وأقبله. كان يجلس ببراءة، ولا يعي أن ملك الموت كان في البيت الذي خلفه قبل دقائق يقبض أرواح عائلة كان عندهم بعد أن احترق منزلهم. باب المنزل الخارجي بدأ يشتعل، وعندما اقتربت لأعرف مصدر الدخان الذي بدأ يخرج من سطح المنزل ونوافذه، حملت الطفل وبدأت أستنجد الناس الذين كانوا يقيلون في

منازلهم. هبّ الجميع لإخماد الحريق. بحثت عن أقرب بيت في الحي يوحي أن فيه أطفالاً، وفي الوقت نفسه بعيداً عن البيت المحترق، لأضع الطفل عندهم، حتى يعيدوه إلى أهله. كان في طرف الشارع بيت صغير خرج منه بعض الصبية، فسألتهم: أين أمكم؟ فخرجت امرأة لتستطلع الأمر، أعطيتها الطفل وقلت لها: "أبقيه عندك حتى نعرف ماذا حدث لأهله". عرفت في ما بعد أن تلك المرأة من اليمن، كانت النار أسرع من سيارات المطافئ والإسعاف. أسرة من أب وأم وطفلتين جميعهم تفحّموا، واحترق البيت بأكمله. ساعد على ذلك الأسقف الخشبية، والأثاث البسيط.

أصبت بالرعب من مشهد النار التي التهمت كل شيء. وصلت إلى حي الشرقية مشياً على الأقدام، كعادتي، لم ينبهني إلّا أذان المغرب. كانت ملابسي ملطّخة بدخان النار الأسود، وماء إطفاء الحريق، وطين ذلك البيت.

نمت تلك الليلة باكراً وأنا أفكر في ذلك الطفل الذي فقد أهله.

قررت أن أعود إلى ذلك الشارع لأطمئن على الطفل، فربما أخذه بعض أقاربه.

تحوّل البيت إلى ركام أسود. اتجهت إلى المرأة اليمنية.

سألتها عن الطفل.

فأخبرتني أنه ما زال لديها.

تساءلت مستغرباً: ألم يأتِ أحد يعرف تلك الأسرة المنكوبة؟

أخبرتني أن الولد ليس ابنهم، بل تركته امرأة كانت تقطن مع زوجها في ذلك الحي عند تلك الأسرة لمرض الأم واضطرار الأب إلى السفر بها خارج الطائف للعلاج.

ما فاجأني طلب تلك المرأة إليّ أن آخذ ذلك الطفل، لأنها لا تقدر على إعالته مع أطفالها. أخذت الطفل ودرت به على بيوت ذلك الشارع. لم يعرفه أحد منهم، واتفقوا أن تلك الأسرة المنكوبة ليس لديها ابن، بل ابنتان إحداهما بعمر الطفل الذي كان يقول إن اسمه منير.

كان الاسم غريباً، لم أفكر أبداً في تغييره، ولكن منير ابن من؟ لم أعرف ولم يعرف أحد، قررت أن آخذه إلى دار الأيتام. ولكن هل أتركه ليكون ضمن أطفال أيتام ولقطاء، الآن يعتبر كذلك. هذا الطفل له سحر خاص. أشعر بالراحة عندما أنظر إليه، وأشعر بغريزة افتقدتها في حياتي حينما اتخذت مساراً بعيداً عن النساء: غريزة الأبوة. لم أفتك من أسره منذ رأيته قبل أن ألمح الحريق. أنا لم أتزوّج وأعيش وحيداً؛ ليكن ابناً لي!

ها أنت يا منير ابن للعم مسعود، ولكن حتى لا يطاوله الشك بأنك ابنه فعلاً قرر أن يختار اسم عبد الله لكي يكون اسمك منير عبد الله.

هذه هي بداية قصتك. لن تقدر مهما حاولت أن تجد الصفحات الممزّقة التي ربما احترقت بحريق المنزل ذاك. لن تعرف أين ولدت ومتى. جميل أنك عرفت أن اسمك منير، واختير اسم عبد الله ليكون اسم والدك، فكل الآباء عَبيد الله. ربما هذا يكفي.

***

طفل صغير لم يتجاوز السنتين يجلس على عتبة بيت وضيع من دور واحد، داخله أناس يحترقون، وهو لا يدري، يبقى وحيداً، يشفق عليه رجل يتبناه ويكون أباً له في ما بعد، يحمله ويطلب من أسرة قدمت إليها أولاداً وبناتٍ، إحداهن في عمره، أن ترعاه حتى يجد أحداً من عائلته.

للقصة بقية، ولكن لن أتعبكم بحديث مملّ، فالوالدان لم يرجعا إلى الطائف ليبحثا عن رضيعهما، وأوراق الطفل احترقت مع الأسرة. تلك المرأة التي بقي عندها منير لمدة يوم هل كانت صادقة في أن والديّ الطفل غادرا الطائف.

اسمي منير، ولكن هل أنا طالع نحس؟ أمي مرضت بعد إنجابي، الأسرة احترقت، ولكن ذلك الرجل الذي سعى أن يتبناني رأى أنني طالع خير له. أحياناً أفكر: ما الذي حدث لوالديّ، وخاصة والدتي، ربما شفيت وقررت العودة للقاء ابنها الذي تركته عند صديقتها.

قد يكون ذلك، ولكن ربما وصل إليها خبر موت صديقتها حرقاً مع زوجها وابنتيها. لذا، لا بد أن ابنها، وهو أنا، قد احترق معهم، لأن أمر الجلوس على عتبة البيت لن يرد في بالها أبداً. ستحزن كثيراً المسكينة، وكذلك أبي. ربما عادا إلى الطائف، وسكنا في حي آخر، لنقل حي معشّي أو العقيق أو لنقل حي السلامة، حيث ذكرى ابنهم الفقيد. ربما بقيا في البلد الذي ذهبا إليه: مصر، أو الأردن، أو لندن، لا أدري!

ربما ماتت الأم بعد وصولها بلد الاستشفاء، فهذا وارد كثيراً، لأنها – كما قالوا – كانت مريضة. ربما تزوج والدي امرأة أخرى، وعندما عاد إلى الطائف، سأل عني، وعلم بخبر الحريق، ومن المؤكد أنه حزن كثيراً عليَّ. مصيبتان: فقد زوجته، وفقد ولده. لذا، لا بد أنه سيترك الطائف ويذهب إلى أي مكان آخر.

أرأيتم، ثمة احتمالات كثيرة تتعلق بمصير والديّ؟

لا أدري أهم أحياء حتى الآن أم أموات؟

لذا، أنا لست لقيطاً ولا يتيماً!

أنا "منير". منير ماذا؟

لا يهم.

من يصدّقني؟

هذا اتفاق بيني وبينكم، سأكون صادقاً معكم، في المقابل عليكم أن تصدقوني.

بالطبع، ما أسطره على هذه الأوراق فيه كثير من الحقيقة. لن أذكر أسماء، هنالك بعض الحقائق، ربما أعتقد أنها حقائق؛ الشمس حقيقة، أنا أرى الشمس، بعض الحقائق تشبهها.

هي ليست سيرة، ولا مذكرات، ولا رواية. ماذا؟ هي كلمات كتبها "منير" في فترات متقطعة ومتباعدة. صدقوني ها هي الأوراق أمامي، قصاصات، دفاتر، "نوت بوك"، أوراق عليها شعارات مختلفة، مهرجانات، لقاءات، أوراق وصفات طبية، مناديل ورق.

أتذكر أنني ذات يوم كنت مسافراً من الرياض إلى الدار البيضاء، تذكرت أمراً، لم يكن معي ورق أكتب عليه، وكانت قائمة الطعام التي قدمتها لي مضيفة الطائرة متنفساً لتلك الرغبة في الكتابة، ها هي ضمن الأوراق.

***

محاولة جيدة للبداية، ولاسيما أن بعض الأوراق التي فرّغتها في الصفحات الأولى من سيرتك خفّفت حالة القلق التي لديك. لم تفكر أبداً أن تغادر شقتك. تسمع صوت هاتفك المحمول، تقرّر ألّا ترد، تفكر في أن تغلقه، رقم غريب لا تعرفه، ينتابك الفضول وتقرر أن ترد، تسمعه يقول: "أين أنت يا منير؟ سنوات وأنا أبحث عنك؟"، تحاول أن تعرف من المتكلم، فيرد عليك: "لو أخبرتك باسمي، فلن تعرفني، ولكن أنا أعرفك وأعرف كل شيء عنك".

تطلب منه أن يزورك في شقتك، فيعتذر ويقول: "المهمّ أنني وجدتك، سعيد أنا بذلك! وستسعد كثيراً عندما تقابلني"، ويختتم مكالمته قائلاً: "ماذا لو نلتقي هذا المساء؟".

تشعر بضجيج الكلمات بعد أن ينهي مكالمته، إعصار مرّ بك ليشتت تفكيرك؛ هل هو طريق أخير؟ لا تدري!

لأطرح الأمر عليك ببساطة: رجل عاش عمره بلا أبوين، لا يعرفهما أبداً، وبعد نصف قرن جاء رجل وامرأة تجاوزا السبعين ليقولا: نحن والداك، هل سيصدقهما؟ أم يذهب بهما إلى دار المسنّين؟ ربما أصابهما داء الخرف، ولن نقول الزهايمر، ولكن الذي اتصل عليك لم يقل: ''أنا أبوك''. قال: ''هو يعرف''، قد تكون معرفته مكسباً لك.

تعد لنفسك كوباً من الشاي، وتحاول العودة إلى الكتابة، ولكن لا تستطيع. تنتظر مكالمته ليحدد موعد اللقاء، تقول في نفسك: لا يهم، لن أخسر شيئاً، سأعرف ماذا يعرف عني. ألم يقل إنه يعرف كل شيء، إذاً هي فرصة جيدة لك ربما لشحن الذاكرة.

تقرّر الاتصال به لتحديد المكان والزمان، ولاسيما أن الشمس أوشكت على الغروب، ولكن تتراجع. أنت الآن حرّ ليس لديك أي ارتباط، من يريدك ويحرص على لقائك سيبحث عنك ويجدك. كان لديك عدد كبير من الأصدقاء، ولكنك غادرتهم، أو هم غادروا عوالمك الغريبة؛ فهل هذا من أصدقائك القدامى أو ممّن له علاقة بالناس الذين احتضنوك وعشت زمناً معهم. يدوّي السؤال في رأسك، يزعجك كثيراً، فتهرب إلى مجموعة من الأوراق، تقرؤها، وتعيد كتابتها ضمن رصدك لسيرتك.

٤

"أنا ابن جنية، هم يقولون ذلك!"، كتبت تلك الكلمات أكثر من مرة ثم مسحتُها؛ حرت كيف أبدأ.

دعوني أسهّل عليكم وعلى نفسي الأمر: في البدء، هنالك من يتساءل كيف تصف نفسك بأنك "ابن جِنية"، هل يعقل أن يصف رجل أمه بالجنية، حاشا لله! ولكن دعوني أخبركم بأمر سأتحدث عنه لاحقاً بإسهاب: أنا لا أعرف أمي ولا أبي، لست لقيطاً، ولا يتيماً. ربما هما على قيد الحياة يعيشان في مكان ما، ولكن لا أعرفهما، ولا أحد ممن حولي يعرفهما، عشت مع رجل منذ كان عمري ثلاث سنوات، أو أقل بأشهر، هذا الرجل لم يتزوج أبداً، ولم يفكّر في الزواج، رجل غريب جداً، أحبني وأحببته، عشت معه سنين طويلة. غرس فيّ كثيراً من القيم والأخلاق، وتعلّمت منه الكثير، لا تستعجلوا، سأحدثكم لاحقاً عنه.

يبدو لي أن بعض الأمور بدأت تتضح لديكم.

لكم أن تتخيّلوا رجلاً يعيش وحيداً، لم يتزوج أبداً، وليست لديه علاقة بالنساء، هو رجل متديّن، ملتزم، يقطن في بيئة سعودية لا مجال فيها متاح لتكوين علاقة مع امرأة، رجل خيّر في مجتمع بدائي بسيط، لا مجال للبغايا فيه، وفجأة، يصبح لديه ابن يعيش معه؛ من أين جاء هذا الابن؟

عدد بسيط من الناس يعرفون كيف جاء هذا الولد ومتى؟ ولكن الغالبية تناولوا خبراً صدقوه في ما بعد: هذا الرجل الذي زهد بنساء الإنس لديه زوجة من الجنّ، أنجبت له ولداً، هو أنا، لكنني لا أشبهه، ولا أشبه سكان الحي الذي عشنا فيه.

بشرتي بيضاء قليلاً، شعري يميل إلى الشقرة، ناعم، ومسترسل، شكلي وسيم. واسمي منير... لاحظتم الغرابة؟

هذه العتبة الأولى للحديث عن حكايتي؛ بالمناسبة، لدي علاقة بالعتبات، سأتحدث عنها لاحقاً، وأعتقد أنها مهمة! وسترون ذلك.

***

عمري جاوز الخمسين، أعيش في الرياض، تزوجت أكثر من مرة، زيجات للأسف فاشلة أو تنتهي بنهايات مأساوية.

قبل أن أبدأ سرد حكايتي دعوني أقول لكم بكل صراحة إنني أردت أن أتخلص من ضغوط الكلمات والذكريات والحكايات التي حاصرتني.

لكم أن تتخيلوا رجلاً دون هوية، أو بالأصح يحمل هوية قد تكون غير حقيقية. هويتي توضح أنني سعودي، ولكن ربما أكون غير ذلك: من الشام، من مصر، من بقعة فيها أناس يشبهونني في هذا العالم.

هذا الرجل "أنا"، له علاقة بأناس مختلفين، ربما أصبح بعضهم نجوماً، وبعضهم ملحدين، ربما صار بعضهم متشدداً دينياً، ربما!

كدت أن أكون حداثياً، ووجدت نفسي بين شباب الصحوة، وقبل ذلك كانت لي حكاية مع رجل دهَم الحرم مع جهيمان وقُتل، وفي سنوات متأخرة، تعرفت على بعض التنويريين، والليبراليين...

من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، إلى الوسط. لا تستغربوا!

ربما صدق من قال: "أنا ابن جنية" ليست لي علاقة بكل من التقيت بهم، وليست لي علاقة أيضاً بالناس القريبين مني، الذين تحدّثوا إلي بشفافية، قد أكون

فعلاً مقطوعاً من شجرة، وهذا يريح كلَّ من تربطني بهم علاقة الزمان والمكان. يعرفون – ربما أغلبهم – أنني لا أرتبط بأسرة غير الشيخ الطيب الذي تبناني، والأسرة التي ساعدت ذلك الشيخ ورعتني طفلاً.

إذاً، لا تراكمات قبيلية ولا مذهبية ولا أيضاً اجتماعية. ربما المسألة شائكة لي ولكم، ولكن مأساتي، كما قال لي أحدهم، أنني طيب، أحب الجميع، لا أحمل بذرة الحقد والكراهية، صادق وصريح، بسيط، أخاف كثيراً، غير جريء، متردّد، مقبول من كثير من الناس، أجمع كل المتناقضات. باختصار: تركيبة إنسانية غريبة، ربما تركيبة زمن المتغيّرات في بلد عاش أهله المتغيّرات التي أوجدت تلك التشكّلات الغريبة، أزمنة شكّلت الناس، وتمثّلت في كلمات محددة، ربما كلمة واحدة، ويأتي بعدها آلاف الكلمات التي تتحدث عنها كلمة يرددها الناس، وتضجّ في أذهانهم، يتناقلونها كمنشورات سرية في البدء، ثم لا تلبث أن تكون مشاعة، من هذه الكلمات: "بساطة"، "حزب"، "طفرة"، "حداثة"، "صحوة"، "جهاد"، "سلفية"، "وهابية"، "شيعة"، "وسطية"، "ليبرالية"... وكلمات كثيرة تنحت أجساد البشر، مع غياب كلمتين ربما هما أهم من تلك الكلمات، هاتان الكلمتان هما "إسلام" و "وطن".

هناك من يقول: وطنك تحت الأرض، أنت طفل الأرض، ألست ابن جنية؟

سأترك إجابة هذا السؤال معلّقة، لأسأل نفسي: هل أنا حقاً ابن هذا الوطن؟ هل أنتمي إليه؟

أحببت هذا الوطن كثيراً فهل يعلم مقدار هذا الحب؟

***

صوت هاتفك المحمول يجعلك تترك لوحة مفاتيح حاسبك الآلي وتتجه لترد على المتّصل: "عذراً تأخرت عليك قليلاً"، تسمعه يقول لك، ترد عليه: "لا بأس!".

تسمعه يسألك: "ما المكان المناسب لك، غير بيتك طبعاً، لكي نلتقي؟".

تفكر قليلاً، وتريح نفسك بقولك: "أنت اختر أي مكان".

- ماذا لو التقينا عند أحد إخوتك؟

"ماذا؟"، صوتك لا شعورياً ارتفع مستفهماً، وقلبك بدأ يخفق.

ثم تقول له: "عذراً، ربما أنت مخطئ، ربما كنت تبحث عن شخص آخر غيري، مع الأسف، ليس لدي إخوة".

تسمعه يقول لك عبر الهاتف: "يا منير، أعرفك، وأعرف العم مسعود، وفي الوقت نفسه أعرف أسرتك".

- أسرتي، أينك وأينهم، عندما كنت طفلاً، ثم شاباً، أينهم في السنوات الطويلة التي قضيتها في الرياض، أينهم عندما يسألني من سأقترن بابنته عن عائلتي فأخبرهم ب"لا أعرف"، أين؟

يقاطعني: "اهدأ، هم لم يعرفوا بعد أنك حيّ موجود، سأتواصل معك لاحقاً".

يغلق السماعة بعد أن جعلك تعيش في دوامة الأسئلة, تبحث عن شبيه لصوته عبر ذاكرتك المهترئة، فتصاب بالإعياء؛ ليس صديقاً، ولا أعداء لديك، ربما أحد موظفي الشركة أراد أن يستفزّك، ولكن ماذا يستفيد من ذلك؟

تسترخي على مقعد في غرفة الجلوس، وتبحث في قنوات الأفلام عن فيلم كوميدي، رغبةً في الضحك، وخوفاً من البكاء!

٥

كنت أفكر في مأزق الوسط، مأزق الوسط لرجل مثلي قد يكون مزعجاً، أنا لست ملحداً، وفي الوقت نفسه لست مثالياً في التزامي الديني. أحدهم قال لي ذات مساء: أنت مقطوع من شجرة، أعرف أنك ترفض أن يقال عنك لقيط أو يتيم، ومثلك لو قَتَل أو فَجّر نفسه أو اتّخذ موقفاً متطرفاً أو شاذاً لن يضرَّ أحداً، إذ ليس لديك قبيلة أو أسرة لتدافع عنك أو تتبرأ منك، ولن يحزن عليك أحد. وفي المقابل، ستحصل على شهرة خاصة لك، ستكون إنساناً وُجِدَ على هذه الأرض، في هذه الحياة، وقدم شيئاً، سيئاً أو جيداً، لك الحرية بذلك.

"من أنت؟"، يزعجني هذا السؤال، فهو يتعدّى الشخص إلى الأسرة والقبيلة والانتماء، وأنا أفقدها. أنا أريد أن أكون أنا. كثير من مشاهير العالم عرفناهم دون معرفتنا انتماءاتهم الأسرية، بل إن من المبدعين لقطاء، أو نتيجة لعلاقة غير سوية، لقطاء وحققوا الشهرة، وعرفهم العالم، إذاً، لماذا هنا لا يهمهم الشخص الذي يقول: "أنا... أنا".

كان هنالك سؤال يحاصرني دائماً: لو لم يبادر أبي مسعود ويبعدني من أمام بيت أبو عطية المحترق، ويذهب بي إلى بيت أم حزام اليمنية (بالمناسبة عرفت هذا الاسم في ما بعد)، لربما وطأتني الأقدام، أو دخلت البيت وأنا الطفل الذي لا يعي معنى الحريق ولا خطورته لأموت مع تلك الأسرة. قد أختنق، ولربما يحملني أحد رجال المطافئ، أو الأمن إلى دار الأيتام.

أبي مسعود الرجل الطيب الذي تبناني تعرفه غالبية مدرسي المدرستين الابتدائية والمتوسطة في حيّ الشرقية. لذا، لم أواجه في هاتين المرحلتين مشكلة ولي الأمر، لأن "العم مسعود"، كما يسميه الجميع، هو والدي الذي تبنّاني، هو الذي أنقذني من الموت والضياع عندما كنت أجلس على عتبة البيت المحترق. كان الجميع يستغرب لماذا أجلس على العتبة، وهي عادة بقيت لدي حتى الآن، هل أنتظر أحداً، أم أراقب الناس؟

ربما منذ طفولتي وأنا أمارس المراقبة والتفرّج على العالم، أجلس على العتبة ساعاتٍ، أتفرس بكل من حولي، لا أتدخل بشأن أحد، ولا أثير شغباً، مسالم دائماً. العالم حولي عرض مسرحي، أو شاشة سينمائية وأنا المتفرج الوحيد، نهاية مفتوحة لحكايتي. هذا ما توقعته منذ طفولتي، أعيش وأحلم، أمارس الانتظار؛ هل كنت أنتظر والدي عندما كنت أجلس على عتبة البيت في آخر يوم من حياة "أبو عطية وعائلته؟" (أيضاً عرفت هذا الاسم في ما بعد).

ماذا لو كنت ابناً لتلك العائلة، لأصبحت فعلاً يتيماً. شقيق أبو عطية، كما علمت منذ سنوات، جاء بعد أن وصله خبر احتراق أخيه وعائلته، وعندما طُلب منه أن يأخذني معه اعتذر، لأن أخاه لم يرزق إلا بابنتين اختنقتا بدخان الحريق، أو تفحمتا، لا أدري تماماً. وأوصى بإرسالي إلى دار الأيتام.

لا علاقة لي بأبي عطية ولا بزوجته، صديقة والدتي كما بلغني، وربما قريبتها، ولا عائلته.

لا علاقة لي بالرجل الطيب الذي تبناني، لا علاقة لي بنفسي، لا علاقة لي بكل من قابلته، وتعرفت إليه أو صادقته، لا علاقة لي بهذه الحياة!

***

لم تضحك عندما تابعت فيلم إسماعيل ياسين، ومن لا يضحكه هذا الفنان، ربما بسبب ذلك السواد داخلك، تلك القتامة التي تكونت عبر سنوات، لأنك لم تتجاوز أزمة الفقد، وربما لم تتصالح مع نفسك، تحاول أن تعرف اسم من اتصل بك، فلا تعرف. تحمل هاتفك النقال وتتصل عليه.

- أهلاً منير.

تقول له مباشرة: "عذراً، أنا لم أتعرف إليك بعد".

يجيبك: "كل شيء في أوانه"، ثم يضيف: "صدقني أنا أعرف أشياء كثيرة عنك، لا بد أن نلتقي، ولكن ليس عند أحد إخوتك، ولكن في مقهى أحدده لاحقاً".

"ولماذا لا يكون اللقاء الآن؟ هناك أكثر من مقهى في الحي الذي أقطنه، تريد شارع التحلية، لا بأس". تردّ عليه بحماسة.

"أنا الآن خارج مدينة الرياض، سأعود بعد أسبوع وأتصل بك، لا تقلق، أو كأنني لم أتصل بك، تحياتي"، يجيبك بهدوء.

يغلق الهاتف ليريحك من عناء الانتظار، وليوقد داخلك شمعة أمل.

تحدّث نفسك قائلاً: "لن أخسر شيئاً". تعاود تصفّح أوراقك لترصدها ضمن مشروع سيرتك في الحاسب الآلي.

٦

رجل بعيد عن عالم النساء، هذا هو "العم مسعود"، جاء من أواسط نجد، حفظ القرآن الكريم صغيراً، وتعلم القراءة والكتابة في قريته، كبر وشعر أنه محاصر برغبة أمه في إكمال نصف دينه، لم تكن لديه الرغبة أبداً في الزواج، كان سوياً، ولكن لم تنل منه الشهوة، فبقي بعيداً عنها.

كان أسوأ سؤال يطرح عليه: لماذا لم تتزوج؟ فيردد مقولة المعري: "هذا ما جناه عليّ أبي وما جنيت على أحد". ويضيف: "أريد أن أعيش حراً، طليقاً، أكره عبودية النساء".

قرر أن يترك قريته الصغيرة ويتجه إلى مدينة الطائف. فكّر في البدء أن يذهب إلى مكة ليعيش بجوار الكعبة المشرفة، سيأتيه الرزق حتماً من أهل الخير، ولكنه تذكّر أن بقاءه في مكة سيجعله يلتقي بأقاربه وأهل قريته الذين يأتون للحج والعمرة، وهو لا يرغب أن يقابلهم، ليس كرهاً أو خوفاً منهم، ولكن ربما سيبذلون كل ما في استطاعتهم لإقناعه بالعودة إلى قريته، وطاعة والديه، وبكل تأكيد الاقتران بامرأة. وتمنّى أيضاً أن تكون وجهته إلى المدينة، ليجاور قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ولكنها مثل مكة المكرمة، فالكل يأتي إليها لزيارة المسجد النبوي، وسيجد نفسه محاصراً بطلب العودة إلى أهله.

لم يكن وحيد والديه، ولم يكن عاقاً لهما، ولكن كان كل ما يأمله أن يؤجّلا طلب الزواج حتى يقرر هو، رضخ والده لرغبته، وشعرت والدته أن رغبته ليست مؤقتة بل دائمة، فقد كانت تشعر أن ثمة اختلافاً بينه وبين إخوته. كان يخاف من

أن تقترب منه امرأة غريبة عنه. منذ صغره كان ودوداً مع الجميع، يتعامل مع أخواته بلطف كأنه منهن، ويتعامل مع إخوته برجولة حتى يشعر الجميع بهيبته واحترامه. كان مختلفاً، كان منذ صغره يهتم بملابسه، لا يحب الفوضى، خصص له والده غرفة رغم أنه ليس أكبرهم، حفظه القرآن وحرصه على العلم جعلا والده يتوقع أن يكون من علماء نجد.

كان قراره أن يعيش في مدينة الطائف. حفظه القرآن ومعرفته القراءة والكتابة جعلا قبوله سهلاً في "دار التوحيد" التي أراد الملك عبد العزيز أن تكون أول مدرسة نظامية. كان مصروف الجيب والملابس التي تعطى لكل طالب مساعداً على العيش والبقاء هناك، وهذا ما أسعد والده كثيراً، وشعر أنه في الاتجاه الصحيح.

امتهن التعليم بعد تخرّجه من المدرسة، تنقّل بين أكثر من مدرسة في الطائف، حيث استقر به المقام في حي الشرقية، مدرساً في مدرستها المتوسطة لعلوم الدين واللغة العربية. توفّي والده بعد سنوات، ومن نصيبه من الميراث اشترى بيتاً من دورين. سكن في الدور السفلي، وأجّر الدور العلوي.

مسعود بن عقاب، هذا اسمه، عالم مختلف عن عوالم الرجال جميعهم، رجل، ولا يشك أحد في رجولته، عالِم، والجميع يحترم علمه، فهو المرجع الأول لأي سائل عن أمور الدين والدنيا، يحب الشعر، والنبطي خاصة، وليس بشاعر، ولم يقل أبداً بيتاً من الشعر، لكنه يحفظ من الشعر ما يخوّله أن يكون صناجة العصر الحديث، ولكن بتواضع ظاهر لا يحب أن يتفاخر بذلك. يحب مجالس الأنس، يضع في صدر مجلسه صورة للملك عبد العزيز، يقتني غالباً بعض الصحف، وعندما بدأ البث الإذاعي، اشترى راديو كبيراً ببطارية شحن، وبدأ يستمع للإذاعة

السعودية وإذاعة الشرق الأدنى ولندن، لم يعترض على سماع الموسيقا والأغنيات العربية التي تبثها بعض الإذاعات، ولم يمثّل له هذا مصدر عيب عندما يزوره بعض أقاربه ممن يتبنون حرمة الإذاعة والمعازف. كان يسمعهم التلاوات القرآنية والأخبار، ويقول دائماً: "لا أحب الجدال في ما لا يوجد نص صريح على حرمته"، هذا جعل بعضهم يدعو له بالهداية، لأن لديه مذياعاً. هؤلاء بعد سنوات كانت في بيوتهم أكثر من جهاز راديو وتلفاز.

ولأنه لا يرغب في النساء، لم يفكر أبداً أن يكون له ولد، ومع هذا لم يكن ينفر من الأطفال أبداً. كان يحب اللعب معهم، وخاصة أولئك الذين تهتم بهم أمهاتهم، لأنه يحبّ النظافة، والأناقة، وكثيراً ما يشتري بعض الحلوى ويوزّعها على الأطفال، خاصة من كانت ملابسهم نظيفة.

"الأستاذ مسعود" كان محبوباً، وله علاقات كثيرة مع كل فئات المجتمع، خاصة من علّمهم أو درّس أبناءهم. كان يستقبل في بيته بعد صلاة المغرب بعض الأصدقاء من طلبة العلم، يقرؤون كتاباً ويناقشون مسألة، وفي العصر، كان يحرص على أن يذهب إلى بعض كبار السنّ ليجلس معهم، وأحياناً يتجه إلى وسط البلد ليمرّ على بعض المكتبات، وباعة الكتب المستعملة، يشتري بعض الكتب، ويهدي غالبيتها لبعض أصدقائه.

كان يحب المشي ويشعر أن مدينة الطائف بحدائقها، وأشجارها الكبيرة، وجوّها المعتدل، مدينة للنزهة، والتمتّع بالطبيعة الخلابة. كان يفرح عندما يأخذه أحد أصدقائه بسيارته بجولة في الهدى أو الشفا، أو طريق الجنوب. لم يفكر أبداً في بداية حياته بشراء أو قيادة سيارة، كان يقول: "حياتي لا تحتاج إلّا لرجلين".

لم يفكر أبداً أن يتبنّى طفلاً، أو يسمح لأحد أن يسكن معه بصفة دائمة، حتى من أقاربه، كانت هنالك غرفة للضيوف، في بيته، وغرفة للمعيشة فيها مكتبته، ومكان جلوسه الدائم، وغرفة رسمية "مجلس الرجال"، وكانت هنالك غرفة رابعة جعلها مستودعاً لبعض الأثاث والملابس.

هي حياته أرادها أن تكون هكذا مختلفةً عن الجميع، وحيد في عالم صاخب، ينام باكراً ويقوم لأداء صلاة الفجر، يقرأ حتى يحين موعد ذهابه إلى المدرسة، أثناء ذلك يُعدُّ لنفسه دلّة القهوة والتمر، يرحّب بمن يمرّ به أو يرافقه إلى بيته بعد أداء صلاة الفجر، يتناول الإفطار، ويتوجّه مشياً إلى المدرسة المتوسطة.

بيته نظيف ومرتّب، وكذلك ملابسه وجسده، وليس معه امرأة. تناقل بعض الجيران شائعة مفادها أن لديه "جنيّة" تخدمه، كان أحياناً يستعين بإقبال، العامل الهندي الذي فرّغ نفسه لخدمة المسجد، وخاصةً عندما يشعر ببعض التوعّك، حيث كان يساعده في إعداد الطعام أو نظافة المنزل، ولكن هذا ليس دائماً، ولا يلحظ أحد أنه يستعين بذلك العامل، وخاصة ممن يطلق شائعة الجنيّة.

كانت حياته ستستمر على ذلك المنوال حتى ظهر ذلك اليوم، عندما غادر بيت صديقه في حي السلامة متوجّهاً إلى بيته بعد تناوله وجبة الغداء.

لمح ذلك الطفل: ملابسه نظيفة، شعره يميل إلى الشُّقرة، أدخل يده في جيبه ليبحث عن حلوى ليقدّمها للطفل فلم يجد، اقترب منه ليقبّله، فوجئ بالدخان الأسود الكثيف وصوت احتراق الخشب، لمح النار تتجه إلى الخارج لتلتهم الطفل، حمله وهو يصرخ: "النار، حريقة، حريقة". حرص على أن يبعد الطفل عن الدخان والحريق وتجمهر الناس لإنقاذ من في داخل البيت، وجد أطفالاً في

بيت يبعد قليلاً عن البيت المحترق، طلب منهم أن ينادوا أمهم لتأخذ الطفل، حتى ينقذوا أهله، أخذته امرأة منه، وعاد ليساعد الناس في إخماد الحريق.

لم تكن وسائل الاتصال متاحةً في ذلك الزمن، وهذا أعطى للنار مساحة من الوقت لتنهي حكاية بيت ضمّ أسرة مكوّنة من أبوين وطفلتين.

لماذا بقي ذلك الطفل وحيداً على عتبة ذلك البيت، كان معرّضاً للاختطاف، لماذا لم يصرخ عندما حمله ذلك الرجل ليبحث له عن مكان آمن؟ لماذا لم يبكِ؟ لم يقل بابا، ماما؟ هل يعاني من شيء؟ ربما لو بقي في الداخل، لانتهت قصته، ولكن هي حكاية بدأت بولادة أخرى له، بلا أب أو أم، مع رجل عرفه الجميع بالعمّ مسعود أو الأستاذ مسعود، زوج الجنّيّة الذي لا علاقة له بنساء البشر.

لم تبدأ القصة لتنتهي، ووجه ذلك الطفل حاصره ذلك المساء عندما عاد متأخراً إلى بيته بملابسه التي مسّتها أدخنة النيران والماء والطين.

استيقظ مبكراً كعادته، تمنّى لو كان ذلك اليوم يوم جمعة، ربما ما احتاج أن يستأذن مدير المدرسة لقضاء بعض الأعمال الخاصة. اتّجه إلى ذلك الحيّ، كان البيت المنكوب في الوسط، وجد بعض الأشخاص يعاينون ما تبقى من حطامه المحترق.

- الحمد لله على قضائه وقدره.

- كانت النار أسرع من أن يغادروا البيت، بدأ اشتعال النار وفق تقرير الإطفاء، من المطبخ، كانت العائلة تقضي قيلولتها، في غرفة آخر المنزل، تفحّم الجميع.

- عدا ابنهم!

- لا، بل الجميع، الرجل وزوجته وابنتيه.

- وابنهم كان جالساً على عتبة منزلهم خارج البيت فلم يمسّ بأذى.

- لا ابنَ لهم.

- أنا أول من شاهد الحريق، حملت الطفل وأبعدته عند ذلك البيت في آخر هذا الشارع.

تقدم أحدهم وقال:

– هذا بيت أخي، جئتُ من قريتنا جنوب الطائف. ليس له أولاد. ابنتان فقط.

– إذاً، ابن من ذلك الطفل؟ ألم يفقد أحد ابنه ذلك اليوم؟

مباشرةً توجّه مسعود إلى ذلك البيت، طرق الباب، فتح أحد الأطفال، شاهد الطفل بينهم، سأل عن المرأة التي أخذت منه الطفل، جاءت وقالت له: "الولد هذا ليس ابنهم، والداه كانا يسكنان في مكان آخر غير هذا الحي، إحدى نساء الحي قالت إن أم هذا الطفل كانت مصابة بمرض، لذا تركه والداه عند تلك الأسرة حتى يعودا من خارج الطائف".

لم يعرف أحد الطفل، وذلك القريب رفض أن يبقيه لديه، وتلك المرأة اعتذرت عن إبقائه عندها لصعوبة العيش، ولاسيما أن لديها أبناء وبنات أحق بالرعاية. لذا، اقترح الجميع بأن يحمله ذلك الرجل إلى دار الأيتام ويبقيه هناك حتى يأتي والداه لأخذه.

تعلّق الولد بذلك الرجل كثيراً، كانت الحلوى التي قدّمها إليه رسول محبة وتعارف، عرف أن اسمه منير، فقط، ولا يعرف أكثر من ذلك.

مسعود رجل وحيد، والطفل شبه رضيع، يحتاج إلى امرأة لتهتمّ به، ويحتاج إلى ما لا يقلّ عن ثلاث سنوات أو أربع حتى يبدأ ذلك الطفل الفهم ويستطيع الاعتماد على نفسه. الأهم من ذلك لا أوراق رسمية لديه، ربما كانت لدى تلك

العائلة، لكن النار أكلت كلَّ شيء، ليكن طفلاً تائهاً وجده في الشارع، ليبحث عن أهله، أو من يدلّه على أهله، دار به على كل المنازل في ذلك الشارع، توسّعت دائرة البحث حتى غطّت جزءاً كبيراً من مدينة الطائف، شمل مراكز الشرطة وعيادات الأطباء، والدكاكين، وباعة الحلوى؛ كل الناس أكدوا أنهم لم يروه، ولا يعرفون عائلته.

دار الأيتام تستقبل حالات مشابهة لذلك الطفل، ليكن طفلاً تائهاً أو لقيطاً، ولكن وفق روايات سكان ذلك الحي الطفل ليس لقيطاً، بل له أهل غادروا الطائف إلى مكان غير معروف، لم يتخلّص منه والداه وهو في أيامه الأولى، بل بقي معهم قرابة السنتين، فكّر أن يلتقط له صورة ويرسلها إلى إحدى الصحف، ربما يعرفه أحد ويأتي ليأخذه من دار الأيتام أو بيت مسعود.

لا جدوى أبداً من البحث، ليس أمامه إلّا أن يحمل الطفل إلى دار الأيتام لتتولى الدولة رعايته.

لم يستطع فعل ذلك، وجه الطفل وبراءته يحاصراته، قال له: "بابا". هل قصدها فعلاً؟ هل ملامح أبيه تشبهه؟ لماذا لم يبكِ على العائلة التي استقبلته بعد مغادرة والديه؟ لماذا جلس على عتبة الدار؟ هل كان ينتظر مرور مسعود ليذهب معه؟

أقامت الدولة دوراً للأيتام واللقطاء، سيجد من سيهتم به، ولكن ربما حضر أهل ذلك الطفل، والداه أو أقرباؤه، واتجهوا إلى ذلك البيت المحترق. تقرير الإطفاء والأخبار التي تناقلها الناس تفيد بأن جميع أفراد العائلة تفحّموا، من سيفكر أن ذلك الطفل هو الناجي الوحيد؟ سيتوقع أهل ذلك الطفل أن مصيره كان مع تلك العائلة.

إرادة الله فوق كل شيء، سيؤمنون بقضاء الله، خافوا عليه من تعب السفر والتنقلات بين المدن والبلدان أملاً أن يعودوا في أقرب وقت ليأخذوه من تلك الأسرة، ولكن كما سيتوقّعون: الطفل غادر مع تلك الأسرة إلى رحلة أبدية، وحتى لو كان لدى دار الأيتام، لن يسأل عنه أحد. سيبقى مثل اللقيط، وهو ليس بلقيط! ليس بيتيم! هو الطفل الذي أحبّ أن يجلس على عتبة الدار في انتظار قادم، وكان القادم مسعود.

استكمل مسعود بيانات الطفل لدى الجهات الرسمية، وقرّر أن يتبنّاه. شجّعه على ذلك جاره جابر أبو دحيّم، وزوجته مريم أم دحيّم.

ارتاح كثيراً لأن هنالك امرأة ستشارك في رعاية الطفل، الذي شعر أن هنالك علاقة خاصة تربطه به لا يعيها. أحبه، بدأ يخاف عليه، عرف الجميع أن الأستاذ مسعود أصبح لديه ابن تبنّاه، فيما أكد بعضهم أن هذا الطفل الذي ظهر فجأة هو نتاج علاقته بالجنّيّة التي أنجبت له ولداً اسمه منير.

***

الطفل الهادئ المتأمل، هذا ما كان يقولونه عني عندما أحضرني والدي مسعود لأقيم عنده، ورعتني أمي مريم أم دحيّم، هذه هي المرأة الثالثة التي كان قدرها الاعتناء بطفل غريب الأطوار مثلي، بكل تأكيد المرأة الأولى هي أمي الحقيقية، من أنجبتني. أحاول أن أتذكر ملامحها لكن ذاكرتي تخونني، بكل تأكيد أحبتني، وخافت علي، وأبقتني معها أكثر من عام، حتى دهمها المرض. قد يكون المرض معدياً، مثلاً "السل" أو أحد أمراض الكبد، هذه أمي! مستحيل أن تفرّط أيّ أم بفلذة كبدها، لو لم تحبني أو كانت ولادتي نتيجة نزوة محرمة، لأجهضت أو

وضعتني عند أحد أبواب المساجد أو المستشفيات بعد ولادتي مباشرة، وأصبحت لقيطاً فعلاً، ولكن عشت معها ومع والدي في مكان ما لا أعيه أبداً. أمي الثانية هي تلك المرأة التي احترقت مع زوجها وطفليها. يبدو لي أنني لم أمكث مدة طويلة عندهم. لذا، لا أتذكّرها، ربما هي غير مبالية، تركتني أجلس على العتبة عند باب البيت في تلك الظهيرة، ذهبت إلى أقصى البيت لتنام مع زوجها وطفلتيها، وهي بكل تأكيد تعلم أن ذلك الوقت يقلّ فيه المشاة، وفرصة سانحة لأي مارّ أن يختطف طفلاً يلعب عند باب بيتهم، فكيف بطفل صغير لا يجيد الركض، ولا يفرّق بين التمرة والجمرة! من الصعوبة تخيّل أحداث ربما ليست هي الحقيقة. ربما اعتمدت هذه الأم على ابنتها الكبرى، وهي طفلة – كما علمت – ولكنها تدرك الخطر، اعتمدت عليها بالجلوس معي على عتبة الدار، ولاسيما أنني الطفل المفتون بالعتبات، كل ما أقوله: رحمها الله وأدخلها فسيح جناته. يكفي علاقتها بأمي الأصلية وموافقتها على رعايتي مدة غيابها. أما أمي الثالثة (مريم) التي عشت معها طفولتي الحقيقية، مع أبنائها الثلاثة: عبد الرحمن (دحيّم) وحسن وناصر، وأربع بنات: رحمة وحسنة ومها وعبير، جميعهم أبناء جابر، حسن وناصر أكبر مني بسنوات قليلة، وعبير بعمري، تقول أم دحيّم إنها أرضعتني معها، فأصبحت ابناً لهم بالرضاعة.

كنت أحبّ أن أجلس على عتبة دارهم، وأحياناً على عتبة دار والدي مسعود، أتأمل الناس الذين يمشون في الشارع، أتبع حسن وناصر، لم أفكر أبداً في أن أغادر تلكما العتبتين إلّا إلى داخل البيت، لا أتحدّث كثيراً، ليست لديّ القدرة الجيدة على الحفظ، إذ كان أمل والدي مسعود أن أحفظ القرآن كاملاً. بدأت أتعلم القراءة والكتابة في بيئة محفّزة على المعرفة وحب الثقافة والأدب، كنت أشعر

أنني مختلف قليلاً، ولاسيما أن أبي مسعوداً ليس أبي حقيقة، وأن أمي مريم أمّ بالرضاعة وليست حقيقية. لم يخبروني بذلك إلا عندما كبرت وبدأت أفهم من أنا، وبدأت أشعر بالنقص لفقدي والديَّ الحقيقيين، ولكن في داخلي أثق أنني لن أجد أفضل من أبي مسعود، وأحمل الحبَّ الكبير لأمي مريم أم دحيّم.

عندما التحقت بالمدرسة، وجدت أن بعض التلاميذ يتحاشون اللعب معي، ذات يوم قال لي أحدهم: "أمك جنية"، لم أفهم ماذا يقصد، فأخبرت أبي مسعود بذلك، فقال: "هداهم الله، قل لهم: أمي مثل أمهاتكم".

أنا مختلف، شئتُ أم أبيتُ، لا خالٌ لا عمٌّ، لا أخٌ لا أختٌ، لديّ والد بالرضاعة ووالد بالتبني، لن أرث أحداً عندما يموت. بنات جابر، أخواتي في الرضاع، ينظرن إليّ نظرة شفقة. أسئلة كثيرة تدور في رؤوسهن: لماذا تركته أمه؟ أليس له إخوة وأخوات وأعمام وأخوال؟ لماذا يقال أن أمه تركته عند جارتها؟ ربما والداه ليسا من أهل الطائف، بل ليسا من سكان الطائف، ربما ليسا من السعودية، شعره الأقرب إلى الشقرة، ولون عينيه، ربما هو شامي، فلسطيني، مصري... لماذا لا يكون ابن تلك الأسرة المنكوبة؟ خيال رحمة ابنة جابر واسع، إذ توقعت أنني ابن تلك الأسرة، الابن الذي من المفترض أن يرثهم بعد موتهم، خيالها المذهل حاك القصة كالتالي: الأسرة تنتمي إلى إحدى قرى الجنوب، وهذا نعرفه جميعاً، رب الأسرة له أخ، "الرجل الذي قابله مسعود في اليوم التالي، وأنكر أن الولد لأخيه"، لو أقرّ أن ذلك الطفل ابن أخيه، لخسر ثروة تتمثّل بمساحة كبيرة من الأراضي الزراعية ورثها مع أخيه "رب الأسرة"، من والدهما، بموت كامل العائلة، ومن ضمنهم الطفل، الذي لو بقي سيكون هو الوريث الوحيد، وأما حكاية أسرة الطفل، ومرض الأم، فهي مختلقة، وفق رأي رحمة، لأن القصة لا يعرفها

إلا تلك المرأة التي أبقى مسعود الطفل عندها، وبقليل من النقود من الأخ لها ولبعض الناس الذين يعرفون تلك الأسرة، سيقولون إنه ليس ولدهم، وغالبيتهم ليسوا بعيدين عن خط الفقر، وليس هنالك ما يثبت انتماء الطفل إلى تلك الأسرة، ولاسيما أن كثيراً من الأسر تتأخر في تسجيل أبنائها في سجلات الدولة الرسمية آنذاك.

حكاية مقنعة وتحتاج إلى بحث وتقصٍّ، وهذا ما حاوله كل من والديّ جابر ومسعود، وهذا ما جعلني أتساءل: هل ذلك الرجل الذي أنكر معرفته بالطفل، عمي، قد وصل به الطمع أن ينكر ابن أخيه، لكنهما وصلا إلى طريق مسدود، فأهل القرية جميعهم قالوا إن ذلك الرجل "أو كما يطلق عليه أبو عطية" تزوج بامرأة أجنبية. وهذا يمثّل عيباً، ولاسيما أن من أعراف القبيلة تكافؤ النسب، وزوجته من الأسر الوضيعة التي تجلب العيب، وكان من الأولى أن يتزوج بأي امرأة يرغب فيها، وقريتهم وكل القرى مملوءة ببنات يتمناهنّ الرجال.

وأما الطفل، فأجمع كل أهالي القرية على القول: "منذ سنوات علمنا أنه رزق بمولود لا ندري أهو ولد أو بنت"، تقرير المطافئ يفيد بأن الأسرة التي قضت نحبها مكوّنة من رجل وامرأة وطفلتين.

الجميع يتحدّث عني. بدأت أعي ذلك، وبدأت أشعر بوضعي التعيس، أنا أجلس على عتبة الدار وأرقب المشاة: الناس أشكال مختلفة، ربما يراني أحد ويتذكرني، أميل إلى الصمت والتأمل، يطلب مني أولاد الحيّ أن أشاركهم اللعب، لكنني لا أوافق إلّا بعد أن أرى إيماءة رأس من حسن أو ناصر بالموافقة. لا قرار لدي أبداً أتّخذه بنفسي، أكبر ويكبر والدي مسعود، وأجد أنه يحتاج إليَّ أكثر، فأصبح قريباً منه.

اكتفيت بدراستي للصف الثالث المتوسط، لا أحبّ العلوم والرياضيات، ولا أحبّ المواد التي تعتمد على الحفظ، ووالدي مسعود يحاول المستحيل أن أتعلّم. أهرب من التعليم الرسمي إلى تعليم آخر ينبني على الخيال، فأدمن قراءة المجلات المصوّرة. في تلك السنوات، لم يكن هنالك بثّ تلفزيوني، فكانت القصص المصورة التي تنشر في كثير من المجلات المخصصة للأطفال هي متعتي الخاصة، توسّع خيالي كثيراً، وبدأت أعي أن هنالك عالماً آخرَ تحكيه تلك القصص. هنالك رابط بين كل قارئ لتلك القصص يحلّق به بعيداً لينسى واقعه، ربما واقعي الذي أعيشه ليس سيئاً أبداً، فأسرة أبو دحيّم تعاملني كابنٍ لها، وكل أصدقاء وبعض أقرباء مسعود يعاملونني كابنٍ له، لا أواجه أبداً مشكلة وجودي بين أولئك الناس، ولكن مشكلتي هي هويتي. سأكبر وأغادر هؤلاء الناس، وسينتهي زمن لا رابط حقيقياً يربطني به.

لماذا لا أكون طفلاً قادماً من الفضاء، مثل "سوبرمان"، أقدم خدماتي إلى البشرية مستعيناً بقوّتي، ولكن أنا لا أملك القوة، لا أستطيع أن أطير وأحلّق في الفضاء، ولا أتمتّع بدهاء، لأكون تابعاً لأحد أولئك الأبطال، لأستمدّ قوّتي منه، لأبحث عن أيّ بطل أو مميّز وأستمد قوّتي منه.

لأكن طفلاً نبت في أرض الطائف، هل أكون طفل الأرض؟

أنا منير عبد الله، سأكون مختلفاً!

***

لنتفق أنك تحبّ القراءة والكتابة، وتكتب خواطرَ ومحاولاتٍ قصصيةً، لست كاتب قصة فعليّاً. الغريب أنه كان لديك ثروة كبيرة، ليست أموالاً، بل شيئاً أكبرَ لا يقدّر

بثمن، عشت مع والدك بالتبني مسعود، وعرفت بعض سيرته، ألا تستحق هذه السيرة أن ترصَد؟ لقد غادر بلدتهم وهو صغير، ليس صغيراً تماماً، لأنه في سنّ البلوغ، ولكن لا يُعرَف كم كان عمره وقتها، ثم قدم إلى الحجاز، كل ذلك في عهد الملك عبد العزيز، حيث كانت المواصلات صعبةً. هل فكرت كيف تعلّم وحفظ القرآن قبل أن يغادر بلدته؟ ألا تعلم صعوبة أن يترك أي إنسان بلدته ويذهب إلى عالم مجهول ومختلف؟

لو أخذت ورقة وقلماً، أو في مرحلة متأخرة أحضرت جهاز تسجيل، وجعلت مسعود يحكي بأريحية سيرته لخرجت بكتاب مهمّ، هو ليس مشهوراً، ربما أصبح ثرياً في آخر عمره، وليس ملياردیراً، كذلك الذي تتذكره حين طلب منك ذلك الصديق أن تكتب سيرة أحد رجال الأعمال بمقابل ماديّ مغرٍ، فقد ذكر ذلك الصديق أن ذلك الملياردير بدأ من العدم، وفجأة اكتشف قدرته على تحويل كل شيء يحصل عليه إلى مصدر للكسب الكبير، كأنّه يمسك بحفنة من التراب فتتحوّل ذهباً. حكاية يدخل فيها معاناة البدايات، ومغامرات الوسط، ومكاسب النهايات... أرقام، وصفقات، وصراع، سمك كبير يأكل الصغير، وطوفان يجتاح ما أمامه.

قد يكون ذلك الكتاب مختلفاً، ولكنك مللت من قراءة قصص النجاح، فما بالك بالكتابة عنهم؟ ترى أنه لا يضيف كتاباً يحكي سيرة فئة من المشاهير للكثير لقارئ، ربما هنالك من يقول ربما يكون مثالاً جيداً ليقتدي به بعضهم، ولكن كثيراً من سيرهم كانت ضمن الأخبار العامة المتداولة.

بالطبع إن هؤلاء المشاهير وخاصة الأثرياء، عندما يبحثون عن محرر يقدم سيرهم إلى القارئ بصورة سلسة، فهم يسعون إلى تخليد ذكراهم، وتحرير الكتاب

ليس صعباً، فجلسة مع ذلك الوجيه لمدة ساعات، وتصوير بعض الوثائق، والاستعانة ببعض الصور، وأخذ تقارير من أصدقاء ذلك الوجيه وأقربائه، وممارسة لعبة التحجيم والتضخيم لبعض الأحداث وإن اقتضى ذلك إضافة شيء من المبالغة عليها ببعض المواقف والأحداث، بعد موافقة الوجيه، حينئذ يؤلَّفُ كتابٌ يرصد سيرته. وبكل تأكيد، سيحقق مبيعات جيدة، والأهم من ذلك الحصول على مبلغ جيد لقاء ذلك العمل.

ولكن بمقارنة بسيطة بين كتابة سيرة مسعود، أو سيرة وجيه أو مشهور أو ملياردير، اختر ما يناسبك. أقول بمقارنة بسيطة: ستكون سيرة مسعود أهمّ، لأن ذلك الرجل بثّ فيك شيئاً من روحه ونقائه. لذا، ستكون كتابتك عنه مختلفة؛ هل ستكون مشروعك القادم؟ ولكن لن يكون مكتملاً؛ لأنك لم تبادر في وقت كنت فيه بقربه إلى استخراج الكنوز التي لديه. حياته السابقة كنز فقدته، هل تتوقع أن سيرتك كنز مثله؟ وهل الرجل الذي اتصل بك عرف ذلك الكنز؟

٧

هل تغيّر الأستاذ مسعود بعد عثوره على الطفل؟ لن يحار أحد في الإجابة عن هذا السؤال. بدا أنه أكثر إحساساً بالحياة من ذي قبل، شعر آنذاك بأن الطفل وجه خير عليه، يحرص عندما يأتي من المدرسة على أن يمرّ على بيت أبو دحيّم يأخذه ويبقيه معه حتى المساء.

بيت أبو دحيّم مقابل بيت مسعود، يفصل بينهما شارع ترابيّ بعرض خمسة عشر متراً، مبنيّ كما بيت مسعود من الإسمنت المسلح، ولكن دون طلاء خارجي، بيت صغير لأسرة كبيرة مكوّنة من تسعة أشخاص: أمّ وأب وثلاثة أبناء وأربع بنات، والطفل منير صار عاشرهم.

جابر أبو دحيّم رضي بعمله في إحدى الإدارات الحكومية مُستخدَماً، عُرف بإتقانه صنع القهوة. لذا، قربه مدير الإدارة منه، ومنحه بعض الخصوصية. قَدِمَ مع أسرته من نجد، من بلدة تبعد كثيراً عن بلدة مسعود، ليدخلوا ضمن الأسر القادمة من نجد أو الشروق كما يطلق عليهم في الطائف.

ولضمان توازن مالي، اتخذ جابر ركناً في حراج الزلّ "لخبن البشوت"، واكتسب شهرة في ذلك لقدرته الجيدة على الحياكة، وبراعته في أخذ القياس، ليكون البشت أو ما يطلق عليه عند بعض المشلح مناسباً لجسم من يلبسه.

مريم أم جابر لم تنل نصيبها من التعليم أبداً. حفظت بعض الآيات القرآنية البسيطة واكتفت بذلك، وحرصت على تربية أبنائها بما تقدر عليه. امرأة طيبة

تحبّ عمل الخير. لذا، كانت تنظر إلى منير كطفل يتيم، وتأمل أن تنال أجراً من الله على رعايته.

عبد الرحمن الابن الكبير، الذي لا ترغب الأم أن ينادونه باسم "دحيّم"، اتّجه إلى العسكرية عندما كبر ليتدرّج في سلمها من درجة جندي. كان الفرق بينه وبين أخويه ثلاث بنات، فشعر أنه هو الكبير الذي يجب أن يكون عوناً لا عبئاً على والديه، لكنه اضطر إلى الرحيل عن الطائف إلى قاعدة عسكرية حديثة بعيدة عنها.

للبنات عالمهن الخاص، عالم لم يقدر منير أن يقترب منه، فأصبح يراقب عن بعد كعادته، وإن كانت البنت الصغرى عبير قريبة منه بحكم السن والرضاعة، لكن البنات كنّ ينظرن إليه بإشفاق، وهذا ما يزعجه، لأن ذلك يذكره بوضعه المختلف، فهو يكره كلمة "مسكين" و"يا حرام"، ويتعب من أسئلتهن الكثيرة، وخاصة عندما يطرحنها على أمهن، مثل: "كيف تقبل أمه أن تتركه؟"، أو: "لماذا لم يسأل عنه أحد من أقاربه؟". كانت حكمة الأم البسيطة تقول لهن: "كلٌّ مقدر لما كتب له"، وكانت هذه الكلمات تريح الطفل كثيراً.

يكبر الطفل منير ويقترب أكثر من أبيه مسعود الذي يخصص له الغرفة التي كانت في السابق مستودعاً لتكون غرفته الخاصة. يضع فيها سريراً يتغيّر تباعاً بتغيّر عمره، ودولاباً مملوءاً بالملابس، وأرففاً عليها بعض الألعاب، تتحوّل بعد زمن إلى أرفف توضع عليها مجلات وكتب.

أسرة جابر بسيطة متوسطة الحال، عاشوا في مدينة الطائف، وأصبح انتماؤهم إليها أكثر من بلدة أسلافهم وسط نجد. لأبي دحيّم (جابر) هيبة خاصة، يغضب عند أي خطأ، ويرفع صوته، وزوجته مريم تحرص على تلبية كل طلباته،

وتحرص أكثر على ألّا تعكر مزاجه، ربما كان إحساسه أن وضعه المالي بسيط ولا يستطيع أن يحقق أحلام أبنائه وبناته هو ما يعكّر مزاجه غالباً، ولكنْ تبقى حكمة زوجته مريم وأمثالها، التي منها حكاية الطفل منير وحادثة احتراق الأسرة، أمراً آخرَ هو أن جميع أبنائه وبناته أسوياء ليس فيهم عاهة أو إعاقة أو أمراض، وعندما يصل إلى ذروة اليأس، يكون المثال حاضراً أمامها: "الأستاذ مسعود" رجل وحيد، هو الآن يرفل بالصحة والعافية، ولكن حتماً بعد سنوات عندما يهرم، لن يجد من يرعاه. وعندما يذكرها بوجود الطفل الذي سيكبر وسيقوم على رعايته، تقول: "من يعلم، ربما يأتي أهله ويأخذونه، هو ليس من دمه ولحمه، ربما يكبر ويتركه".

ومع كل ذلك، تبقى أسرة جابر مكاناً آمناً للطفل منير تهيَّأ له في وقت لم يكن هنالك فيه له إلا دار الأيتام ليبقى بين أطفال دون أب أو أمّ، هو الآن يعيش ضمن أسرة، وليس له أب واحد، بل أبوان، أحدهما بالتبني والآخر بالرضاع، وهنالك أم، تستحق أن يبرّها أبناؤها لأنها تحب الخير لهم، وتسعى إلى إسعادهم، وتشعر بالسعادة عندما تراه يضحك مع أبنائها.

الأستاذ مسعود رجل محافظ، متديّن، يحرص على تأدية جميع الصلوات والنوافل، ولكنه لم يكن متشدداً؛ الراديو القديم الكبير تحوّل إلى جهاز صغير، يستمع للإذاعات المحلية والعربية والعالمية، ويتابع أغلب البرامج، وخاصة نشرات الأخبار التي تبثها إذاعة لندن، وصوت العرب. لم يكن له أي ميول سياسية، ولكن لا يرضى أي موقف مغاير للدين. لذا، كان يمقت الماركسية والشيوعية. تسامحه هذا جعله يضع في غرفة الجلوس جهاز تلفزيون تنفيذاً لرغبة منير. استمرت علاقته القوية بالقراءة وحلقات العلم التي بدأ يحرص أن تعقد في

بيته. رصيف المنزل تحول بعد زمن إلى مكان يجلس فيه ويستقبل بعض جيرانه، يشربون الشاي ويتحدثون أحاديث عامة. شجعه على فعل ذلك حرص منير على الجلوس على عتبة الدار ليراقب الجميع.

قويت علاقة منير بأسرة جابر وأصبح أخاً صغيراً لحسن وناصر ينفّذ أوامرهما. في المقابل، كان هنالك بعض الصبية في الحي وأحياء قريبة يعرفون منير كابن لجنّيّة تقيم مع الأستاذ مسعود. "ابن الجنّيّة" كان يسبّب له توتراً، ولكنه في الوقت نفسه مصدر تسلية للابن الأوسط (حسن) الذي كان يهدد كل من ينوي به شرّاً أن أم منير الجنية ستخرج من الأرض وتلتهمه. لذا، كان أغلب الصبية يتعاملون مع منير بحذر خوفاً من أمه الجنية، ويعرفون أن هنالك علاقة بين منير وحسن وناصر.

***

لا أحب أبداً أن ألعب بالكرة، ولكن حسن وناصر يصران على ذهابي معهما للعب. كان المكان المناسب للعب شرق مجموعة من المباني، حيث تطلّ على وادي وجّ. خمس دقائق مشياً من البيت إلى الملعب: أرض ترابية ممهدة، ومجموعة من البيوت بعضها طيني من طابق واحد، وبعضها الآخر من طابقين بني بالطوب والخرسانة. هنالك جمهور صامت يطلّ من نوافذ بعض البيوت على الصبية الذين يلعبون. كان بعض اللاعبين يحاولون أن يظهروا مهاراتهم لكسب إعجاب تلك العيون المتلصصة، وحيث أنني كنت مجبَراً على اللعب، تنفيذاً لأوامر حسن وناصر، كنت أقبل أن أكون حارس مرمى، وهذا يجعلني لا أجهد نفسي بالركض. كنت ألبس بدلة وجزمة رياضية اشتراها لي أبي مسعود، وأيضاً

منح كلّاً من حسن وناصر ملابس مثلي تقديراً لحرصهما على تسليتي، مع أن هذا لم يكن محفزاً لي لكي ألعب، ولكن لا أستطيع أن أرفض أمر أخوَيَّ بالرضاعة.

تتكرّر ممارسة لعب الكرة غالبية الأيام، ويتكرر بقائي حارس مرمى دون تحسن لمستوى لعبي، ولكن من قبيل المجاملة وتفريغ الطاقات باللعب، وتتكرّر متابعة الأعين عبر النوافذ، وتوجه الصبية إلى المنازل المطلّة عندما تتجه الكرة إلى سطح أحدها.

كان هنالك أكثر من بيت يتسابق الصبية للذهاب إليه وطلب الكرة التي "تسطّحت"، وغالباً ما تكون أيادٍ ناعمة تحضر الكرة، أو يُطلب من اللاعب أن يدخل ليصعد فوق سطح المنزل ويحضرها.

ذات عصر وبينما كنت أقف ذائداً عن المرمى، تمكنت من ردّ ركلة جزاء، ما جعلني مع فرحة الجميع أمسك بالكرة وأركلها بقوة "لتتسطّح" على بيت من دورين. اتجهت جميع الأنظار إليّ، وقالوا: "اذهب وأحضر الكرة"، وأومأ حسن برأسه لتنفيذ الأمر.

أخاف كثيراً من دخول بيوت لا أعرفها. اتجهت إلى البيت الذي سقطت فوقه الكرة، طرقت الباب بوَجَلٍ، سمعت صوتاً أنثوياً يقول: "مَنْ"، قلت: "الكرة سقطت على سطح داركم". قالت: "ادخل وأحضرها". البيت ذو واجهة شرقية، فكان من الطبيعي أن يكون إلى حدٍّ ما مظلماً، حيث كان الوقت قبل غروب الشمس. سألتها: "أين الدرج؟"، وجدته، صعدت، سمعت صوت الباب يغلق، شعرت بالخوف، لم أقابل أحداً من أهل البيت، ولا يوجد لهم أبناء يلعبون مع الصبية. أسرعت بالصعود، وصلت إلى سطح المنزل، بحثت عن الكرة، لم أجدها. سطح المنزل صغير، توقعت أن الكرة لم تسقط على هذا المنزل بل على

منزل مجاور له، ولاسيما أن غالبية المنازل متلاصقة. كان في الركن غرفة صغيره بابها مفتوح. كانت امرأة ممسكة بالكرة، تقف داخلها، اتجهت إليها، دخلت، مددت يدي لآخذ الكرة منها، ابتسمت وأغلقت الباب. سألتي مباشرة: ''خائف؟''، قلت: ''لا، ولكن أريد الكرة''. قالت: ''موجودة''، قلت: ''أريدها بسرعة، الأولاد ينتظرونني''. قالت: ''وأنا أنتظرك منذ زمن بعيد''.

شعرت أنني يوسف، وأنها امرأة العزيز، أردت أن أهرب لكنها حاصرتني: ''اسمع! لا تجعلني أمزق ملابسك''. لستُ نبياً، بل ذكر علاقته بالأنثى باردة، اقتربت مني كثيراً، وبدأت تقبلني، لم أستوعب الموقف، أردت أن أصرخ، ولكن من يسمعني. لأول مرة أشمّ رائحة أنثى. خِفتُ من تهديدها لي عندما قالت: ''أنا امرأة عندما أصرخ وأقول إنه يعتدي عليّ، سينهال الجميع عليك بالضرب، ستكون سمعتك سيئة في كل مكان''. خفت كثيراً، تخيّلت وجه أبي مسعود وهو يستمع لخبر الاعتداء. حاصرتني رائحة الأنثى، لم تنتظر حتى أرضخ لأمرها، ولا مجال هنالك للتفكير، جردتني من ملابسي، جعلتني عارياً، تمرغت فوقي، رأيت ما لم أره طوال حياتي، جسمها أسمر، فيه بعض الدكنة، ولكن يبقى جسد امرأة باستداراته وتعرجاته مغرياً، لم تكن تريد ممارسة جنس مباشر بقدر ما كانت تريد أن تتمتع بجسد مراهق أبيض. تريد أن تحسّ بنشوة اغتصاب شاب، قبّلت جسدي وشفتي، احتضنتني، أمسكت بمن لم يقدر أن يقاوم لتفجّر طاقاته، لينزف على جسدها، شعرت برعشة اجتاحتني، شعرت بجسدها يهتز. لمحت الكرة شاهدة تبتسم على وضعي، ليتني كرة لأركل بعيداً! ماذا تريد امرأة من فتى أصغر منها بعشر سنوات أو أكثر؟! هل بها مسّ من الجن وتعتقد أن بي دماً من الجنّ، هل أخبرها أحد أنني ''ابن جنية؟'' تعرّق جسدي، اكتفت باللعب والتقبيل.

بدا عليها بعض الخدر، ما جعلني أجمع شتاتي، أمسك ملابسي، وألبسها في عراء السطح، وأحمل الكرة وأقذفها إلى الملعب حيث الصبية وأسمع صراخهم مرحبين بعودتها. كانت دقائق كسنوات، عدلت وضعي، وغادرت المنزل، قلت للصبية: ''في هذا البيت امرأة مجنونة أغلقت عليّ الباب''، اقترب مني حسن وقال: ''اذهب إلى البيت واغتسل، حتى تصلي معنا المغرب في المسجد''. كنت أشعر برائحتها عالقة بجسدي. وصلت إلى المنزل، وتوجهت مباشرة إلى دورة المياه دون أن أتوقف عند مجلس أبي مسعود على الرصيف، الجالس مع بعض الجيران، سكبت الماء على جسدي، اغتسلت بالصابون. الرائحة عالقة بجسدي، بحثت عن عطر وتعطرت به، ارتحت قليلاً. لبست ملابسي، وتوجهت إلى والدي مسعود الذي سألني: ''ما بك؟''، أجبته: ''حشرة سوداء دبت على جسدي خفت أن تكون مسمومة''.

يخاف عليّ كثيراً هذا الأب الطيب، ماذا سيقول لو علم أن امرأة تمتّعت بجسدي، لم أعرف في ذلك الوقت أبداً لماذا هو وحيد بلا زوجة ولا أبناء، حتى عندما سألته ذات يوم ببراءة صبي صغير عن سبب تجنبه الزواج إلى الآن، قال لي: ''أنا فرّغت نفسي للعلم والبحث، وليس هناك امرأة ترضى برجل مثلي!''، قلت له: ''هنالك نساء عالمات، قد يصلحن لك''. ردّ عليّ: ''الله يعطي ويأخذ، أخذ مني القليل، وأعطاني الكثير، الحمد لله على عطائه''. حمدت ربي معه، وأقفلت باب النقاش.

تأكد لي أن هذا البيت لن تطأ أرضه امرأة، وعليّ أن أحرص على كل ما يريح ويسعد والدي مسعود، على رأس ذلك الابتعاد عن النساء وحكاياتهن. بالطبع هو ليس بالشاذّ أبداً، وعلاقاته بنساء الجيران، وعلى رأسهن أمي مريم،

تتسم بالاحترام والتقدير، فهنّ ينادينه ب"يا عم" أو "طال عمرك". كان يتحدّث معهن بصورة طبيعية، وأحياناً يضحك ويعلّق بأدب. هذا كله جعلني أشعر بالاستقرار والراحة في هذا البيت وأصبح ابناً باراً به.

قدّرت أسرة جابر ظروفي الخاصة التي جعلتني لا أكمل تحصيلي الدراسي. في المقابل، حرص الجميع على الدراسة، فراعيت ذلك وقررت ألّا أزعجهم في أوقات الاختبارات، وبدأت صداقة خاصة تتوطّد بيني وبين الكتب، وخاصة الروايات، كنت أقرأ بنهم، وهذا يرضي الجميع.

***

هذا أنت! لم تتغيّر، تحتاج إلى من يدفعك إلى الكتابة قسراً، قلت لي: سأكون متميّزاً مختلفاً. أنت لم تتغيّر أبداً. أين التميّز والاختلاف؟ قلت اقرأ ما كتبته، ففعلت، لم أجد جديداً، قلت اقرأ ما كتب عني، ففعلت. وأيضاً لم أجد أي جديد لافت. قلت لي إنك لا تميّز بين ما هو عادي وما هو مختلف. لذا، لن تكون متميّزاً ومختلفاً. سألتك: وكيف أكون كذلك؟، فقلت: كن مثلي! عذراً أيها العزيز! لا أستطيع أن أكون مثلك، لأنك لم تقنعني لأصبح مثلك، وأنا أخاف ألّا أقنع الآخرين، هل تريد توضيحاً؟ لا بأس، أنت منذ زمن طويل كنت لا ترى إلا نفسك في المرآة. لم تحفّزك هذه الرؤية أن تفكر، وبالطبع التفكير غير متاح لأسباب عدة ربما أهمها أنه لا يوجد محرّض للتفكير، إضافة إلى الإحساس بالرضى والقناعة. هذه ليست متوافرة لديك، والالتزام بمبدأ ليس بالإمكان أفضل مما كان أو كائنٌ أو سيكون. لذا، عندما تكتب أو يُكتب عنك، فسيكون حافزَك للكتابة التعوّد، ولن أقول الترف لأن ذلك يمسخ صورتك، فالتعوّد لا يجعل الكتابة ضرورةَ حياة كالأكل

والشرب والنوم، ومن المفترض ألّا تكون كذلك، لأن هاجس الكتابة لن يلحَّ عليك أبداً، إضافة إلى أن العادة تصبح شيئاً رتيباً، والرتابة هي الموت؛ فهل تفضّل أن تبث الموت في كتاباتك، وهل تتوقّع أن تصيب العدوى كل من كتب عنك، أو قرأ لك؟ صدّقني، تحتاج فعلاً إلى أن تتغيّر، فكّرْ، ولكن دون إهدار للوقت، فالزمن يمضي بسرعة، وهو متغيّر، ويغيّر، إلا من لا يعرف أن الزمن يمضي مثلك، فبكل تأكيد سيولّي الزمن مسرعاً ويتركهم خلفه، وأنت شئت أم أبيت، إن لم تتغيّر، فستكون في الخلف. أرأيت كم هي مأساةٌ البقاءُ في الخلف! أنت تكتب لتقود، لا أن تقاد، ولكن لتقود لا بد أن تتغيّر، ولكي تتغيّر لا بد أن تسابق الزمن، وحتى تسابق الزمن، لا بد أن تمتلك الطاقة والحيوية، وهذان يحتاجان إلى جهد. ما أقوله لك يذكرني بالترنيمة التي كان الصبية يرددونها، أتذكرها، أتذكر: "يا مطرة حطي، حطي..."، والمشوار الطويل للوصول إلى النهاية. هل ترغب في أن تكون نهايتك سعيدة؟ بالطبع! حين تتغيّر وتقنِع الجميع بهذا التغيّر، ستكون نهايتك سعيدة. وحتى نبتعد عمّا توحي به كلمة نهاية من حسٍّ تشاؤمي، أقول: تجاوزِ الزمان والمكان، فحينما لا يقيّدك المكان بحدوده التي تشبه الأسوار، ولا يقيدك الزمان بعمر يبدأ وينتهي، ستكون النهاية السعيدة لأن ما ستكتبه سيكون صالحاً لكل زمان ومكان، هل تريد أمثلة؟ سجلّات التاريخ تزخر بأسماء العباقرة والعلماء والمبدعين، احجز مكاناً لك بينهم، ولكن قبل ذلك احرص على أن تتغيّر وتغيّر.

لا تستغرب حديثي هذا معك، كل ذلك من أجل تحفيزك للكتابة ومواصلة كتابة سيرتك، ربما تكون مختلفة عما يعرفه ذلك الرجل عنك.

٨

نافذة سحرية على العالم! هذا ما يراه مسعود في جهاز الراديو: أخبار العالم تأتيه من كل مكان إلى حيث يجلس ويستمع إلى المذياع، خطب الزعماء يسمعها في وقتها كأنه في القاعة التي يقف في صدرها ملقياً خطابه. كان يحرص على سماع خطب عبد الناصر، لم يكن مقتنعاً بكل ما يقوله، بل يستاء ويغضب عندما يتحدث عن السعودية بنقيصة، ويعلق: "هذه بلاد الحرمين شرفها الله وحفظ ولاة حكمها"، وعندما مات عبد الناصر، تابع البث المباشر لتغطية مراسيم الصلاة عليه والدفن، الذي نقلته غالبية الإذاعات العربية. قبل ذلك، في حرب الخامس من حزيران (يونيو)، كان يعيش ألم الهزيمة العربية، ويتابع صوت أحمد سعيد عبر إذاعة "صوت العرب". في الوقت نفسه، كان منير تلميذ المرحلة الابتدائية يمارس هوايته الدائمة بالجلوس على عتبة الدار، يسمع صوت الطائرات العسكرية، ولاسيما أن مدينة الطائف فيها قاعدة عسكرية، وهذا يجعل الجميع يحسّون بحالة الحرب. لذا، ينبهه والده مسعود إلى ألّا يأخذ شيئا ملقىً على الأرض، فربما يكون قنبلة أو لغماً.

لا يعي منير أبداً ما يحدث، الحرب ليست في الطائف، بل في فلسطين، بعيداً في الشمال. كانت الصور التي تنشرها الصحف مخيفة، ثمة فاجعة كبيرة، وصوت فيروز وهي تتغنى بزهرة المدائن، وسنرجع يوماً. أحسّ بغصّة، أراد أن يبكي عندما كان يتحدث مع عبد الرحمن بن جابر. كانت شعلة الرغبة متقدة لدى ذلك الشاب بالذهاب لقتال "الصهاينة". سمع هذه الكلمة مباشرة من عبد الرحمن،

ليوضح له مدى خطورة اليهود الذين سلبوا أرض فلسطين. قال له: "لا يُستبعد أن والديك من فلسطين، وأبقوك عند تلك الأسرة ليعودوا إلى فلسطين، وسيعودون بعد تحريرها، لقد أباد اليهود مدناً وقرى منذ سنة ١٩٤٨م، وهجّروا أهلها"، كان الكلام شبه مبهم لدى منير، ولكن والده مسعود هدّأ الأمر موضحاً أن الله أعلم وهو لطيف بعباده، وختم حديثه بقوله: "أنت ابننا الآن، ولا تشغل ذهنك بأمر لن تجد له حلاً".

ليكن فلسطينيّاً أو أي جنسية أخرى، لكنه لم يعرف غير هذا الوطن، الذي بكل تأكيد كانت خطواته الأولى على ترابه. لذا، أحبّ الملك فيصل، وبدأ يستمع إليه عندما يخطب عبر المذياع أو جهاز التلفزيون في ما بعد، وينتظر قصائد الشعراء التي تمدحه في عيد حج كل عام. تعرّف إلى بعض الشعراء عبر حولياتهم، فكان عمر أبو ريشة، وأحمد الغزّاوي، وكنعان الخطيب، وغيرهم.

قبل أن يبدأ رمضان كان منير يستأذن والده بنصب "مرجيحة" من أعمدة الخشب أمام بيتهم، ليستمتعوا بليل رمضان، ويمدّ أبو دحيّم عقداً من الأنوار بين بيته وبيت مسعود ليضيء الشارع، ويستمتع الجميع بالجلوس ولعب "الضومنة" و"الكيرم"، ويشجع أبناءه على بيع "البليلة" والشرشوا" وهي قطع القثاء مع الخل، الذي كان منير يحبه، ويشعر أن أمه "مريم" هي الوحيدة في العالم التي تتقن إعداده، وقد تحدث كثيراً عن براعة أم دحيّم بالطبخ.

عام ١٩٧٣ كان شهر رمضان مختلفاً، ففي اليوم العاشر منه حدث أمرٌ تمنّاه العرب جميعاً: لقد سقط المارد الصهيوني بتحطيم خط "بارليف"، وازدادت فرحة منير عندما أعلن الملك فيصل حرب النفط. بدأ يستمع للإذاعات العربية، وبدأ يردد مع عبد الحليم حافظ:

عاش اللي قال الكلمة بحكمة وفي الوقت المناسب
عاش اللي قال لازم نرجع أرضنا من كل غاصب
عاش العرب اللي في ليلة أصبحوا ملايين تحارب

في ذلك الوقت، كان عبد الرحمن بن جابر ضمن الجيش السعودي المشارك في التحرير، وكانت أسرة جابر يمتزج فرحهم بخوفهم على ابنهم من فقده.

تخلى مسعود عن بعض أوقاته التي كان يفرغها للقراءة ومناقشة بعض القضايا مع أصدقائه من أجل متابعة أحداث حرب رمضان (أكتوبر)، وتحوّل إلى محلل عسكري سياسي، وخاف كثيراً من خيانة العرب.

أعطى مسعود مساحة واسعة لمنير لسماع الأغنيات داخل غرفته، ولم يضيّق عليه وهو يمارس السهر لسماع حفلات أضواء المدينة أو الربيع، ويكون من أوائل المستمعين لأغنيات فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ، الذي أحبه كثيراً لدرجة أنه احتفظ بمجموعة من المجلات التي تتابع أخباره الفنية وأخبار مرضه. لم يمنعه سهره هذا من مزاولة عمل توسط به والده مسعود لدى صديق له يملك عدة مراكز تجارية في الطائف ليعمل راصداً للحسابات في المركز الرئيسي لشركته الكبرى.

كان يشعر بشيء من الراحة لأنه سيكون قادراً على إعالة نفسه، وليعرف الجميع بأنه رجل، ولكنه ذات يوم تحوّل إلى أشبه بالطفل عندما سمع خبر اغتيال الملك فيصل. بكى كثيراً، وذهب إلى مكتبة الثقافة في باب الريع ليبحث عن الصحف، ووجد أناساً يوزعون صور الملك الراحل. أخذ واحدة وعاد حزيناً إلى البيت.

كان الحزن سحابة سوداء تخيّم على الطائف، المدينة التي أحبّها الملك فيصل وجعلها عاصمة صيفية. الجميع بدأ يهيئون أنفسهم لمرحلة جديدة عدا منير الذي وطّد علاقته ببائع كتب مستعملة في السوق ليحجز له كتباً خاصة، غالبيتها قصص وروايات وبعض كتب الأدب والفكر. كان معجباً بغزارة إنتاج عباس العقاد، وجمال لغة الرافعي، وأمتعته "أيام" طه حسين. كان عالم الأدب مساحة رحبة يعيش فيها بحرية، وينهل من أفكارها ما يريد.

في عصر كل يوم، يأتي إلى ذلك البائع ويسأل: "هل من جديد؟"، فيجد كتاباً أو كتابين يحملهما بمتعة إلى بيته. ذات يوم استوقفه رجل كان يجلس أحياناً في مجلس والده مسعود، عرفه، ورحّب به، كانا متجهين معاً إلى بائع الكتب المستعملة، بادره بقوله: "يعجبني فيك حبك للقراءة!". رد عليه منير: "الكتاب خير صديق". قال له: "أدعوك هذا المساء لزيارتي، تصلي معي المغرب، وبعد الصلاة أريد أن أتحدث معك قليلاً". وافق منير ولاسيما أن ذلك الرجل يعرفه مسعود، وهو من جلسائه أحياناً، ولن يخسر شيئاً، بل قد يكسب صديقاً وإن كان أكبر منه بربع قرن كما يعتقد، ولكن ربما يجمع بينها الصديق الأوحد: الكتاب.

بعد صلاة المغرب في مسجد في حي أبي بكر قابل منير ذلك الرجل. كانت معه بعض الكتيبات الصغيرة. قال في البداية: "هداك الله! لو أكملت دراستك ودخلت المعهد العلمي لكنت من العلماء المرموقين، أنت محبّ للقراءة، ألاحظ ذلك منذ زمن بعيد، ولكن ربما جعلتك حداثة سنك لا تعرف ما الكتب المفيدة، وربما لا تعرف عن الغزو الفكري".

كان منير صامتاً يحاول بكل جهده استيعاب كلام ذلك الرجل الذي واصل حديثه: "أتمنى أن تتوقف عن قراءة كتب أصحاب الضلال، أتعرف أن العقاد

يحدد وقت صلاة الجمعة للقائه الأسبوعي في بيته؟ ألا تعرف تشكيك طه حسين في تراثنا والقرآن؟ أتحبّ قراءة فجور عبد القدوس وغيرهم؟ أنا أعرف أنك في بيئة صالحة، ومع خير رجل حافظ على دينه وعقيدته الأستاذ مسعود، الذي ربما يتابع قراءاتك، ولا يريد أن يجرح مشاعرك. هل تحب أن تبحث عن الأفضل لك؟"، أجابه منير بصوت مخنوق وخائف: "نعمْ". فقال: "رجاء، توقف! سأكتب لك قائمة من الكتب تجدها في المكتبات، وأيضاً تجد بعضها في الكتب المستعملة، أتمنى أن تقرأها، أثق بأنك ستكون في أفضل حال". ابتسم وهو يقدم إلى منير بعض النشرات، من ضمنها محاضرات صغيرة حملها وبدأ يقرأها، وقد بقيت في ذهنه سنوات طويلة: **الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه** لعبد القادر عودة، و**محاضرات** لأبي الأعلى المودودي، و**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟** لأبي الحسن الندوي، وكتاب ذو غلاف أخضر بعنوان **معالم في الطريق** لسيد قطب. أسماء سمع بها، ولكن لم تدخل ضمن دائرة اهتماماته القرائية، وكان العنوان المغري له كتاب محمد قطب **جاهلية القرن العشرين**، الذي وضعه ذلك الرجل في أول القائمة التي كانت تحتوي على مجموعة من الأسماء، مثل سيد سابق وسعيد حوّى ونجيب الكيلاني ومحمد حسين، وغيرهم. كان قرار منير أن يجمع قدر ما يستطيع من تلك الكتب، ويبدأ بقراءة أسهلها وأسلسها، لكن قبل ذلك أصابه الشكّ في أن تصرف ذلك الرجل ليس من تلقاء نفسه، بل تنفيذاً لرغبة والده مسعود الذي لا يحب أن يتدخّل في قراءاته. لذا، أخبره بعد عدة أيام بحادثة لقائه الرجل وتوجيهه بتغيير اهتماماته القرائية من الثقافة والأدب إلى الدراسات الدينية، فقال له والده: "لم أقل له، ولم يخبرني،

وليس له حق بالتدخل في ما تقرأ، أثق أنك لن تصل درجة الإلحاد، وأثق أنك تعي ما تقرأ، فلا تكن تابعاً لأحد".

توقف منير بضعة أشهر عن القراءة. اكتفى بمطالعة بعض الصحف والمجلات، لم تكن غالبية الكتب التي رصدها ذلك الرجل في القائمة سيئة، ولكنها واقعية جداً وبعيدة عن الخيال، وهو يحبّ الخيال. هو غير مؤمن بنظرية داروين، ولا يقتنع بآراء فرويد، ويثق برأي محمد قطب في بعض ما طرحه في **جاهلية القرن العشرين**، ولكنه لا يحبّ الجدل، ولا يريد أن يرى العالم بنظارة سوداء، إنه كائن حيّ، يريد أن يعيش ويستمتع بهذه الحياة، رغم كل النقص الذي يحيط به. لا يريد أن يدخل دائرة التطرف إيماناً أو إلحاداً، يفضل دائماً الوسط. لذا، كان قراره أن يبقى كسابق عهده، ويمتثل لرأي والده القائل: "لا تكن تابعاً لأحد".

في ذلك الوقت، لم يفكر أن يتجه إلى حلقات الدروس الدينية في بعض المساجد، لأنها تركز على العلوم الشرعية، ووالده مسعود لم يشجعه على ذلك لأنه لا يريد أن يفرض عليه توجهاً معيناً. سمع منير بعد زمن أن ذلك الرجل الذي طلب منه أن يغيّر مسار قراءاته متعاطف مع "الإخوان المسلمون"، هذا التنظيم كما عُرف بعد زمن تأسس في أواخر العشرينيات الميلادية في مصر، لمقاومة الاحتلال الأجنبي وإقامة دولة إسلامية تطبّق الشريعة.

يذكر مسعود عندما يرد ذكر "الإخوان المسلمون" رد الملك عبد العزيز عندما طلب منه حسن البنا تأسيس فرع للتنظيم في المملكة العربية السعودية، إذ قال: "كلنا إخوان، وكلنا مسلمون".

***

أشعر أن الكتابة عن نفسي ترهقني، فأتذكر وجوهاً قابلتها، أبحث عن بعض حكاياتها. وأكتب، أشعر أنني بدأت أتحدث عن حياة بعضهم الخاصة، فأحذف ما كتبت، وأبتعد عن الحاسب مرعوباً، ما هذا السواد داخلي؟

أتناول كثيراً من الأوراق والقصاصات، أبحث بينها عما يستحق أن يرصد، أرتاح قليلاً.

ها أنا اتّجه إلى جهاز الحاسب الآلي، أفتح بعض الملفات وأدوّن كلمات...

كم هو صاخب هذا المكان! أجلس لأكتب نصاً. تحيط بي أيدٍ تزمع على الرحيل، فتأتي لتودّعني، أمدّ يدي فلا أجدها، هل غادرت؟ ولكن ثمة أصوات تحيط بي تنتشل كل كلمة أرغب أن أمنحها بعض حياة على شاشة جهاز الحاسوب الذي أمامي. كيف يغادرون وتبقى أصواتهم؟ ولماذا جعلوا يدي معلّقة في الفضاء الواسع لتصافح مرحّبة أو مودعة ولا تلقف إلا الهواء؟

هل يعرف المكان أنه هو الثابت الوحيد؟ هل يعي جحود الأقدام التي وطأته لتبحث عن مكان آخر ربما يكون بعيداً؟

أنا أجلس لأكتب، والمكان يحمل هوية خاصة، ربما اكتسبها منذ زمن بعيد، ربما يتشكّل بما يرغب فيه بعضهم أن يكون، قد يكون جميلاً، وأحياناً يكون قبيحاً منفّراً أو قاتلاً. من يقول إنه فضاء يستقبل الجميع ويودعهم ويستقبل الصمت والصخب والتيه، الطبيعة الجميلة، الليل والنهار، أشعة الشمس وضوء القمر... هذا المتعدد يمنحني حيّزاً من جسده، أرفع صوتي وأقول: "هذا المكان لي". أجلس على هذا المكتب العتيق وأمامي جهاز الحاسب، وعلى الجانب كوب شاي وصحيفة يومية ومجموعة أوراق. أجلس وأبدأ الكتابة، أكون حذراً وأنا ممسك

بكوب الشاي لكيلا يندلق، هذه الخطوة الحاسمة والمهمة التي أردتها أن تكون منعطفاً مهماً لحياتي. سأجمع كل القصاصات التي دونتها سابقاً وأرصدها، سأنسى كل ما حولي في هذه الشقة التعيسة، وأعود إلى الوراء سنينَ، في كل مكان عشت فيه أو كان ممراً لبضعة أيام، ربما ألمح نفسي، ربما أجد يداً تمتد لتجذبني إليها، كأنني أسمع من يقول: وها نحن هنا، نمدّ لك يداً لننتشلك، لست الغريق، ولكن خوفاً منك أن تتلاشى. قلت: إنك تعرف الطريق، طريقك هاوية، تحسبه بحراً، منذ متى ونحن نملك اليد التي تقدر على انتشالك، لم تصافحك أبداً، تلك اليد، لم تمتد لتمسح بأصابعها دموعاً ذرفتها عيناك، هل ستسقط أم ستسحبنا معك إلى الأعلى؟

***

تذكر بعد انتقالك إلى الرياض بسنوات قليلة، قرر مديرك المباشر أن يكلفك رئاسة القسم الإداري، توقع أن تكون سعيداً بذلك، ولكنك اعتذرت مباشرة محتجاً بأن هنالك من الموظفين من هم أحق منك بالإدارة، توقع المدير أن ذلك تواضعاً منك، لم يعرف أنك لا تحب أبداً أن تكون قائداً أو مديراً أو رئيساً، لا تريد أن تكون متبوعاً، يكفيك أن تكون تابعاً أو حرّاً بلا أتباع أو التزاماتٍ تجاه آخرين. تريد عملاً روتينياً تؤديه، لن تتقاعس، ولكن لا تحب أن تأمر أو يفرض عليك أحد عملاً. لذا، تحوّلت بطوعك إلى رجل يعيش على الهامش.

كنت تسلّي نفسك بقولك: أريد أن يكون ذهني صافياً، حتى أقرأ وأكتب، ماذا كتبت في سنواتك السابقة، مجرد خواطر، وبعض القصص القصيرة، ومشاركات باهتة في قنوات التواصل الاجتماعي الحديثة، ولكن ربما في داخلك مبدع، أين

هو؟ لماذا لا تعطيه الفرصة ليعبّر عنك، ليغيّرك، ليقدّم صورةً مختلفةً عنك. ربما لو كنت جاداً في الكتابة منذ سنوات قراءاتك الأولى، لقدمت بعض الأعمال التي سيكون لها صدى في كل مكان، ربما يقال الروائي منير عبد الله، أو القاصّ أو الأديب المفكّر، ربما أنت لا تريد أن تكون إلا رجلاً يعيش في الهامش. أنت أردت ذلك. لذا، لا تستغرب أن يستغلّ أحد سيرتك وقصة حياتك، ويكتبها بصورة مبالغٍ فيها، ويحقق سمعة كبيرة على حسابك، ربما ذلك الرجل الذي اتصل بك يحاول أن يستدرجك ليعرف قصة حياتك، ويكتبها نصاً روائياً يحقق رواجاً ليس في المملكة فقط، بل في الوطن العربي، وربما العالم، فقصتك تستحق أن تكون من الأدب العالمي.

٩

لم تطل مدة الابتعاد عن عالم الخيال لدى منير. عاد أكثر نهماً بقراءة الكتب الإبداعية والأدبية، وجد متعة في روايات الكتّاب الروس، وأحبّ كثيراً كتابات أنطون تشيخوف، وواصل متابعته لكثير من المجلات الأدبية، وخاصة **العربي** و**الهلال** التي كانت في تلك المدة مغرية أكثر لاشتمالها على "ملحق الزهور" لإبداع الشباب، والهدية الثمانية "بورتريه" لأحد رواد الأدب العربي بريشة الفنان جمال قطب، ها هي صور أصدقائه الذين أحبهم كثيراً تتوالى شهرياً فيضعها على حائط غرفته. بدأت تزداد شهرياً، وبدأت غرفة منير تتحوّل إلى متحف ومكتبة على صغرها. كان في ركن الغرفة دولاب صغير يحوي ملابسه، وبجانبه سرير، وبقية الغرفة تعجّ بالكتب والصور.

مسعود يرى أن هذه الغرفة عالم منير الخاص الذي يعوّض به ما فقده من وجود أم أو إخوة أو أخوات. يعلم أنه بدأ يشعر بالوحدة كثيراً، ولاسيما أن حسن اتجه إلى جدة للدراسة الجامعية، وناصر إلى الظهران. يعلم أنهما سيأتيان بعد مدة من الزمن أحدهما طبيب والآخر مهندس، وهو مجرد كاتب بسيط في شركة صغيرة. أسرة جابر خيّم عليها الحزن عندما فقدوا ابنتهم الكبيرة رحمة في حادثة قصر الأفراح الشهيرة في حي شهار في الطائف. حزن منير كثيراً وبكى لفقد أخته التي ساعدت أمها في أوقات كثيرة برعايته والاهتمام به عندما كان طفلاً. بقي ثلاث بنات في البيت فقط بعد موت أختهم وغياب الأبناء الثلاثة في شمال

المملكة وشرقها وغربها. لذا، حرص أن يكون قريباً من أمه بالرضاع مريم، ينقّذ رغباتها، ويساعدها، وهذا ما أسعد كلّاً من مسعود وجابر أبو دحيّم.

لم ينقطع مسعود أبداً عن عائلته، بل كان يستقبل رجالهم في منزله، ويبحث عن سكن مناسب إذا كانوا برفقة عائلاتهم. ما كان يزعجه موقف بعضهم تجاه منير، يعاملونه كأنه أجير لديهم، ولا يعاملونه كابنٍ بالتبني. يرفضون أن يكون قريباً منهم. حتى حين فكر أن يزوجه ابنة أخته، كان قرار الرفض مباشراً: كيف ندنّس نسبنا بمن لا أصل له؟

حرص على ألّا يصل إلى منير خبر رفض العائلة تزويجه، وقد كان يتوقّع ذلك. لذا لم يخبره أبداً بفكرة الزواج حفاظاً على مشاعره؛ كانت هنالك عدة أسباب لمواقف العائلة من منير أولها وأهمها خوفهم من أن يستولي على ثروة الأستاذ مسعود التي تزداد يوماً بعد يوم، وثانيها رغبته في الطائف والبقاء فيها، وتوقعهم أن منير سبب في البقاء، وثالثها الحفاظ على العائلة وعراقتها، إذ لا يريدون أن يؤثر فيها دخول رجل غريب فتفقد القيمة وتوسم بالنقص.

لم يفكر منير في كل ذلك، ولم يتوقع أن يأتي ذات يوم بعد أن أنهى عمله في الشركة إلى البيت ليجد جميع الصور والمجلات في غرفته ممزقة. كانت صدمة كبيرة له، وكانت الصدمة أكبر لوالده مسعود. فتذكر أن ابن أخيه كان قادماً من مكة، ذهب إلى المدرسة ليقابل عمه مسعود، أخذ منه مفتاح البيت ليرتاح قليلاً قبل أن يواصل سفره براً إلى الرياض. أخذ المفتاح ليتجه إلى البيت ويدخل غرفة منير الذي يرى أن فيه كثيراً من الجهل والضلال، فكانت غزوة الصور، إذ مزّق كل صورة تقع عليها يده، وأصبح الحائط عارياً بعد أن فقد رموز الثقافة والفكر التي تكسوه مما أبدعته يد جمال قطب. مزّق كل كتاب وكل رواية لمن شعر أنه

من الكفرة، ثم اتجه إلى صورة الملك عبد العزيز في مجلس الرجال وأسقطها لتتمزّق. عندما قدم مسعود من مدرسته، كان ذلك الرجل نائماً في غرفة الضيوف. تنبّه إلى مَقْدمه، واستأذنه بالذهاب ليقطع جزءاً من الطريق قبل غياب الشمس، وقال عندما طلب إليه مسعود أن يبقى ليتناول طعام الغداء: "شكراً يا عمي، لقد ارتحت قليلاً"، وغادر مباشرة حتى لا يدخل في دوامة الجدل مع عمه بشأن الصور الممزقة.

كان مسعود يعلم بتديّن ابن أخيه، ويعرف أنه في السنوات الأخيرة أصبح أكثر تشدداً، ولاسيما أنه علم عن انتمائه إلى الجماعة السلفية المحتسِبة التي كانت تركز في بداياتها على الجانب الديني والأخلاقي، إذ يرون فساد نقاء الإسلام بسبب دخول كثير من البدع خاصةً في ممارسة الشرائع، ولكن لم يعلم أن ابن أخيه أخذ المسار الأصعب بعد "حادثة السطح" في بيت "الإخوان" في المدينة، حينما حاول مجموعة من العلماء بقيادة أبي بكر الجزائري إقناع أعضاء الجماعة بالتخلي عن بعض الممارسات، ليشتدّ الجدل بينهم وبين جهيمان ومجموعة كانت تؤيده، فينشقوا بعد ذلك وتتكون جماعة جهيمان الذي كان ابن أخيه من ضمنهم.

كان قرار مسعود حازماً بألّا يدخل ذلك الرجل بيته مرة أخرى ولو كان ابن أخيه. بعد أشهر انتبه مسعود ومنير إلى صورة ذلك الرجل ضمن الذين اقتحموا المسجد الحرام مع جهيمان. صوت المذيع حسين نجار وهو يصف لمشاهدي التلفزيون الحدث اقترنت بدمعة سقطت من عين مسعود.

لم يكن حزنه على فقد ابن أخيه بقدر الحزن على تدنيس أقدس بقعة في الأرض. عرف أنه نال جزاءه الذي يستحقّ، وقد حرص مسعود أن يؤدي عمرة مع منير بعد أن فتحت أبواب الحرم للمعتمرين، شاكراً الله على فضله، وقد كان

يشعر براحة أن هذا الابن الذي تبناه بعيد جداً عمن يرى أنهم شواذّ، لم يحتكَّ أو يتعرّف إلى أولئك الحركيين الذين لديهم طموح دنيوي بصبغة دينية. يعلم أن كثيرين ممن ينتمون إلى "الإخوان المسلمون" يبحثون عن أشخاص يعانون نقصاً، ويعلم أن هنالك شباباً ذهبوا إلى الحرم في أول يوم من القرن الجديد بتأثير أعضاء كانوا يبحثون عن أكبر عدد من الناس، وكانت رؤياهم بأن هنالك "المهدي المنتظر"، حيث يظهر عالم عظيم في بداية كل قرن هجري. لم تكن الرؤيا صائبة، فمحمد القحطاني هلك في الحصار.

ذلك العام بدأ مسعود يشعر أن الزمن تغيّر، متابعته الأخبار جعلته كتلة من التشاؤم. تابع أخبار الثورة الإيرانية، والغزو السوفياتي لأفغانستان، والانتفاضة الشيعية في شرق المملكة التي جاءت متزامنة مع أحداث الحرم.

مسعود اليوم ليس مثل مسعود الأمس، ومنير شعر أنه مطالب بأن يكون قريباً أكثر من والده مسعود.

***

عائلة جابر خافت على ابنها حسن طالب الطب في جدة أن يكون ضمن مجموعة الحرم، ولاسيما أنه قد بدت عليه أعراض الالتزام الديني، ولكن أراحتهم زيارته لهم بعد بداية الحادثة بأيام ليكون قريباً من والديه. كان في سنواته الدراسية الأولى. وهو حريص على أن يواصل دراسته في أحد التخصصات النادرة. زياراته المتكررة إلى الطائف جاءت لكي يملأ على والديه البيت بعد فقدانهم ابنتهم رحمة بموتها في حادثة قصر الأفراح، وزواج أختيه حسنة ومها ومغادرتهما الطائف مع زوجيهما، رغم أن حسنة عادت بعد زمن مع زوجها. في

ذلك الوقت، اشترى جابر فيلّا صغيرة في حي الفيصلية شمال الطائف، رغبة في مغادرة مكان يحمل كثيراً من الذكريات الحزينة.

انتقال جابر من بيته، ومعه كثيرون من الجيران الذين غادروا تباعاً حي الشرقية إلى الأحياء والمخططات الجديدة. زادت وطأة كآبة مسعود. كان بإمكانه أن يغادر حي الشرقية، ولكنه تعود بيته البسيط، وتغييره منزله لا يضيف إليه شيئاً. لديه مساحات واسعة من الأراضي اشتراها في أوقات مختلفة. يعرف أن بعضها يقدّر بمبالغ كبيرة إضافة إلى العمارة التي اشتراها في زمن سابق في المنطقة المحيطة بالحرم، والتي جعلها سكناً للحجاج والمعتمرين، فبدأت تدرّ عليه مئات الألوف سنوياً، ما جعله يتوجّه إلى مكة ويبقى أياماً هناك.

***

ما زلتُ ذلك الطفل الصغير الذي حمله مسعود من أمام البيت المحترق ليعيش معه، هذا ما أشعر به، وأتمنى أن يبقى ذلك إلى الأبد، ولكن هذا الأمر الذي لا يتحقق. أنا منير، موظف حسابات صغير، ولكنه يكبر عمراً، مهما حاولت أن أبقى صغيراً، ولكن ها أنا أكبر، صوتي يخشن قليلاً، الشعر يغزو جسدي، كل من حولي يتغيّر، وأنا داخلي الطفل الذي كان يجلس على عتبة بيتٍ يحترق.

عالمي الجميل ليس عالم كبار، وإن كان كذلك. كل كتاب أقرأه، أو مجلة أتصفحها وأقرأ بعض مقالاتها، يمنحني متعة الأطفال عندما يستمعون لحكايات جداتهم، وأنا ليس لي أم ولا جدة. أُمتّع نفسي بقراءة كثير من الروايات متخيّلاً سماعها من جدّة، هذه الجدة تختلف عن كل البشر: كائن يرافقني حين أفتح كتاباً، ليحملني إلى عوالم بعيدة عن الواقع الذي أعيشه.

أنا الآن رجل، ووالدي مسعود يعي أنني لست الطفل الذي حمله من حي السلامة ليعيش معه في حي الشرقية. لقد أصبح رجلاً، هذا الرجل لا يشبهه أبداً، ولا يريد أن يشبهه. بدأ يسمعني كلاماً يزعجني كثيراً: "سيصبح لك بيت وتتزوج". أرد عليه غالباً: "بل سأبقى معك إلى الأبد"، فعلاً كبرت! ولكن هل من المفترض أن أقلب الصفحة التي أعيشها الآن وأبدأ بصفحة جديدة قد تكون مختلفة. لقد ألفت حياة والدي مسعود، تعلّمت منه كيف أعيش وحيداً، ولكن لن أتركه الآن. هذه الغرفة الصغيرة في بيته هي عالمي الجميل. تعلّمت أن أطهو، أكون أنيقاً نظيفاً، أغسل ملابسي، أتمنى لو كانت هنالك جنية ترعاني بشرط أن أبقى طول عمري مع هذا الرجل الذي أحببته كثيراً، وبدأت أخاف عليه، ولاسيما أن آثار الشيخوخة بدأت تتّضح عليه بصورة جلية.

لقد بدأت أجلس مدداً طويلة وحيداً في البيت لحرص والدي مسعود على البقاء في مكة، إذ اختار أن يسكن في شقة أرضية في عمارته القريبة من الحرم. لا أستطيع أن أكون معه هناك لارتباطي بعملي في الشركة. لقد تقاعد منذ سنوات طويلة، وبات كأنه ينتظر نهايته، وهذا ما يجعلني أشعر كثيراً باكتئاب. أصدقائي الكتب، وأصدقاء الكتب هم أصدقائي، وعددهم محدود. عالمي غريب، عالم طفل يحب أن يبقى مع ألعابه.

أراد أبي مسعود أن أدخل معه عالم العقار، اشترى لي قطعة أرض صغيرة سجّلها باسمي، توقّع أن أدخل معه في هذا العالم، ولكنني كنت بعيداً عن ذلك؛ كنت أشعر بالاطمئنان إلى وجوده، أنا الطفل الذي يتوقّع أن أباه قادرٌ على كل شيء، وما دام حياً يرزق، لن أحتاج إلى سكن أو أرض. قال لي ذات يوم: "سأوصي لك بجزء من مالي"، هو يعرف أن ثروته الكبيرة ستعود بعد وفاته إلى

إخوته وأبنائهم، ويعرف أن بعض إخوته لا يكنّون كثيراً من المودة له، خاصة أسرة أخيه الكبير الذي رحل عن الدنيا حزناً على ابنه الذي أعدم مع جهيمان.

هم يتمنون أن أغادر بيت والدي مسعود، وقد قالها لي صراحة أحد أبناء إخوته في زيارة إلى الطائف للاطمئنان إلى صحته: ''أنت كبرت، ويجب أن تترك هذا البيت وتستقلّ بنفسك، لم تعد طفلاً''، رددت عليه بأن ''أبي يحتاج إلى رعاية الآن''، ليرد: ''سينتقل عندنا، وهناك سنوفر له كل أسباب الرعاية''. خفت أن ينتقل فعلاً وأبقى وحيداً، ماذا أفعل بنفسي؟ أعرف أن عمري جاوز العشرين، ولكن لا أتخيّل أن أعيش دون أبي مسعود، سألته بعد أن غادر أقرباؤه عن مشروع العودة إلى حيث تسكن عائلته. ضحك وقال: ''هم يحلمون، أنا لا زلت بخير، لن أغادر الطائف ومكة، وإذا أخذ الله أمانته، وكنتُ في مكة، ادفني في مقبرة العدل، ثم أخبرهم بموتي بعد أن تأخذ الوصية''.

لا أحب أن أحدثه أبداً عن أقربائه، ولا وضعي، ولا معاناتي من البقاء وحيداً في الطائف حينما يكون في مكة المكرمة قريباً من البيت الحرام. هل أحتاج إلى حريق آخر لينتشلني أحدهم من عالم مسعود إلى عالم آخر لا أعرفه؟ لقد يئست من أن أعرف أي خيط يوصلني إلى عائلتي، عائلة التبني مكونة من رجل واحد ''والدي مسعود''، رجل آثر أن يكون وحيداً، وهو الآن قد اطمأن علي، إلى حدٍّ ما، فأراد أن يستمتع بالبقاء في مملكته التي كونها مع الزمن: عمارته القريبة من الحرم المكي الشريف. ومن جانب آخر والديّ بالرضاعة جابر ومريم انتقلا من الشرقية إلى الفيصلية ليعيشا مرحلة الأبناء والأحفاد، والأسرة التي توسّعت بزواج الأبناء والبنات، وهموم أبنائهم كثيرة، فلا مساحة لإضافة همّ ابن يعيش العوز، وليس لديه طموح، يريد أن يعيش فقط.

هل أدفن ذلك الطفل الذي يحبّ أن يجلس على عتبة الدار أو أجعله ينمو بروحه وعالمه الجميل؟ سؤال أتعبني كثيراً، أرجأته للظروف، وليتها لم تكن.

***

منذ قررت أن تسترجع سيرتك بداية من اليوم الأول الذي كان باهتاً في ذاكرتك وأنت في حالة قلق، كان قرارك البقاء وحيداً وعصر الذاكرة، ونبش الأوراق، كانت أمنيتك منذ سنوات أن تحكي لأبنائك وأحفادك حكايتك الغريبة وتجعلهم يدونونها، ربما لن يجدوا فيها متعة القصّ، بقدر ما ينطبع على جبينهم ختم مجهول الهوية، وهذا ما لا ترضاه، أنت تريد حكاية لها بداية وذروة ونهاية سعيدة، هذه النهاية بحثت عنها كثيراً، وأصابك اليأس من الوصول إليها، فبقيت تعيش حالة النهاية المفتوحة، بل نهاية لا يصل إليها أحد.

أنت حاولت، وتشعر بالراحة لاستحقاقك شرف المحاولة، ربما كادت إحدى المحاولات أن تكون الطريق السالكة حتى النهاية، ولكن في آخر لحظة ضيّعت الطريق، أو ربما هكذا أوهموك.

تحاول تذكر تفاصيل تلك المحاولات، ربما تجد الخيط الرفيع الذي لم تتقن الإمساك به لتصل إلى نهاية الطريق. المأزق هو التذكّر، ومعرفة أسباب تغيّر المسار الذي كنت تظنه صحيحاً.

حالة القلق هذه تجعلك تبتعد عن الآخرين الذين قد ينبشون جروحاً توقعت أنها اندملت، وتبدأ الخوف منهم. ألم يقل سارتر إن الجحيم هو الآخر، تتذكّر هذه المقولة، ترتاح قليلاً، ربما أنت الآن في وضعك الذي يزعجك كثيراً أفضل من لو اقترنت بالآخر الذي قد يمنحك الرداءة أو الموت. تردد في نفسك مقولة: "المهم

هو ما أكتسبه من الآخرين، وليذهبوا جميعاً إلى الجحيم"، ما يهمك هو وضع المكعب الناقص من جسدك في مكانه، وجميع المكعبات التي بحثت عنها، وحصلت على بعضها، لا تتفق والفراغ الذي تركه المكعب الضائع.

أنت تبحث عن الوقت الذي تكون فيه يقظاً تماماً ومتهيئاً للكتابة، بعد أن تناولت وجبة أعددتها، وذهبت إلى المرحاض لتفرغ مثانتك، وتتوضأ لتصلي وحيداً كعادتك.

١٠

كان طوال عمره حريصاً على المشي، ولكن مع مرور الأيام والسنوات وتقدّمه بالعمر، احتاج مسعود إلى سيارة صغيرة تقله إلى مشاويره المتعددة داخل الطائف. في البدء تعهد منير ذلك، ولكن بعد أن بدأ يتردد على مكة احتاج إلى سائق، وهذا ما دفعه ليستقدم سائقاً من جنوب شرق آسيا. كانت مكة المكرمة حلم ذلك السائق، وقد تحقق ذلك الحلم بعمله عند مسعود. فكر أن يجلب زوجته لتعمل معه، إلحاحه جعل مسعود يرضخ لذلك، ويقيم السائق مع زوجته في قبو عمارة مسعود القريبة من الحرم المكي. تلك المرأة ساعدت زوجها بالاهتمام بذلك الشيخ الوقور، وبدأت تعدّ له ولضيوفه الطعام كل يوم. هذا التغيير جعل ذهاب مسعود إلى الطائف محدوداً وغالباً كل أسبوعين، ليتابع أعماله الخاصة، ويطمئن إلى منير الذي بدأ ينزل إلى مكة قادماً من الطائف كلما سنحت له الفرصة، فيجد مسعود قد هيأ له غرفة خاصة في عمارته.

كان السائق يفضّل البقاء في مكة لوجود غرفة خاصة له تحوّلت إلى شقة صغيرة بعد مجيء زوجته، ولكن عندما يأتي مع مسعود إلى الطائف، يكون مبيته في غرفة الضيوف.

كان يتوقّع أن منير ابن مسعود، ويستغرب من أنه لا وجود لامرأة في ذلك البيت، ولكن بعد زمن اعتاد الوضع الغريب، وبدأ يتقرّب من منير، يريه صوره وصور عائلته. أخبره أن والده قدم إلى السعودية قبل سنوات طويلة، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً لمرض زوجته التي كانت مرافقة معه، وقد غادرا مكة

المكرمة، وكلهم شوق إلى البقاء، ويقول: "لو بقينا، لأصبحت من أبناء هذا البلد الكريم".

سأله منير: "ألم يخبرك والدك عن أخ لكم تركاه مع والدتك هنا أملاً بالعودة"، أجاب: "كنت أنا وأختي الصغيرة مع والدي عندما عدنا".

حكاية تتكرّر، أناس يأتون ويغادرون، ماذا لو قال ذلك السائق إن والدتي فضلت أن يبقى أخي الصغير عند امرأة سعودية حتى تعود من رحلتها العلاجية، هل سيكون منير أخاً لذلك السائق؟ ملامحه بعيدة عن ملامح جميع سكان جنوب شرق آسيا، حكايات تتكرر وتتشابه، ورغم ذلك، حكاية منير مختلفة.

السكن بقرب الحرم المكي الشريف حلم كل مسلم، فكيف إذا كان صاحب السكن هذا مثل مسعود، رجل لا زوجة له ولا أبناء، كريم، ولا يريد أن يخسر أحداً. والسبب الذي جعل مسعود يختار الطائف عندما غادر إلى الحجاز منذ سنوات ها هو ماثل أمام عينيه، فبعض أقربائه يتحيّنون أي مناسبة ليتوجهوا إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، وضمان أداء الصلوات الخمس في الحرم المكي، لقرب عمارة مسعود من الحرم.

كان لبقاء مسعود في مكة غالبية الوقت، وبسبب إقامة بعض أفراد أسرته في عمارته في مكة أثناء زياراتهم لأداء العمرة، فرصة سانحة لسائقه للتعرف إلى أولئك الأقرباء، وبسبب ذلك، توطدت العلاقة بين بعض أفراد الأسرة وبين السائق، وأصبح يتواصل معهم هاتفياً ليبلغهم أخبار مسعود. لم يكن مسعود يعرف بذلك ولا منير، بل إن بعض أفراد الأسرة أخبروا السائق بحقيقة منير، مشيرين إلى أن هذا لقيط، وحذّروه منه، وأنه خطر على مسعود، لأنه يريد أن يستحوذ على ثروته.

لم يعلم مسعود ولا منير أن السائق أصبح جاسوساً يرصد كل تحركاتهما، ويبلغ أناساً بكل ما يفعلانه. لم يتوقف الأمر على ذلك بل تجاوز الأمر إلى تسريب بعض الأوراق الرسمية التي ينساها مسعود في السيارة أو مقر إقامته في مكة أو صور منها إلى بعض الأقرباء، إذا كانت ذات أهمية، وقد ساعده على معرفة ذلك درايته البسيطة باللغة العربية تحدثاً وقراءة وكتابة.

حين أقبل الحج أبدى السائق رغبته في أداء فريضة الحج مع زوجته، وتعهد بتوفير سائق من أقربائه من المقيمين في مكة ليقل مسعوداً إلى الطائف إذا رغب، ويبقى معه حتى الانتهاء من مناسك الحج. وافق مسعود على ذلك. وفي ذلك الوقت، كان منير يرغب في الذهاب إلى القاهرة بصحبة أحد أصدقائه الذين أحبوا القراءة، وحرصوا على ارتياد المكتبات.

***

لا أحب كثيراً السفر. في البداية، كان حرصي أن أكون مع أبي مسعود لأقوم على خدمته، ولكن بعد أن أصبح لديه سائق خاص، خفّ العبء عليَّ.

خلال السنوات التي قضيتها معه، ذهبت إلى الرياض ثلاث أو أربع مرات، ولكن لا أستطيع أن أحصي عدد زياراتي إلى جدة، وبكل تأكيد مكة، وكذلك المدينة. ذهبت مرة واحدة إلى البحرين لمشاهدة السينما، وإلى الكويت لحضور معرض الكتاب ومشاهدة إحدى المسرحيات، وهذا العام قررت أن أذهب إلى القاهرة بعد أخذي إجازة لمدة خمسة أيام ألحقتها بإجازة الحج، برفقة صديقي أحمد مساعد. دعوني أحدثكم عن أحمد:

ينتمي أحمد إلى أسرة من الطبقة المتوسطة قدمت من عسير واستقرت في الطائف. والده إمام لمسجد صغير في حي الشهداء الشمالية، يميل أحمد إلى الانطواء. تعرفت عليه مصادفة بعد محاضرة أدبية أقامها النادي الأدبي في الطائف، في مقره في حي قروى. انتهت المحاضرة وحمل كل واحد منا مجموعة من الكتب وغادر النادي. لم يكن لديّ ذلك الوقت سيارة، وكانت معه سيارة صغيرة وقديمة. كنت أمشي باحثاً عن سيارة أجرة لتقلّني إلى البيت، توقّف وطلب مني أن أركب معه، شكرته، وعندما علمت أنه متجه إلى الشهداء الشمالية، طلبت منه أن ينزلني بالقرب من مسجد ابن عباس، وهناك أجد سيارات أجرة ذاهبة إلى حي الشرقية، لكنه رفض وقرر أن نتوجه إلى البيت في الشرقية، وبعدها يذهب إلى بيته. قال لي: "التعب على السيارة". تحدثنا عن المحاضرة، وكانت حول الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية. قررنا أن نلتقي حين تسمح الظروف، واستأذنت من والدي مسعود أن أستضيف أحمد بالبيت، وفعلاً جاء أكثر من مرة. كنت أعدّ الشاي والقهوة قبل أن يحضر. نجلس ونتحدث عن قراءاتنا. كان يتوقّع أن والدتي داخل البيت، وعلم بعد زمن أنه ليس في ذلك السكن سواي مع والدي مسعود، وعرف بعد زمن أن مسعود والدي بالتبني. لم يجفل من صحبة رجل أشبه بلقيط، بلا أصل معروف. بقيت علاقته طبيعية، بل ازدادت الألفة بيننا. علمت أنه خريج كلية المعلمين المتوسطة، وهو أستاذ في الصفوف الابتدائية الأولى، لم يتزوّج بعد، ووالده يخاف عليه من الفتنة. لذا، جاء سفره إلى القاهرة بعد إلحاح وتوسّط مني، وذلك بعد أن أخبره أحمد بقصتي وأنني عشت يتيماً. لذا، توخّى والد أحمد فيّ الخير، ورضي أن نسافر بعد أن تعهدنا أن نلتزم الأخلاق الإسلامية.

أحمد مملوء بهموم كثيرة، إنسان مرهف الحسّ، كان يحلم أن يكون شاعراً مثل محمود درويش، وحلمه الآخر أن يذهب إلى بيروت. في هذه الأيام، كان الاجتياح الإسرائيلي، وكانت هنالك غصّة في الحلق. كان أحمد يقول: "أتعرف ماذا يعني فقد بيروت، يعني أن نفقد بوصلتنا الثقافية؟". أعرف أن بقاءه في الطائف خاصة وهو يسمع أخبار الاجتياح يزيد اكتئابه. أما أنا، فكتلة من الاكتئاب، ولاسيما وأنا أرى والدي مسعود يذوي يوماً بعد يوم، ويفضّل البقاء أطول وقت في الحرم المكي الشريف بعيداً عني.

***

تفكر دائماً أن تعود إلى مدينة الطائف، هذه القرارات ليست قوية، والأماكن جميعها تشابهت لديك. تضجّ ذاكرتك بكثير من الذكريات في الطائف غالبيتها جميلة، ولكن من المستحيل أن تعيد الزمن. حين انتقلت إلى الرياض منذ سنوات طويلة، تنقلت بين عدة أماكن، ثم انتهى مقامك في هذه الشقة التي لم تفكر في تغييرها رغم أن الحي تغيّرت ملامحه وتركيبته السكانية في السنوات الأخيرة. لم تبحث عن محفّز للتغيير؛ ربما هنالك أسباب كثيرة للتغيير، ولكن داخلك إحساس بأن حياتك أصبحت نغمة كئيبة رتيبة لا تتغيّر أبداً.

"يعيش في هذه الشقة رجل سعودي حاله حال نفسه، العمارة للعائلات، كان متزوجاً منذ سنوات، وبقي في هذه الشقة"، هذا الكلام عنك، هذا ما يعرفه قاطنو هذا الحي، وخاصة هذه العمارة المكوّنة من أربعة أدوار، وأنت رضيت بهذا الكلام لأنه يقطع الحديث عن استفسارات أخرى عنك أو حياتك الخاصة.

أنت محتاج إلى الهدوء واسترجاع كل القصص التي مرّت عليك، محتاج أن تكتب، تكتب فقط، حتى يتصل بك ذلك الرجل.

١١

مصر تعيش في بداية عهد رئيس جديد. اغتيل السادات وجاء مبارك، لم يكن هذا يعني شيئاً لرجلين قدما من الطائف كانت أمنيتهما أن يقابلا شخوص روايات نجيب محفوظ وقصص يوسف إدريس، ويستمتعا بصوت نجاة، ويجدا آثار عبد الحليم وأم كلثوم والعقاد والمازني وطه حسين والرافعي وأسماء كثيرة في الفكر والثقافة والفن. حلمهما أن يعيشا حياة مختلفة عن المكان الذي قدما منه، وإن كانت إقامتهما وعلاقاتهما محدودة، ولكن بكل تأكيد ستكون تجربة جميلة لهما، ولاسيما أن هذه أول رحلة لهما معاً.

منير كعادته سلّم القيادة لأحمد، إذ تعود أن يكون تابعاً وليس متبوعاً، وأحمد استطاع أن يجمع مجموعة من المعلومات عن القاهرة والأماكن السياحية فيها، وأخذ بعض أرقام الهواتف لبعض الأدباء والمهتمين بالثقافة، إضافة إلى رغبة خاصة لم يخبر بها منير، وهي الزواج بامرأة مصرية لو لعدة أيام ثم اتخاذ قرار الطلاق حين يحين الرحيل.

لم يفكرا في السكن في أحد فنادق القاهرة، بل كانت رغبتهما السكن في شقة مفروشة ليستقبلا الأصدقاء، وليعيشا بساطة الحياة ومتعتها. أحمد يدخن بشراهة حين يكون بعيداً عن أسرته وخاصة والده، فيما كانت تربية مسعود لمنير سبباً في ابتعاده عن التدخين أو الشراب.

مطوّع مع وقف التنفيذ، هذا ما يقوله أحمد عن منير دائماً، فقد كان ملتزماً أداء الصلوات غالباً في أوقاتها. ليست له مغامرات نسائية، وهذا يراه أحمد عيباً، لأنه

يثق بأن منير لم يعرف الحب أبداً، ويلتمس له العذر لأنه يعيش داخل مجتمع رجولي، لا يرى النساء إلا نادراً، حتى أخواته بالرضاعة بدأن يحرصن على ألّا يلتقين به عند زياراته التي أصبحت نادرة. كانت أول نصيحة قدمها أحمد إلى منير: ''كن طبيعياً عندما تلتقي بنساء في مصر''.

عرف منير أن الحي الذي يسكنه يدعى المنيل، وأن هنالك دار سينما بالإمكان الوصول إليها مشياً على الأقدام. ومشاهدة فيلم في السينما بحد ذاته أمر مبهج، وكان سؤاله في أول يوم وصل فيه القاهرة عن المسرح القومي؛ يعرف أن هنالك بعض المسرحيات التجارية التي تعتمد على جماهيرية بعض الممثلين، ولكن يفضل أن يرى أعمالاً مسرحيةً جادةً.

كانت خطة أحمد أن يتصل برجل يدعى سيد إبراهيم، أخذ رقمه من صديق له مصري يعمل في مستوصف صحي في الطائف، بعدما أكد له ذلك الصديق أن سيد من الأدباء والمثقفين في مصر، وسيكون سعيداً بخدمته. اتّصل به وانتظر قرابة الساعتين ليقرع سيد الباب ويأخذ كلّاً من أحمد ومنير في الأحضان كأنه يعرفهما منذ سنوات طويلة.

تحدّث سيد عن صديقه الذي يعمل في المستوصف الصحي كثيراً، مشيراً إلى أنه قد أوصاه بالاهتمام بهما، وتعريفهما إلى الأدباء في مصر، إضافة إلى معالم القاهرة السياحية.

تحدث كثيراً ثم قال لمنير: ''إنت ليه ساكت، ما تتكلمش كثير؟''، قال له أحمد: ''منير طبيعته هادئ''، ثم أضاف أن منير من أدباء السعودية الطليعيين. لم تعجب سيد كلمة ''طليعي'': ''اوعى يكون شيوعي؟!''. ضحك الجميع من ذلك التوجس،

ليقول منير: ''إذا كان مصطفى محمود شيوعيّاً، فأنا كذلك''، ليرد عليَّ سيد: ''انت ما شاء الله عالم ورجل دين!''، ليقول منير مباشرة: ''بل مثقف أحب الأدب''.

تحدث سيد كثيراً وقدم إليهما أكثر من مشروع: مشاهدة عروض مسرحية، سينما، حفل راقص. ورغبة في كسب الوقت في أول يوم للأديبين منير وأحمد، اقترح التوجه إلى أحد المقاهي المطلة على النيل للاستمتاع بلحظات غروب الشمس وشرب الشاي، وبعد ذلك التوجه إلى مطعم شعبي شهير لتناول وجبة عشاء دسمة، وقضاء بقية الليل في أحد مقاهي الحسين.

اسم منير شائع في مصر، وهنالك رجال ملامحهم قريبة من ملامح منير: الشعر المائل إلى الشقرة والعينان الملونتان، لكنه لا يشعر بانتماء إليهم.

***

الطفل الذي داخلي يخاف عالم الكبار، لقد أراحني أحمد كثيراً من عناء التواصل مع الآخرين، خاصة سيد إبراهيم. أشعر أنه طيّب جداً، ونحن كما وصل إلى علمه أصدقاء لذلك الرجل الذي يعمل في المستوصف الصحي في الطائف. بالمناسبة، أنا لا أعرف ذلك الرجل، أعتقد أنه يعمل في مستوصف قريب من بيت أحمد، تعرّف إلى ذلك الرجل الذي لا أعرف هل هو دكتور أو مجرد موظف، عموماً لا يهمني أبداً وظيفته، ولكن بكل تأكيد سأذهب إليه بعد عودتي إلى الطائف وأشكره لاهتمامه، ولأنه سبب للتعرف على سيد إبراهيم الذي بدأ يحاول إقناعي بالزواج بإحدى النساء الجميلات، بعدما أكّد لي أن الأمر ليس معقداً: التعرف إلى المرأة كخطوة أولى، ثم التحدّث معها، وكان يردد وهو يضحك: ''نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء''، ويضيف: ''فزواج على سنة الله ورسوله وعلى مذهب

الإمام، أنتم اختاروا الإمام الذي يناسبكم".

زيارة مصر رحلة منذ سنوات طويلة انتظرتها. في السابق، لم يكن هنالك أحد أشعر أنه سيكون خير رفيق لهذه الرحلة. أذكر ردّ أحد الأصدقاء حين عرضت عليه السفر، حينما قال: "لا أصلح أن أسافر معك، أنت تحبّ الأدب، وأنا أحب قلة الأدب".

هذه الرحلة احتجتها منذ زمن طويل؛ صخب في كل مكان، رجال، نساء، أطفال، لا أحد يسأل ابن من، وليس هناك مشكلة حين تكون ابن لا أحد، فأنت الأوحد المتوحّد بصفتك الإنسانية فقط، وهذا ما جعلني أفكر في البقاء هنا، ولكن أتذكر مسعود، الطائف، الوطن الذي أحبه، والذي منحني هوية لأعيش كأحد أفراد المجتمع. ولكن أفراد المجتمع هؤلاء يهم كل واحد منهم أن يكون ورقة من شجرة، أكانت عائلة أم قبيلة. في الحسين، كان هنالك مجموعة من الأطفال أخبرني سيد أنهم من أبناء الشوارع، وأنا المحب منذ صغري للجلوس على عتبة الدار المطلة على الشارع، لو كنت هنا هل سآلف أرصفة الشوارع أو عتبات البيوت؟

في المقهى المطلّ على النيل، استمعت لأغنية أم كلثوم "أغداً ألقاك"، فقام سيد كعادته بدور المرشد السياحي ليعرفنا أن كاتب الأغنية هو الشاعر السوداني الهادي آدم، ولحنها الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب، وأخبرنا بقصة الأغنية وهي أن الشاعر أحب فتاة غنية وهو فقير، والفتاة أحبت الشاعر وطلبت من أبيها أن يقابله، وهذا ما جعل الشاعر سعيداً، فسهر ليلته منتظراً اللقاء وكتب قصيدته التي غنتها أم كلثوم.

تمنيت لو التزم الصمت. سمعت هذه الأغنية أكثر من مرة، ولكن السماع يختلف في مقهى يطل على النيل. أحسست أنني الشاعر، ولكنني أختلف عنه في أن هذا الغد بالنسبة إلي قد يحمل مفاجأة لقاء امرأة قد أحبها، فرددت مع أم كلثوم:

وغداً تأتلف الجنة أنهاراً وظلّاً
وغداً ننسى فلا نأسى على ماضٍ تولى
وغداً نسهو فلا نعرف للغيب محلّاً
وغداً للحاضر الزاهر نحيا ليس إلّا
قد يكون الغيب حلواً، إنما الحاضر أحلى

اكتشفت أن أحمد متلهف لمقابلة بعض النساء. طلبت منه أن ننفذ رغبة والده بأن نبتعد عن بنات الليل، فصارحني برغبته في الزواج. أردت أن أقول له: "ليس لديك مشكلة في الزواج في السعودية، ولكن أنا من يقبلني هناك، سيسأل عن أصلي وفصلي"، ولكنني قررت أن أقول له: "هل لديك الجرأة أن تحضرها معك إلى الطائف، وتخبر والدك أن تلك المرأة زوجتك؟!". كانت إجابته: "هي تجربة، إذا أعجبتني وأحببتها وأحبتني ليس لنقودي، بل أحبتني كشخص، سأحارب لكي يستمر زواجنا".

أعرف كثيراً أحمد وشفافيته، قال لي ذات مساء: "النساء يعدن حياكة مشاعرك فتصبح سعيداً بعد أن كنت تشعر بالتعاسة، ويتحوّل غضبك إلى سخرية من نفسك لأنهن يجعلنك تشعر أنه ليس هنالك ما يستحق الغضب، كل ذلك بمجرد ابتسامة أو نظرة حب".

ربما لديه الخبرة، ولكن لم تتّضح لي تماماً عندما جلسنا في أحد مقاهي الحسين. كان هو مع سيد يدخنان النرجيلة، بينما اكتفيت بشرب الشاي. وحقيقةً الجلوس في تلك المقاهي متعة، سماع بعض الفنانين والفنانات، والغناء معهم، وحصار البائعين... وجوه من مختلف دول العالم يجتمعون في ذلك المكان المطلّ على مسجد الحسين. أكثر من مقهى، ودعوات لتناول الشاي والقهوة وأنواع من العصير الطازج. كنت مستمتعاً بالصخب، أتخيّل شخصيات نجيب محفوظ ويحيى حقي ويوسف إدريس وغيرهم من مبدعي مصر. أراقب الناس كعادتي، ولكن ليس على عتبة البيت، بل على مقعد في أحد مقاهي الحسين. سمعت سيد وهو يقول: ''أهلا أستاذة وصال!''.

لمحت بعدها فتاة في العشرين من عمرها تبتسم وتتوجه إلى مكاننا. كان برفقتها امرأتان. وقفنا مستقبلين النساء، عرفنا سيد إلى تلك الفتاة قائلاً: ''الصحافية اللامعة وصال''، ثم قال مباشرة: ''أعرفك إلى الأديبين من السعودية منير عبد الله وأحمد مساعد''. ردت قائلة: ''أهلا وسهلاً، أعرفكم إلى هداية وسمر، طالبتان في كلية الإعلام''. جلسن في المقاعد التي كانت مهيئة قبل حضورهن، ثم توجهت وصال بحديثها إلى سيد سائلة عن أحواله، كان أحمد ملتزماً الصمت، كنت أتوقع أن يتحدث... يبادر بسؤال. ولكن كان يتشبث بليّ النرجيلة ويتطلّع حوله صامتاً. لا أدري ما الجرأة التي واتتني فجعلتني أسأل وصال عن عملها، فأخبرتني أنها متعاونة مع مجلة **الشرقية**، ولكن غير متفرغة بسبب الدراسة، فتذكرت حينذاك أن تلك المجلة تملكها سميرة خاشقجي، وقلت لهم ذلك، وبعد ذلك قلت إن سميرة روائية متميزة، وسألت: ''هل قرأ أحد منكم رواية لها؟''، بادرت سمر بالإجابة: ''قرأت لها **عيناك قدري**''. عرفت من لكنتها

أنها سعودية من الحجاز، واصلت حديثي: "هي تستخدم اسم سميرة بنت الجزيرة العربية، ولها عدة روايات". لم يقدر سيد أن يلتزم الصمت ويستمع، فلا بد أن يشارك، إذ تدخل قائلاً: "زوجها محمد الفايد من مصر"، ليعلق أحمد قائلاً: "هذا الشيء الجميل... العرب أسرة واحدة"، وهذا ما شجّع وصال على القول: "فعلاً، أنا من مصر، وسمر من السعودية، وهداية من الكويت"، ليقتنص سيد مداخلة أخرى ويقول: "واحد، اثنان، ثلاثة". لم نفهم ماذا يقصد وكنت أتوقع أنه مجرد تعليق لتلطيف الجو لإحساسه بالسكينة التي أصابت أحمد، وحينئذ قالت وصال: "ماذا تقصد؟"، فقال: "هداية واحد، أو بالأصح واحدة من الكويت، أنا ووصال من مصر اثنان، وأحمد ومنير وسمر ثلاثة من السعودية".

حين يجتمع الرجال مع النساء في مكان عابر غير رسمي، تبدأ مواهب الرجال بصورة واضحة للفت الأنظار، فتكون النكتة وخفة الدم وسرعة البديهة. في المقابل، تتحوّل المرأة إلى متلقٍّ وحكم، وفي الوقت نفسه إلى هدفٍ، كل واحدة تسعى لكي تنال إعجاب الرجل، وكل امرأة تتخذ طريقة تختلف عن الأخرى. وبالطبع من المستحيل أن ترضى أي امرأة أن تكون أضحوكةً لأحد، فما بالكم أن الأحد مجموعة من الرجال؟ وحين يفتقد الرجل الوسامة، فهنالك الرجولة، والإبداع، والأخلاق المثالية، والنظرة الفاحصة الناقدة لأشياء كثيرة.

ثلاثة رجال وثلاث نساء يلتقون لأول مرة، نستثني الرابط للمعرفة واللقاء: الصحافية وصال وسيد إبراهيم، هؤلاء الستة يعلمون أن هذا اللقاء غالباً لا يتكرر، وأنهم قدموا إلى هذا المكان ليستمتعوا بالوقت، وبقضاء ليل قاهريّ جميل. تحدثت كثيراً، وبدأ أحمد يتحدث لتظهر موهبة الشعر لديه، يعجبني فيه أنه يحفظ كثيراً من الأشعار. دار جدل حول الصحافة النسائية، واستغلال صورة

المرأة لتسويق بعض المجلات، تحدثت هداية عن صحافة الكويت وانتشارها في السعودية خاصة، والمعلومة التي حرصتُ على تدوينها ما قالته وصال عن أن بداية المجلات النسائية الهادفة كانت في مصر عام ١٨٩٢، حينما أصدرت الصحافية اللبنانية هند نوفل مجلة **الفتاة** في مدينة الإسكندرية، لتعلّق سمر: "الآن توجد المجلات النسائية المتخصصة"، مستشهدة بمجلات الأزياء، وترى أن أهمها **البوردا** التي بدأت تقدم إلى العالم تصاميم الأزياء الحديثة.

استمعنا لعازف عود، لم يعجبنا صوته، فطلبنا منه العزف فقط، مشيرين إلى إتقانه ذلك، ورغبنا أن نستمع إلى تقاسيم من كل المقامات الموسيقية، ولأننا لا نعرف تلك المقامات، كان صوت العود شجيّاً، ولاسيما حين يحاول العازف أن يقلّد فريد الأطرش.

هل بدأ الطفل الذي داخلي يكبر ويتمرد. أنا كنت أتحدث مع الجميع بتلقائية ودون تكلّف. كنت أنظر إلى تلك الفتيات نظرة ودّ وصداقة. لسنَ باهرات بجمالهن، ولكن مريحاتٍ. ربما لم يكن لديَّ خبرة في جمال المرأة، ولا معرفة بمقدار أنوثتها، ولكن داخلي إنسان مثالي يقدر المرأة ويرفض أن تكون سلعة. غادرنا المكان مودعين صديقات سهرة الحسين على أمل اللقاء ومتجهين إلى شقة المنيل لأنام في أول ليلة لي في مصر مبتهجاً لأنني نسيت بعض الوقت من أكون.

***

أنت ابتعدت كثيراً عن كل الناس، حتى أقرب أصدقائك لديك. ماذا لو أن لديك رقم ذلك الرجل الثرثار الذي أوصلته إلى بيته في آخر يوم لك في العمل، وأخبرته بالمكالمة الغريبة لذلك الرجل الذي يقول إنه يعرف عائلتك، ماذا تتوقع

أن يقول؟ ربما سيعاتبك على قطع صلة الرحم، هو طبعاً لا يعرف ألّا علاقة لك بصلة الرحم هذه، لأنك لا تعرف صاحبة الرحم التي ولدتك ولا زوجها. تتمنّى لو كنت مثله، لبحثت عن كل قريب لك، ولكن القرابة الخاصة بك مستعارة: نساء أرضعنك بدلاً من أمك، ورجل عطف عليك ورعاك بدلاً من أبيك.

الرجل الذي اتّصل قال إنه يعرفك، ويعرف أقرباءك، هو يريد أن يضيف إلى رصيدك المعرفي الاجتماعي قائمة من الأسماء. هل عمرك هذا يسمح أن تتعرّف على أناس ليس لك علاقة سابقة بهم. لتفكر في ذلك! مجرد أن يكون لك أخ أو أخت هذا يعني أن هناك أعماماً وعماتٍ وأبناءً لهم ولهن، وأخوال وخالات وأبناء لهم ولهنّ، إضافة إلى أبنائهم وأرحامهم... هل تدخل في عالم الأقارب الكبير، عالم صاخب، هل باستطاعتك يا منير وقد تجاوزت العقد الخامس من عمرك أن تندمج فيه؟

ربما لو تحقق ذلك، فستفقد الوقت الذي تستغله الآن للقراءة والكتابة. أنت تملك الوقت الآن، هي فرصتك للكتابة وتوقع أسوأ الأشياء. أعرف أن الأمور تساوت لديك، ولكن توقّع أن تجد نفسك في مواقع صاخبة تبحث فيها عن الراحة والهدوء فلا تجد.

١٢

في موسم الحج، تكون هنالك فرصة جيدة للحصول على مبلغ كبير من المال مقابل تأجير العمارات الكبيرة القريبة من الحرم لبعثات الحج، وكل عام يهيئ مسعود عمارته لذلك.

في سنوات سابقة، لم يكن لديه مشكلة في الذهاب إلى الطائف، فمنير موجود هناك، وحياته الطبيعية أيضاً في لطائف، ولكن هذا العام الأمر مختلف، لقد اعتاد مسعود كثيراً وجود منير حين يكون في الطائف، فمع مرور كل يوم يزداد خوفه وحبه لذلك الطفل الذي التقطه من عتبة بيت يحترق، ليكبر أمام عينيه. لقد أصبح رجلاً، هو يشعر بذلك، ولكن ليس ذلك الرجل الذي يستطيع أن يعيش وسط مجتمع لا يرحم. لقد غرس فيه الطيبة وحبّ الناس، منحه بياضاً كبياض قلبه، هل ظَلَمه عندما جعله وحيداً بلا إخوة أو أخوات، هو يعرف أن جابراً وعائلته يكنون له المودة، ولكن هذه المودة لا تصل مرحلة حب الإخوة والأخوات، إضافة إلى أن الزمن كان قاسياً مع الجميع، فمنير لم يرافق حسن وناصر في مشوارهما الدراسي، أو يلحق بهما، وفقْد ابنتهم رحمة وزواج بقية البنات غيّرا تركيبة الأسرة بوجود رجال غرباء هم أزواج البنات، إضافة إلى الأحفاد الذين كبروا وتحديداً أبناء ابنهم عبد الرحمن الذي سعى بعد حياة توزعت على أكثر من قاعدة عسكرية أن يستقرّ في الطائف. كل ذلك حدث لأسرة جابر بعد انتقالهم إلى فيلّا الفيصلية، وبالطبع لم يكن هنالك أبداً مكان لمنير بينهم.

استأجر مسعود شقة صغيرة في حي العزيزية في مكة خلال موسم الحج، وقرر البقاء في مكة. اطمأن إلى منير عندما اتصل به هاتفياً في اليوم الأول لوصوله، ولحسن حظ منير أنه في ذلك اليوم كان مسعود ينتظر اتصاله قبل أن يغادر عمارته، لأن الشقة التي استأجرها ليس فيها هاتف. اطمأن كل منهما إلى صحة الآخر، وطلب منه مسعود ألّا يقلق عليه، فغالباً سيبقى في مكة، ولكن ليس لديه القدرة هذا العام على أداء مناسك الحج.

أسباب متعددة كانت سبباً لموافقة مسعود على سفر منير بصحبة أحمد أولها لكي يخرج من دائرة الاكتئاب التي يعيشها، والتي لاحظها مسعود على منير خلال السنة الأخيرة خاصة مع إحساسه بتقدمه بالعمر، والخوف من الموت، وتركه وحيداً، وهو الشاب الطيب الذي ليس لديه قدرة على مواجهة مجتمع صعب. السبب الآخر ما وصّى به صديقه أحمد بالبحث عن زوجة صالحة، وسيتعهّد بكامل تكلفة الزواج، وهو يعلم أن منيراً لن يرضخ بسرعة لهذا الطلب. ومن الأسباب الرغبة في ابتعاده قليلاً ليتمكّن مسعود من رصد ثروته وإصدار وصية بثلث ماله لمنير، وحفظها عند أحد الثقات الذين بكل تأكيد ليسوا من أقاربه، وبجانب ذلك توزيع أجزاء من ثروته على بعض الجمعيات الخيرية، ووقف عمارته القريبة من الحرم.

منير أيقظ غريزة الأبوة لدى مسعود، لقد أحبّه كثيراً، وها هو يسعى أن تكون له ثروة تساعده على العيش بقية عمره. أسرة مسعود، خاصة إخوته، لم يقتربوا منه كثيراً، بل كان بعض أبناء إخوته يشعرون بالغيرة من منير، ويصل الشعور إلى الحسد والكراهية، وموقفهم معلن وبوضوح، رفضهم تزويج منير من أسرتهم، ورفضهم أن يحضر مع مسعود حين يهمّ بزيارتهم، وقولهم ذلك بكل

صراحة: إن منير غير مرحب به. ربما نظر بعضهم إلى منير نظرة شفقة، ولكن كانوا يتمنّون لو اعتنت الشؤون الاجتماعية به وزوّجته بإحدى النساء اللقيطات أو اليتيمات لديها.

الخوف على منير يزداد كل يوم، والوقت يمضي سريعاً، فلا بد من الذهاب إلى الطائف والبحث عن المستندات، ومراجعة البنوك والدوائر الحكومية قبل بدء إجازة الحج؛ هذا كان قرار مسعود.

***

كنت أتمنى لو كان برفقتي والدي مسعود، مصر جميلة ومبهجة، هو يحتاج إلى نقاهة، لقد أتعبه العمل الذي يرتبط بالعقار والبنوك والمال، حاولت معه أن يذهب معنا، وهذه ليست المحاولة الأولى، بل سبق في سنوات ماضية أن طلبت منه أن نذهب إلى مصر أو أي بلد يرغبها، وكان يرفض بقوة. كان يقول: "لا أحب ركوب الطائرة، ولا أرغب في الحصول على جواز سفر".

لقد اتصلت به وطمأنته إلى وصولنا بالسلامة، قال لي: "أنا بخير، استمتع بوقتك". شعرت أنه يقول فرحك فرحي، حينما تسعد أنت، أسعد أنا. أحسست بعطف الأب ومحبته، وشعرت بغصّة في حلقي. دعوت له بدوام الصحة والعافية وأن يبقيه الله لي.

إنه أبي وإن لم أخرج من صلبه. دوماً أبحث عما يسعده. لم أغضبه أبداً، وها هو يقول: استمتع بوقتك. ها هي الثقة المطلقة، وها أنا أشعر بالاطمئنان. إحساس غريب! سأغيب قرابة عشرين يوماً، ولم يسبق أن ابتعدت أكثر من عشرة أيام عنه. وخلال العشرة تلك اتصل به أكثر من مرة. عشرون يوماً أنقطع عن هذا

الأب، صعب هذا! ولكن أعرف أن مشكلة الاتصال غالباً تكون مرهقة ومكلفة قليلاً، وشقته كما علمت لا يوجد فيها هاتف. رددت الكلمة التي يقولها لي دائماً: "الله خير حافظ".

زائر مصر لأول مرة وتحديداً القاهرة يجد نفسه متوجهاً عبر قارب في النيل إلى القناطر الخيرية، وزائراً الأهرامات وبعض المتاحف. وضع سيد لنا برنامجاً سياحياً. عرّفنا إلى أغلب معالم القاهرة، وبعد غروب الشمس، جعلنا نستمتع ونضحك حين نحضر بعض العروض المسرحية. عشت متعة خاصة. هنالك كتب بطبعات شعبية رخيصة دفعني سعرها البسيط إلى شراء ما يثقل حمله من الكتب، ومن جانب آخر، كان للمسرح والسينما متعة خاصة، فهي وخاصة السينما متوافرة في أي وقت. وعبر سيد تعرفنا إلى عدد من الناس، بعضهم أدباء، وبعضهم له علاقة بالفن. وهنالك عدد كبير تعرفت إليهم في الأماكن التي نذهب إليها. التواصل مع الناس والحديث معهم يسير بكل بساطة. كنت أحاول أن أبحث عن الإنسان المرح داخلي، الطفل لا يزال له سلطته القوية، ولكن الطفولة مرح وبساطة.

بدأت أشعر بذلك، وهذا ما أسعد كلّاً من أحمد وسيد. هذا المساء كان مختلفاً، قد يكون اليوم الخامس أو الرابع؛ لا أذكر لأننا تركنا حساب الأيام والساعات. كنا مستمتعين، وهذا المساء كانت لدى سيد رغبة في استضافتنا. التجربة الأولى لدخول بيت أسرة مصرية كنت أشاهدها في المسلسلات المصرية، وأقرؤها في كثير من الروايات والقصص، ولكن هذا المساء نحن جزء من المشهد. رفضنا، أنا وأحمد، في البداية، لأننا لا نريد أن نرهق سيد بأتعاب هذه الدعوة، ونحن

نعرف أنه من متوسطي الدخل، ولكن أصرّ لدرجة الحلف والطلاق، ورضخنا لنعيش تجربة جديدة.

استقبلتنا أم فتحي، زوجة سيد، عند الباب، وهي تردد: ''أهلاً وسهلاً، نورتو مصر''، ليعرفنا قائلاً: ''هؤلاء أصدقاء الدكتور إيهاب في الطائف في السعودية، أحمد ومنير''. رحبّت بنا تلك المرأة، وطلبت منا أن نجلس على مقاعد في صدر صالة الجلوس. كان هنالك تلفزيون صغير في الجانب الأيسر من الصالة بالقرب من المدخل، وهنالك مدخلان على الجانبين الأيسر والأيمن. إحداها كما علمت لاحقاً يؤدي إلى غرفة نوم سيد، وبجانبها غرفة صغيرة، ومطبخ، وفي الجانب الأيمن غرفة خصصت للطعام. كان البيت بسيطاً ومتواضعاً والأهمّ أنه مرتب. كانت ''أم فتحي'' تردد ترحيبها كلما مرت من أمامنا، وبعد قليل خرج من الجانب الأيسر رجل في العقد الرابع من عمره أصغر من سيد الذي بدأنا نطلق عليه أبو فتحي. عرّفنا سيد إليه قائلاً: ''المهندس مدحت، زوج ابنة أخت أم فتحي''. صافحنا الرجل الذي قدّم إلينا زوجته سحر لتقول أم فتحي: ''هذه ذراعي اليمين مثل ابنتي فاطمة''، ليتساءل سيد عن ابنته، وتجيبه بأنها ستحضر الشاي بعد قليل.

حضرت فاطمة، فتاة جميلة ممتلئة الجسم قليلاً، تمشي على استحياء وقد وضعت غطاء خفيفاً على رأسها. ''مساء الخير''، قالتها بخجل، أربعة أعين تتفحصها: أحمد الباحث عن زوجة، وأنا غير المستوعب هذه البساطة في الحياة. كانت فاطمة على امتلاء جسمها توحي بأنها تجاوزت الثامنة عشر، ولكن أخبرنا سيد أنها بعد ثلاثة أشهر تدخل الخامسة عشر.

لم يحضر فتحي وهو الابن الأكبر لارتباطه بمباراة كرة قدم. اجتهد الخمسة في خدمتنا، وكان سيد سعيداً بحضورنا. كانت المفاجأة ما أُعدّ لنا من أكلات،

مائدة كبيرة على اثنين، "بط وفراخ وحمام ومحاشي و... و..." شاركنا المائدة سيد والمهندس رأفت، قال سيد أثناء الطعام: "لقد فكرت أن أستضيف بعض الأدباء، لكن فضلت أن يكون هذا اللقاء عائليّاً وبسيطاً".

شكرناه كثيراً على هذا الكرم، لنجلس بعد العشاء لتناول الشاي والقهوة. استغربت أم فتحي أنني لا أدخن ليجيب سيد بدلاً عني: "الأستاذ منير من الأولياء الصالحين، لا يدخّن، ولا يعرف العيب"، شكرته وقلت ضاحكاً: "أنا وكّلت أحمد بالتدخين عني وعنه"، ليرد علي أحمد: "سامحك الله! أنا أدخن بشراهة"، لأقطع الجدل بسؤال سيّد عن السنة الدراسية لفاطمة، ليجيب: "السنة القادمة ستكون في الصف الأول الثانوي"، ليؤكد أحمد أهمية مواصلة الدراسة، الأمر الذي جعل "أم فتحي" تقول: "كل عائلتنا متعلمين، سحر ما شاء الله صيدلة، وأختها إيمان طالبة طب، و...، و..." لم يدعها سيد تكمل ليقول: "أرغب من أحمد ومنير أن يتحدثا عن نفسيهما". التزمت الصمت وأشرت إلى أحمد أن يبدأ الحديث. تحدث باختصار عن نفسه مشيراً إلى أنه من أسرة متوسطة تعيش في الطائف، مدرس يهوى القراءة... انتهى من حديثه لتتجه الأنظار إلي، ماذا أقول لهم، هل أقول إنني لست يتيماً ولا لقيطاً ولا أعرف شيئاً عن والدي، أم أختصر الحديث كما فعل أحمد وأخبرهم بالأهم وهو عملي ومقر إقامتي. لذا، قررت أن أقول إنني يتيم الأبوين وقد عشت حياتي مع قريب لنا لم يتزوج فأصبح كالأب لي، أعمل كاتب حسابات في شركة في الطائف. لم يسأل أحد عن أسرتي، ولكن كانت هنالك إشارات عن الزواج. كان تعليقي قاسياً وصارماً: "لا زلت أكوّن نفسي، ولست مستعجلاً على الزواج".

انتهت السهرة وعدنا إلى الفندق منتشين بلقاء جميل. شكرْنا سيد على استضافته، وغادر وهو يقول: "سأبحث لكما عن برنامج جديد ليوم غدٍ". قررنا أنا وأحمد أن نحتفظ بمبلغ جيد نقدمه هدية إلى سيد عند مغادرتنا مصر.

***

الوقت كالسيف، هل تساعد التقنية الحديثة على قطعه؟ لك أن تتصوّر مقدار الوقت الذي تقضيه في تصفّح صحيفة، والوقت الذي تستغرقه في تصفح عدد من الصحف عبر الشبكة العنكبوتية. قد يكون تصفح النسخة الورقية من الصحيفة ممتعاً لقراءة الأخبار والمقالات المختلفة، إضافة إلى الاطلاع على الإعلانات التجارية المختلفة، ولكن في أوقات كثيرة لا تحتاج كل هذا، فتتجه إلى جهاز الحاسب لتبحث عن معلومة أو تتابع خبراً، إضافة إلى الاطلاع على ما يرسل إليك عبر البريد الإلكتروني. شيء جميل أن يكون عبر بريدك خلاصة صحيفة تكون نافذة لمعرفة ما يحدث في العالم، وهنا تكون أهمية القوائم البريدية. لك أن تتصور الوقت الذي تمضيه جالساً أمام جهاز الحاسب الآلي، أنت تبحث عن وقت تستفيد منه، وكما قلنا: الوقت كالسيف. أنت لست مطالباً أن تقرأ كل شيء وتتابع كل شيء، أنت مطالب أن تملأ وقتك بما يفيدك، فكرْ كثيراً وحددْ ماذا تريد. لك أن تنتقل من موقع إلى آخر إذا لم تجد بغيتك.

أنت تمارس متعة التصفح والإبحار عبر المواقع المختلفة التي تتيحها الشبكة العنكبوتية، ولكن يجب أن تفكر في مشروعك الأهم وهو رصد سيرتك.

أعتقد أنك نسيت قليلاً ذلك الرجل الذي اتصل بك وقال إنني أعرفك، هذا أفضل، لأن التفكير في أشياء غيبية قد تعوقك عن الكتابة.

١٣

أحضر مسعود حقيبة "سامسونايت" بأرقام ليضع فيها أوراقه الرسمية من صكوك وفواتير، واختار لها رقماً خاصاً، واستعد للذهاب إلى الطائف. سائقه الخاص القادم من جنوب شرق آسيا يستعدّ للحجّ مع زوجته. لذا، طلب منه أن يبحث عن بديل، فدلّه السائق على قريب له ليكون مكانه خلال الحج. جرّب مسعود السائق البديل، وكانت تجربته جيدة، وطلب منه أن يذهب به إلى الطائف عبر طريق الهدا، توقّع سائقه أن رحلته لتغيير الجو، فشهر أغسطس حار في مكة، والطائف تتمتع بجو لطيف ممطر. هو يعلم أن منير في مصر. لذا، وصى قريبه أن يهتم بذلك الرجل الكبير ويحرص على خدمته.

لم يخبر مسعود أحداً بمشروع حصر ثروته، وكتابة وصية بثلث ماله لمنير، وتهيئة بعض الأموال لتوزيعها على بعض الجمعيات الخيرية، ووقف عمارة مكة. لا أحد يعرف ذلك، حتى الأصدقاء الذين يثق بهم، وبالطبع، ولا منير، ولا السائق الخاص به، وبكل تأكيد ولا أقاربه الذين لو عرفوا ذلك، لتقدموا بالحجر عليه، ولاسيما أن ثروة مسعود تجاوزت الملايين، إذ كان خوفهم أن تنتقل تلك الملايين إلى ذلك اللقيط.

كان اتصال منير في مساء اليوم الأول من سفره مع صديقه، وقد اطمأن إليه. لذا، طلب من السائق البديل أن يستعدّ للذهاب إلى الطائف بعد صلاة فجر اليوم الثاني.

حمل مسعود حقيبة فيها ملابس بسيطة إضافة إلى حقيبته التي تحتوي على أوراقه الرسمية، وطلب من السائق البديل أن يحضر معه بعض الملابس لأن الإقامة في الطائف ستطول قليلاً.

اتجهت السيارة عبر طريق الهدا الجبلي. كانت أول مرة يغادر فيها ذلك السائق البديل مكة. لم يخبر مسعود بذلك، ولم يعرف مسعود أن هذا الرجل سيقوده إلى نهاية مريعة. يسير السائق بهدوء في أقصى اليمين، وينظر إلى جانب الطريق فيرى هاوية مخيفة. يشعر بدوار فيتمالك نفسه قليلاً. لا يوجد مكان للوقوف، والطريق ذو اتجاهين، والسيارات تريد أن يبتعد عن طريقها. يحرص على أن يكون أقصى اليمين.

لم يشعر مسعود بوضع السائق، فقد كانت النافذة مفتوحة وبرودة الهواء جعلته يشعر بشيء من الخدر لينام. السائق البديل يبحث عمن يساعده في مأزق ذلك الطريق المتعرج كأفعى. تمنى لو كان مكان مسعود فيغمض عينيه حتى يصل إلى قمة الجبل، لكن هذا عمله وهو ملزم أن يقود هذه السيارة إلى الطائف. انعطافات الطريق تزداد، هل يتجه إلى اليمين أم اليسار، يفكر أن يتوقّف لكي يستنشق الهواء قليلاً، ويغسل وجهه بالماء الذي معه. لا يوجد موقف مهيأ في منتصف الطريق، يلف يميناً شمالاً، يلتف حول الجبل عبر الطريق المتعرج. يهدأ باحثاً عن مساحة للوقوف. يلتزم أقصى اليمين فيجد مساحة ترابية متاحة يتجه إليها لتقوده إلى الهاوية.

لم ينتبه مسعود إلى كل ما حدث. غفوته تلك تحوّلت إلى غيبوبة. لا يدري متى يفيق منها. السائق البديل مات في موقع الحادث، ومسعود نقل مباشرة إلى مستشفى الهدا.

سائق مسعود الأصلي علم بموت قريبه بالحادث، واتصل بأقرباء مسعود الذين حضروا مباشرة إلى الطائف ليتابعوا حالة مسعود الصحية: كسور في غالبية الجسم وضربة قوية في الرأس تجعل أمر إفاقته صعباً.

علموا بسفر منير إلى القاهرة، وحمّله بعضهم سبب ما أصاب مسعود، إذ كان الأولى أن يلغي سفره ويقوم على خدمته حتى يعود السائق الأصلي من الحج. قرروا إبعاد منير عن مسعود، فغيروا أقفال أبواب بيت الطائف، وكسروا قفل حقيبة الأوراق ليفتحوها وليجمعوا كل أوراق مسعود، ومن ضمنها صك ملكية منير للأرض، ويضعوا بقية الأوراق الخاصة بمنير في غرفته.

لم يحلم أبداً أقرباء مسعود أن تأتيهم فرصة مثل هذه: منير مسافر، وقريبهم في غيبوبة، وثروته الطائلة ستعود إليهم جميعها، ولن ينال ذلك اللقيط شيئاً. تكفي السنوات التي قضاها عند مسعود، لقد أشرف على تعليمه ورعايته، وهيأ له وظيفة. لولاه، لبقي رقماً ضمن بيوت الأيتام واللقطاء.

التحقيقات في الحادث حمّلت السائق الخطأ الكامل، وهذا السائق ليس تحت كفالة صاحب السيارة، وصاحب السيارة يتحمّل دية ذلك السائق الذي مات مباشرة، ولكن صاحب السيارة في غيبوبة، وليس له أبناء أو زوجة، والابن بالتبني ليس بابنٍ. لذا، كان البحث عن الأخ وابن الأخ، وهذا ما جعل كثيراً من الأمور معلقةً حتى يُعرف مصير ذلك الرجل المسكين الذي فقد الوعي وهو مقبل على عمل خير لا يعلمه إلا الله.

***

اشتقت كثيراً لأبي مسعود، ولكن هي أيام قليلة وأعود إلى مكة والطائف. بحثت

عن الأشياء التي يحبها. اشتريت له حامل مصحف، وبعض الملابس القطنية الداخلية. لم أفكر أن أختار شيئاً لأحد عداه، حتى السائق وزوجته. استثنيت بعض القطنيات النسائية لأمي مريم، وقطعة قماش صوفي لأبي جابر أبو دحيّم.

بدأنا نعتاد أجواء القاهرة. تخلصنا من البدل الرسمية التي كنا نلبسها، على جهل، لتكون ملابسنا بسيطة ومناسبة: غالباً بنطلون جينز وقميص ملون، وغالباً لون واحد وهادئ.

تعرّف أحمد إلى أكثر من امرأة، وقرر أن يقترن بواحدة، لكنه تراجع عندما علم أنها سبق أن تزوجت أكثر من مرة. كان سيد صادقاً ومخلصاً معنا، كان يتمنّى لو اخترنا ابنته وأجّلنا الزواج حتى سنتين أو ثلاث سنوات. قلت له لن أجد أفضل منك، وهذا أراحه كثيراً.

ذات مساء أخبرنا سيد أننا مدعوون إلى سهرة ثقافية في بيت أديبة كبيرة بحضور نخبة من الشعراء، ومن المحتمل أن يكون من ضمنهم بعض المشاهير. تمنيت أن يكون هنالك أمل دنقل رغم معرفتي بظروفه الصحية، وقائمة من كتاب القصة والرواية، ولكن عموماً هنالك رجال ونساء. تمنينا لو أحضرنا بعض الإصدارات الأدبية لمبدعين سعوديين وسعوديات ووزعناها، ولكن بكل تأكيد سيكون حضور أحمد لافتاً، لأنه إذا أعجبته الجلسة، فسيلقي بعض القصائد التي يحفظها. أما أنا، فليست لديّ ملكة الحفظ، والخواطر التي أكتبها لا ترتقي لإلقائها في صالون أدبي داخل الطائف، فما بالكم في مكان يجتمع فيه أدباء وأديبات من مصر والوطن العربي كما علمنا!

لا أدري أهو حجاب أو زي نسائي خاص الذي تلبسه تلك الأديبة الكبيرة، أشبه بشرشف الصلاة الذي تلبسه بعض النساء، ولكن بأكمام وشكل أشبه بالبنطلون

بحزام ذهبي وسط الجسم. جهلي بالنساء وملابسهن يبدو جلياً عندما أرصد الأحداث أو أحاول تذكّرها. عموماً رحبت بنا وأجلستنا في صدر مجلس كبير أثاثه يتسم بالفخامة والرقي.

اتّضح لي أن سيد ليس لديه الخبرة الكافية بتلك الصالونات الثقافية. لذا، ليس غريباً أن نكون أول من حضر إلى ذلك الصالون. أهدت الأديبة الكبيرة وسيدة الصالون كل واحد منا نسخة من ديوانها **أعراس الليل**. شكرناها على الإهداء، واعتذر سيد إذا كان قد استعجل بالحضور، ولكي يخرج من هذا المأزق، قال: "حماسة هذين الأديبين الشابين دفعتني أن أحضر باكراً".

قالت: "بالعكس، وقتكم مناسب لكي أتعرف عليكم أكثر". تحدث أحمد عن تجربته في كتابة شعر التفعيلة، وتحدثت عن القصة وبعض تجارب الرواية. كان الحديث سريعاً ومقتضباً لأن الأديبة لم تكن مستقرة. عرفت أن اسمها ناهد علي، لكن لا أتذكر أبداً هذا الاسم، فكيف تكون كبيرة؟ عموماً تستحق أن تكون كبيرة لثقافتها التي اتضحت في نقاشات السهرة، وعلاقاتها الجيدة مع الجميع. بعد انتهاء جدلنا حول الثقافة في السعودية، والتعريف بنفسينا، بدأ ضيوف الصالون يتوافدون، حتى بلغوا خمسة عشر رجلاً وامرأة، وكانت الأكثرية من النساء. كانت هنالك أكثر من عاملة منزلية يخدمن الضيوف بتقديم الشاي والقهوة والعصير، وبعض الحلوى والموالح، وتغيير طفّايات السجائر عند امتلائها.

ثلاث نساء لفتنَ انتباهي ورجل: المرأة الأولى كانت تلبس بدلة جينز وتضع الشماغ الفلسطيني حول رقبتها، وكانت تدخّن بشراهة، توقعت أنها فلسطينية، ولكن من حديثها عرفت أنها من مصر. ألقت قصيدة لأحمد فؤاد نجم عن جيفارا:

جيفارا مات، جيفارا مات

آخر خبر في الراديوهات
وفي الكنايس والجوامع
وفي الحواري والشوارع
وع القهاوي وع البارات
جيفارا مات، جيفارا مات
واتمد حبل الدردشة والتعليقات

تناول أحد الضيوف عوداً كان يحمله معه، وبدأ يغني تلك القصيدة مقلداً الشيخ إمام، وغنى الجميع معه. لاحظت أن سيد غير مرتاح إلى تلك القصيدة، وتوقعت أن يغيّر مسار احتفاء الصالون بنجم وإمام إلى أمر آخر. لذا، سمعته يقول: "يا جماعة لدينا ضيوف من السعودية، مسافرين بعد يومين، فرصة أن نسمع منهما بعض إبداعاتهما". اتجهت الأنظار إلينا، فقلت مباشرة: "أنا لدي محاولات بالقصة وأكتب بعض الخواطر، ربما لا تناسب مقامكم"، ليعقب أحمد مباشرة على كلامي قائلاً: "منير لديه نصوص جميلة، قرأتها لكن مع الأسف لم يحضرها، وأنا لدي قصائد". حينئذ بدأ إلقاء بعض القصائد تباعاً وقد نالت إعجاب الجميع.

ممن لفت انتباهي البروفيسور وطالبته، أستاذ الدراسات التاريخية في الجامعة الذي أحبَّ طالبته الباحثة في مرحلة الماجستير ليتزوّجها، تحدّث قائلاً: "لقد أعجبني ذكاء نسرين الخارق وحرصها على البحث والدراسة منذ أول يوم بدأت الإشراف على رسالتها في الماجستير".

ربع قرن فارق العمر بينهما، جميلة هي، جمال غريب آسر، عندما قدمت مع البروفيسور توقعت أنها ابنته، الجميع يناديه بالبروفيسور، وقلت: أنا لست باحثاً، ولكن محب للقراءة والثقافة، ربما يقتنع بي ويزوجني ابنته. منحته كثيراً من

التقدير والاحترام، جلسا على مقعد عريض قريب من مقاعدنا التي تتصدر المجلس، وكانت تلك الفتاة بجانبه تبتسم، لا تتحدث كثيراً، مبهجة؛ لكم أن تتخيلوا أن تكون امرأة جميلة تجلس بالقرب منكم. أحمد كان يحفظ مجموعة قصائد غزل، شعرت أنه يلقي رسائل مبطنة موجهة إليها. تذكرت قول بايرون: ''لو كان للنساء ثغر واحد، إذن لقبلته واسترحت''. شعرت أن هذه المرأة هي خلاصة نساء الأرض، ربما لأنها أول امرأة جميلة وفق مقاييسي الخاصة، أقابلها وجهاً لوجه، يا، أنا أرض مجدبة، ولكن حقيقة هي جميلة، أحتاجها كثيراً، أحتاج امرأة تضيء لي ظلمة سيرتي التعيسة. لن تسأل عن أصلي، تريد شخصاً يحبها، وأنا قد أكون ذلك الشخص. ''لنبارك للعروسين، مبروك بروفيسور، مبروك نسرين!''، كأن الأديبة الكبيرة قالت لي: ''اصحَ يا رجل، المرأة متزوجة''. تذكرت حديث أحمد وهو يعلق على زواج البروفيسور بالباحثة نسرين عندما غادرنا الصالون: ''هههه، يقول أعجبني ذكاؤها وبحثها، لو كنت مكانه لأعطيتها درجة الدكتوراه دون بحث''.

المرأة الثالثة في الصالون التي لفتت انتباهي، بل أكثر من ذلك، لم ترفع عينيها عني منذ عرفت الأديبة ناهد بنا وبها عند حضورها الصالون هي أكبر مني، ربما في العقد الرابع أو أوائل العقد الخامس من عمرها. اقتربت وجلست بالقرب مني، وسألتني: ''أكنت مقيماً في المنصورة؟''، أجبتها بالنفي، لتسأل: ''أليس لك أقارب، إخوة أو أخوات هنا، خاصة في المنصورة؟''، أجبت أيضاً بالنفي، فقالت: ''سبحان الله، يخلق من الشبه أربعين''، ليتدخل أحمد قائلاً: ''كنت أقول لا يوجد أحد يشبه منير، وها أنت تقولين هنالك من يشبهه!''.

أنستني ملاحظة تلك المرأة جمال نسرين زوجة البروفيسور، والصالون أجمع. لا أدري ماذا أقول أو أعلق، لكن أحمد واصل حديثه قائلاً: ”أنا أتمنى أن أشاهد شبيه منير، هل تساعديني على ذلك؟!“، لتقول تلك المرأة: ”منذ أشهر لم أذهب للمنصورة، ولكن ربما بعد أسبوعين، أما ذلك الشبيه، فشاهدته قبل سنة أو سنتين“، ليطلب منها أحمد عنوانها ورقم الهاتف ليتواصل معها، وأعطاها رقم هاتفه مع العنوان. كانت مستغربة من ذلك ليقول لها: ”عندما نقابل ذلك الشبيه، سوف أخبرك“.

عندما علمت أننا سنغادر في غضون أيام، قالت: ”حين أذهب إلى المنصورة سأبحث عنه وأرسل صورته أو أعطيكم عنوانه ورقم الهاتف للتحدث معه، لكن بالمناسبة هو أصغر من الأستاذ منير“.

سيد لا يعرف قصتي وظروفي الخاصة، وهذا أراحني كثيراً، لكن إلحاحه لمعرفة سبب ذلك الشبيه جعل أحمد يقول: ”يقال أن والد منير سافر إلى مصر منذ سنوات طويلة قبل موته، وبقي مدة... ربما تزوّج هناك، وذلك الشبيه لمنير ربما يكون أخاً له“.

شكرت أحمد من أعماقي، وقررت أن أخبر والدي مسعود بالحادثة. ربما يكون أبي وأمي هنا في مصر في المنصورة. ”لو تحقق ذلك، سأسعى إلى استخراج جواز سفر له، ونذهب إلى مصر بالطائرة أو الباخرة أو السيارة، ليختر ما يريد، اشتقت كثيراً للرجل الذي أحبه كثيراً، والدي مسعود“، قلت ذلك لأحمد ونحن نستعد للنوم بعد يوم حافل في القاهرة.

***

تشعر بالراحة. ساعات طويلة قضيتَها وأنت تكتب، أوراق اطلعت عليها، وأوراق أخرى مزقتها. أنت هنا في هذه الشقة الصغيرة في مدينة الرياض تبحر عبر الزمن. أمواج تقاذفتك يمنة ويسرة، مركبك واهٍ، وشراعه يكاد أن يتمزّق، وأنت البحار المحترف الذي أحرقت جسده الشمس. ماذا تكتب بعد ذلك، هل لحكايتك نهاية؟ في مصر، قالت امرأة هنالك من يشبهك، والرجل الذي اتصل على هاتفك المحمول أوحى أن عائلتك موجودة، وأنت رجل جاوز الخمسين لم يتخلص من وشاح اللقيط! هل ثمة حكاية موازية لحكايتك، هل تتخيّل قصة عائلة فقدوا ابنهم، وبحثوا عنه، ولم يجدوه إلا بعد زمن طويل؟ هل سيكون للقاء بعد عدة سنوات متعة؟ هل سيستمتع من يحصل على ثروة كبيرة آخر عمره وهو مصاب بأمراض تمنعه الأكل والحركة؟ ما فائدة أن يكون لك أهل بعد كل ذلك الزمن.

أنت مملوء بمشاعر طفولية، ترضيك لعبة صغيرة تفرح بها وتنسى كل الآلام. لقد أخبرك ذلك الرجل أنه سيسافر لعدة أيام ثم سيتصل بك بعد عودته. ربما لن يأتي، ولكنه قال إنه يعرف كل شيء عنك؛ هي فرصة لتواصل الكتابة، وبعد أن تنتهي وتصل إلى وصف اليوم الذي غادرت فيه مكتبك مستقيلاً، تعطيه تلك الأوراق. قد يضيف شيئاً. احتفظ بنسخة من السيرة في حاسبك الشخصي، ونسخة ورقية، قد يحذف، فتعرف ما الذي حذفه، لكنه ليس أدرى منك بحياتك وبمشاعرك.

صديقك أحمد يقول: "حين تعرفتُ إلى منير خفت أن يكون من الأشخاص الذين يكتنفهم الغموض، وأنا لا أحب ذلك أبداً، ولكنه بدأ يكشف صفحاته تباعاً، أصبح كتاباً قرأته من الغلاف إلى الغلاف، طيبته وهدوؤه ووضوحه كانت سبباً

كي ترتاح له عائلتي، وخاصة والدي، أصبح صديقاً خاصاً لي، وبعث داخلي الثقة لكي أطلع الآخرين على ما أكتبه من شعر".

لم يكن صديقك أحمد بحاجة إليك بقدر ما أنت محتاج إليه. هل حياتك سباق تتابع، لكي يسلم مسعود العلم لأحمد ليواصل السباق؟ حياتك هي مسافة السباق، أنت تجري، ربما، ولكن بكل تأكيد أنت تتعب وتلهث وتأمل أن تصل إلى خط النهاية.

ثلاثة أيام لم تغادر شقتك. تأكل وتشرب وتنام بصورة متقطعة، ولكن الوقت الأكبر خصص لنبش كثير من الأوراق وتلخيص بعضها، والكتابة. تكتب وتكتب، وها أنت تغادر الآن شقتك قبل غروب الشمس لتحضر ما ينقصك من شراب وطعام. يقابلك رجل عرفت أنه أحد جيرانك، يقول لك: "مرحباً أستاذ! لك عدة أيام لم نرك! وسيارتك لم تتحرك من مكانها، آمل أن تكون بخير". تشكره على اهتمامه وتقول له: "أنا بخير".

تتأكد أنك لم تنسَ هاتفك المحمول، تركب سيارتك متجهاً إلى مركز للتسوق، تشتاق لسماع أغنية، تشغل راديو السيارة لتسمع أبو بكر سالم وهو يغني:

عادك إلا صغير، عادك إلا صغير
بدري عليك الهوى ذا جرح ما له دوى
يهد قلب الكبير وايش عاد قلبك

١٤

عقاب، والد مسعود، أنجب خمسة أبناء، وثلاث بنات، أكبرهم مات حزناً على ولده الذي سبق أن زار بيت مسعود ومزّق الصور ليشارك بعد ذلك في أحداث الحرم المكي الشريف. لم يكن ضمن قائمة من نفّذ بهم القصاص، ولكن وصله علم بأنه مات، ربما متأثراً بجراحه. ذلك الرجل كان له تأثير كبير في أسرته لأنه أكبر أحفاد عقاب، ولمحاولته إقناع إخوته وأبناء عمومته بفكره ومبادئه. في ذلك الوقت، بعد عودته إلى أسرته، وبعد تمزيق كتب وصور منير، وصف منير بأنه أقرب إلى الكفر والإلحاد، واصفاً ما تشتمله غرفته من صور لدعاة الضلال، وكتب التغريبيين والشيوعيين، طالباً من والده وأعمامه أن يستلّوا عمهم مسعود قبل أن يصيبه شيء من نجاسة ذلك المدعو منير.

صورة سوداء عن منير بقيت في مخيلة كل أسرة مسعود الذي لم يستطع وهو الابن الثاني لعقاب أن يغيّر تلك الصورة لدى أسرته، وخاصة إخوته عوض وفالح ومهدي، أثناء زياراته إليهم أو زياراتهم إليه، التي تكررت في السنوات الأخيرة.

الإخوة الثلاثة الآن في الطائف، وتحديداً في بيت مسعود، برفقة أختين من الثلاث، ومسعود في مستشفى الهدا في قسم العناية الفائقة، لا يعلم أن النساء دخلن بيته، ولو كن شقيقاته، ولا يعلم أن ذلك يعني منع منير أن يدخل ذلك البيت.

الخمسة حزينون على أخيهم، يدعون أن يحسن الله خاتمته، ولكنهم يخافون أن يفيق، وهذا ما يستبعده الأطباء. فإذا عاد له وعيه، فسيكون أول طلب له هو رؤية منير.

الأعمار بيد الله، ولكن لتكن هدنة حتى يأتي أمر الله، حين يحضر منير لن يكون له مكان في البيت، هو الآن رجل كبير، ويستطيع إعالة نفسه، لا بد أن لديه أصدقاء، سيساعدونه، أما أسرة مسعود، فهو غريب عنهم، لقد انتهت علاقته بهم منذ زمن طويل حين أصبح قادراً على إعالة نفسه، وها هو الآن يمتع نفسه في الخارج، لا يهمه أنه أبقى الرجل وحيداً، وهو الذي بحاجته كل لحظة، كان من الأولى أن يردّ إليه الجميل؛ ذلك الكلام دار بين الأشقاء الخمسة، الأختان لا تتذكران ملامح منير، إحداهن رأته عندما كان طفلاً في زيارة لها مع زوجها إلى الطائف. أما عوض، فتكررت رؤيته له، بسبب مجيئه إلى مكة والطائف المتكرر، ولكن لم يتعاطف معه أبداً، أما فالح ومهدي، فقد أوقد ابن أخيهم شعلة كراهيته داخلهم، وازدادت بعد موت أخيهم وابنه.

كل واحد منهم اتّشح بعباءة الدين، ولكن ليس دين مسعود المتسامح، الوسطي، بل دين يرتبط بمصلحتهم، وأهم مصلحة لديهم أن ينعموا بثروات أخيهم الغائب عن الوعي. وعيهم مختلف جداً، وعي يجعلهم يصدرون أحكاماً بمجرد الشك، لماذا يذهب ذلك الرجل إلى مصر في وقت يتجه جميع المسلمين إلى مكة؟ بحثاً عن علم! وهل هنالك علم في الإجازات والأعياد أم لهو ومجون؟ ها هي غرفته زاخرة بصور رجال بملابس الكفار ونساء كاسيات عاريات وآلات اللهو والطرب، كيف رضي مسعود بذلك؟

كان قرار الأشقاء الخمسة تغيير كوالين الأبواب، ومنعه من الدخول، وإبعاده قدر المستطاع عن أخيهم مسعود، فهو ليس ابناً له، ولا لهم.

***

ها هي عتبة البيت تستقبلني، أقف أمام باب البيت محاولاً فتحه، معي حقائبي وكلي شوق لمقابلة والدي مسعود. هذه مفاتيحي وهذا هو الباب. أجرب كل المفاتيح التي معي، ولكن أنا أعرف مفتاح الباب، وهذا هو البيت، ما الذي حدث؟ هل حاول أحد أن يسرق البيت فاستبدل والدي مسعود القفل؟ ربما! لا بدّ أن أنتظر قليلاً، ربما هو ذاهب إلى مشوار ما وسيعود.

وصلنا، أنا وأحمد، مطار جدة بعد العاشرة صباحاً، استقبلنا إخوة أحمد، توجهنا إلى الطائف، نزلت هنا وودعتهم مباشرة، الآن منتصف النهار والشمس حارقة، ربما أبي ذاهب إلى عزيمة غداء لدى أحد أصدقائه، سيأتي حتماً بعد قليل. هو يعرف موعد قدومي إلى جدة، ويعلم أنني سآتي إلى الطائف مع أحمد. اشتقت له كثيراً، طرقت الباب بهدوء، لا أحد يجيب، هذه أول مرة أقف فيها عند الباب، ألبس بنطلوناً وقميصاً، أخجل من لبسي هذا خاصة عند بعض الجيران الذين اعتادوا أن يروني بالثوب والشماغ أو الغترة.

سيحضره السائق بعد قليل فور أن ينتهي من تناول الطعام، أنا لا أملّ من الجلوس على العتبات، ولكن هذه المرة الأمر مختلف، أريد أن أكون داخل البيت، أريد أن أرتاح قليلاً من تعب السفر. لم أنمْ أبداً مساء أمس خوفاً من أن يفوت موعد الرحلة، على عكس أحمد، الذي كان يتمنى لو طال وقت بقائه في مصر. لا أريد أن يرى أحد الحقائب التي أحضرتها، إحداها امتلأت بالكتب والثانية احتوت على ملابسي وبعض الهدايا. سيفرح أبي مسعود بحامل المصحف، سيسألني عن رحلتي، سأخبره بغالبية الأشياء: زياراتنا إلى المعالم السياحية... والزحام. وبكل تأكيد، سأخبره عن المرأة التي قالت إنه يوجد رجل

يشبهني، هل سيفرح أو يخاف أن يفقدني؟ أنا أستبعد أن يكون فعلاً يشبهني. لقد تركت الأمر لأحمد، سيتواصل مع تلك المرأة ويخبرني.

يا إلهي! ها هو أذان العصر ووالدي مسعود لم يحضر بعد، ربما هو نائم، ولكن لا أرى السيارة عند البيت. أطرق الباب بقوة، فأسمع صوتاً نسائياً يقول: ''مين؟''، أجيب وأنا غير مصدق: ''أنا منير''. فيرد عليّ الصوت: ''لا يوجد رجال الآن''.

هذا البيت لم تدخله امرأة منذ سكنه مسعود، أكثر من عشرين سنة، ''أهذه هي الجنية التي تحدّث عنها تلاميذ المدرسة ولم تعلم بقدومي''، أكرر الطرق وأقول: ''أنا منير، أريد أن أقابل والدي مسعود''. يرد عليّ الصوت مرة أخرى: ''لا يوجد رجال. ارجع بعد صلاة العصر''.

لم أنم منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة، وأقف على عتبة الدار تحت الشمس المحرقة، هل بدأت أتخيل أموراً غريبة؟ عشرون يوماً غبتها عن هذا البيت، ليست بالزمن الطويل، مستحيل أن يتزوّج والدي ويحضر امرأة إلى البيت، وزوجة السائق تعرفني، فلو كانت هي، لفتحت الباب، ومستحيل أن يؤجر هذا البيت دون أن يخبرني ويبحث لي عن سكن بديل.

أين أنت يا أبي؟ بدأت أخاف عليك قبل أن أخاف على نفسي، مع كل دقيقة تمر أزداد إرهاقاً.

ها هي سيارة عائلية كبيرة تقف عند الباب، موقف سيارتي التي بعتها قبل سفري لأستبدلها بواحدة جديدة، وموقف سيارة والدي مسعود عند حضوره من مكة، ينزل منها ثلاثة رجال، لقد عرفتهم: إنهم إخوة مسعود.

***

حادث مسعود جعل الإخوة يتفرّغون للبقاء بجانب أخيهم، عوض وفالح لديهم أعمالهم التجارية الخاصة، ويديرها حالياً أبناؤهما، ومهدي أخذ إجازة من عمله ربطها بإجازة الحج، وأرسل خطاباً عبر الفاكس بتمديدها لمدة شهر بعد إجازة الحج.

حين وصلوا إلى البيت شاهدوا رجلاً يلبس لبساً إفرنجياً عند الباب ومعه حقائب، قال عوض مباشرة: ''لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا منير، الله يعيننا عليه''. وطلب من أخويه الهدوء في التحدث معه ليختم حديثه: ''الرجّال ما مات''.

شعر منير أن الأرض دارت به عندما شاهد الإخوة الثلاثة دون مسعود، كاد أن يسقط من على درجتي الدكة التي كانت لجلوس والده، اتجه إليهم وهو يصرخ: ''أين أبي مسعود؟!''.

- صلِّ على النبي واهدا، بخير، بخير، إن شاء الله.
- أنا لا أراه معكم هل هو في مكة؟
- سلّم أول، قل السلام عليكم.
- عذراً، تعرفون مدى حبي وخوفي على أبي مسعود.

فتح مهدي الباب بمفتاح معه، وطلبوا من منير أن يضع حقائبه في الممر، وتوجهوا إلى مجلس الرجال. كان قلب منير يخفق بقوه، أحضر مهدي كوب ماء، وبعد أن شرب منير الماء وهدأ قليلاً، قال له عوض: ''أخونا مسعود بإذن الله بخير، أنت الآن متعب، أكثر من مرة كدت تسقط، هذا فراش، نام الآن، وعندما تستيقظ، يكون خير''.

أجابهم منير وتعبه يزداد: ''هل أبي مريض، أهو في المستشفى؟!''.

أراد فالح أن يتحدّث ولكن سبقه عوض بقوله: "أجل هو الآن في المستشفى، لا يصلح أن تذهب له الآن وأنت بهذه الحالة".

الإخوة الثلاث ونساؤهم أو أخواتهم. ليس الأمر بسيطاً؛ هذا جعل منير يدخل في نوبة بكاء ويصرّ على الذهاب لرؤيته، ليخبره فالح أن الزيارة بعد ثلاث ساعات، ويتدخل مهدي قائلاً: "إذا كنت تحب أخي مسعود، فقابله بصورة جيدة، حالتك الآن مزرية، هداك الله!".

لا يقدر أن يذهب إلى غرفته لينام، هذا مجلس الرجال، المكان الذي سينام فيه الآن ليس هو المكان الذي ألفه، ولا المكان الذي استقبل فيه مع مسعود ضيوفاً في أوقات مختلفة، ولا المكان الذي ازدان جداره بصورة الملك عبد العزيز التي حطمها ابن أولئك الرجال قبل سنوات، ولا المكان الذي يجلس فيه مع صديقه أحمد وبعض الأصدقاء يحتسون الشاي والقهوة، ويتحدثون عن قراءاتهم وما يحدث في العالم أجمع؛ هذا المكان تشوّه بحقائب وملابس وثياب معلقة، وبطانيات ولُحف، وروائح عشب وبخور.

إنه مقبل على أمر ما، ليتشبثْ بالأمل، ألم يقل السابق: "ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل"، سيرتاح قليلاً؛ سلطان النوم سيحميه من الجنون.

***

بعد أن كنت صاحب البيت أصبحت اليوم ضيفاً، هم إخوته، وهن أخواته، وأنا ابنه بالتبني، ابن لا يرث، ولا يحمل اسم ذلك الأب، ابن المصادفة، ابن الفراغ، هو اختار أن يكون اسم أبي عبد الله، ليس هنالك ما يثبت أن اسم والدي عبد الله. ولكن رغم صغر سني حين انتشلني من النيران، وبشهادة بعض أطفال تلك المرأة التي

بقيت عندها ليلة واحدة، كنت أعرف وكانوا يعرفون أن اسمي منير. سنوات تجاوزت العشرين كنت داخل الإطار مع هذا الرجل الذي اختارني ابناً، لم أفكر أنني في يوم ما سأكون خارج الإطار، ستختفي كل صوري القديمة التي تجمعني بذلك الرجل، سأجد نفسي عائداً إلى الفراغ. هل انكسر الإطار؟ ألم يعد لي أب؟ ولكن هم يقولون إنه في المستشفى، أنا لم ألاحظ أي علامة للحزن، بل هنالك كثير من الخوف، هل هو خوف عليه، أم خوف منه؟ لم يترك أسرته ولم يقاطعهم، ولكن كانت له حياته الخاصة التي ارتبطت فجأة بي، لو لم أخلق، لبقيت حياته خاصة بعيدة عنهم أيضاً، هو مختلف، كما أنني مختلف، هو وحيد مبتعد عن عائلته، وأنا وحيد ولكن لا عائلة لي. أحاول النوم، أشعر بالدوار، أسمع أصوات الرجال والنساء يتحدّثون بعيداً عني، صوتهم يصلني ولكن لا أعيه، أنا وحيد في ذلك المجلس، أشعر أنهم اجتمعوا في غرفة الضيوف. ثمة أمر لا أعرفه، أنا الآن مرهق جداً. إذا لم أستسلم للنوم، فسأزداد تعباً.

***

بخبرته ودرايته بالحياة، كان عوض يعلم أن ما يحدث لمنير ليس بالأمر السهل، هو يعرف من داخله أن ابن أخيه بالتبني ضعيف ولن يقدر على مواجهتهم، ومن الأفضل ألّا يصدم بخبر الحادث الذي أصاب مسعود مباشرة، هي خطوات: الخطوة الأولى كانت استقباله، وبقيت الخطوة الثانية وهي الأهم: توصيل خبر الحادث ودخول مسعود غيبوبة لن يفيق منها وفق قول الأطباء، والخطوة التي قد تكون الأخيرة هي الطلب من منير الابتعاد عن الأسرة وعن مسعود بسبب رغبة كل إخوته وأخواته، وسيتاح له زيارة مسعود لاحقاً، فإذا قدّر الله وعاد إليه وعيه،

فالقرار بيده، وأما إذا التحق بالرفيق الأعلى، فسيدفن تحت الثرى، ويبقى لمنير حق زيارة قبره فقط.

دار جدل بين الأشقاء الخمسة، أبناء وبنات عقاب، حول التعامل مع منير ووجوده داخل البيت، كان موعد الزيارة في السابعة مساء، فكان الاتفاق أن يذهب عوض مع منير ويقود السيارة مهدي، ويبقى فالح مع أختيه، مع اشتراط ألّا يتدخل مهدي في النقاش والحديث الذي سيدور بين عوض ومنير.

كانت إغماءة وليست نوماً، إغماءة تعب، أفاق منير بعد قرابة الساعتين، شعر أنه وحيد في المجلس. نادى بصوته الواهي: "يا عم عوض"، جاء فالح بهدوء، وسأله: "هل ارتحت؟"، فأجاب: "الحمد لله! متى نذهب إلى أبي مسعود؟"، ليجيب: "بقي ساعة على موعد الزيارة، ولكن سيأتي عوض الآن وتذهب معه، بالمناسبة أليس لديك سيارة؟"، ليجيبه منير: "بعتها قبل سفري".

أحضر مهدي دلّة قهوة وإبريق شاي، وجلس في مساحة متاحة في المجلس قائلاً: "قبل المغادرة اشرب قليلاً من القهوة والشاي، وتناول بضع حبات من التمر". لمح الدلة والإبريق. لو كان الجماد يملك إحساساً لتوجهت الدلة والإبريق إليه ليقولا: افتقدناك، أين أنت؟ هل القهوة هي نفسها؟ وهل الشاي هو نفسه؟ هل تغيّر المذاق؟ كل شيء بلا طعم، وثمة غصة بالحلق، يريد أن يصرخ ويبكي، ولكن هدوء الإخوة يجعله يهدأ قليلاً. لا تبدو عليهم سمات الحزن. سيذهب إلى المستشفى، وسيطلب منهم السماح له بالمبيت بقرب مسعود. لن يتركه ثانية واحدة حتى يغادر المستشفى ويعود إلى هذا البيت الذي أصبح غريباً عليه.

ركب عوض في المقعد الأمامي لسيارة مهدي "الجمس العائلية". بدّل منير ملابسه ولبس ثوباً وشماغاً وجلس في المقعد الخلفي وتوجهوا إلى مستشفى الهدا.

أغلق مهدي نوافذ السيارة الزجاجية وأدار مكيف السيارة ليلتفت عوض إلى منير ويبدأ بالحديث معه قائلاً:

أنت مؤمن بالله، أعرف تربية أخي مسعود، لذا عليك أن تؤمن بقضاء الله وقدره. قدّر الله على أخي مسعود حادثاً في طريق الهدا بعد سفرك بيوم كما علمنا، كان برفقة سائق بديل، وسائقه جزاه الله خيراً أخبرنا مباشرة، بعد الحادث. السائق الذي كان مع أخي مسعود مات مباشرة في موقع الحادث، وأخي أصيب بكسور في أغلب جسمه وضربة بالرأس أفقدته الوعي.

منذ بدأ عوض حديثه وقلب منير يخفق بشدة، أجهش بالبكاء عندما علم أن والده مسعود غائب عن الوعي، ليسأل: ماذا يقول الأطباء؟ فيجيبه عوض بهدوء: ''الأعمار بيد الله، ما لنا إلا الدعاء''. شعر منير بطول الطريق، يريد أن يسابق الزمن والمسافة، سيصل إلى سريره ويقول: ''أبي لقد عدت''. ربما يسمع ويفيق، بدأ يمشي مع عوض ومهدي متجهين إلى جناح الرعاية الفائقة. وصل، لمحه متّشحاً ببياض الأسرة مرتبطاً بأجهزة التنفس ورصد دقات القلب: أنابيب بلاستيكية رفيعة متصلة بيديه وأنفه وفمه، جسده من الأعلى شبه عارٍ تغطيه بعض الضمادات. كان مغمض العينين، اقترب منه منير وهو ينادي بصوته الواهي: ''أبي، حبيبي، اسمعني، أنا منير، ابنك''. اغرورقت عيناه بالدموع، قبّل جبينه، أراد أن يحتضنه، كانت قدماه ترتجفان، ''سامحني يا أبي!''، بحث عن كلمات أخرى يقولها. تبلل شماغه من الدموع، سال أنفه، ''افتح عينيك''. شعر بغصة تخنقه وهو يقول: ''أنا عدت''، غرق بالبكاء حين لم يتحرك جسم مسعود، فقال: ''لو كنت أعلم ما سيصيبك، ما تركتك دقيقة واحدة''. سحبته الممرضة قليلاً من

قرب السرير، وأمسك عوض بيده وقال له: "ماذا تستفيد من البكاء، أكثرْ من الدعاء أن يشفيه الله".

- سأبقى بقربه هنا.

- ممنوع وجود المرافقين.

- سأبقى في الممر، على الأرض، المهم أن أكون قريباً منه.

- اسمع، لست أقرب منّا إليه، ولست أحنّ منا عليه، نحن إخوته، ووكلنا أمرنا إلى الله.

- وأنا ابنه، عِشرة عمر طويل، لا حياة لي دونه.

ترك منير الأخوين واتجه إلى زاوية المتابعة للأطباء والممرضين، بحث عمن يتحدث باللغة العربية، ووجد طبيباً استقبله بهدوء: "هل هو والدك؟"، فأجاب منير: "نعمْ"، ليسأل مرة أخرى: "ألم يخبرك أعمامك؟"، ليسأل منير بدوره: "ماذا؟"، أجاب الطبيب بهدوء: "الأعمار بيد الله، ولكن والدك بحكم المتوفَّى، بمجرد إبعاد الأجهزة، تتوقف وظائف جسمه جميعها، فتصعد الروح إلى بارئها".

دارت الدنيا بمنير وسقط على الأرض، وجد نفسه عند إفاقته في غرفة على سرير أبيض وحوله عوض ومهدي وممرضة كانت تقيس الضغط، ولاحظ يده وقد اخترقتها إبرة عبر الوريد بواسطة أنبوب متصل بمغذٍّ ليمده بشيء من الطاقة. بعد قليل سمع الطبيب يتحدث: "جوع وإرهاق، سيبقى هنا إلى الغد، حالته جيدة الآن، ولكنني أفضّل بقاءه". فقال بصوت واهٍ: "لديّ طلب يا دكتور، أريد أن أكون بجانب أبي مسعود". أجابه الدكتور: "هو ليس بعيداً من هنا". ليقول منير: "أريد أن أراه، لا أريد أن يغيب عن عيني"، ليرد بالهدوء نفسه: "أتمنى ذلك، ولكن هذا ممنوع!".

"إذاً، سيبقى هنا لمدة يوم"، قال عوض ذلك متحدثاً إلى الطبيب، ليجيبه: "من الأفضل أن يبقى ابن أخيك حتى الغد، يبدو لي أنه كان مسافراً ولم تخبروه بهدوء".

غضب مهدي على أخيه عوض لأنه لم يخبر الطبيب أن منير ولد مسعود بالتبني، وأننا لسنا أعمامه، ولكن عوض أخبره أن الطبيب لا يعنيه ذلك.

شعر عوض أنه تجاوز الخطوة الثانية، وبقيت الأصعب، وهي إشعار منير أنه غير مرحب به لدى جميع أفراد أسرة مسعود.

***

ها أنت تبكي مرة أخرى وأنت تدوّن حادثة وداعك والدك مسعود. لقد أحببتَه كثيراً، تعرف أن إخوته واصلوا نهج ابنهم بتمزيق الصور، فمزقوا صورة كنتَ تحتفظ بها له، وعدة صور لك في مناسبات مختلفة. هنالك أحداث كثيرة تريد أن تتذكرها وترصدها، وأحداث أكثر تتمنى أن تنساها...

تبكي حين تتذكر مسعود وهو تحت الأجهزة الطبية لا حول له ولا قوة، وها أنت تبكي مرة أخرى على سنوات طويلة عشتها دونه. لديك كلام كثير عن ذلك اليوم الذي رأيته في المستشفى، ثم حين أخبرك ممرض بأن والدك أسلم الروح قبل أذان الفجر، كأنه كان ينتظر زيارتك، وها هي روحه تصعد إلى السماء وأنت قريب منه. غادرت سريرك بعد أن أزالوا أنبوب المغذي، وتوجهت إلى مكان والدك. كنت مفجوعاً مذهولاً مهيأً أن تصاب بالجنون. رأيت طاقم التمريض ينزعون الأسلاك والأنابيب عن جسد المرحوم ويهيئونه لنقله إلى ثلاجة الموتى. جلست بالقرب من سريره، نظرت إليه، لم يكن ينظر إليك، كانت عيناه شاخصتين

فأغلقهما ممرض. نظّفوه، ووضعوه على سرير متحرك، كنت تشعر بالبرد، وكانت جبال الهدا المحيطة بالمستشفى شاهد حزن. اتجهت إلى مصلى وأديت صلاة الفجر. جلست في مدخل المستشفى بانتظار إخوة مسعود لينفذوا إجراءات نقل جثمان والدك الطاهر ليغسّل ويكفّن في مغسلة الموتى، رأيت كيف كان وجهه مشعاً بعد تهيئته للدفن. قبّلت جبينه وفيه شيء من الحرارة في المستشفى قبل أن تغادره روحه الطاهرة، وقبلت جبينه وفيه كثير من البرودة قبل الصلاة عليه في مسجد العباس، كنت متألماً لمنع إخوته لك مشاركتهم في غسل والدك مسعود، ثم الوقوف معهم في العزاء، كنت تبكي كثيراً، بكى أحمد معك كثيراً، واحتضنك جابر والدك بالرضاعة، ووقف بجانبك عبد الرحمن وحسن وناصر وأحمد ووالده وإخوته وبعض الأصدقاء وأزواج بنات جابر، أصبح الناس يبدؤون تعزيتك ثم يتجهون بعد ذلك إلى إخوته وأبنائهم، وبعضهم يكتفي بتعزيتك.

لديك كلام كثير تريد أن تقوله، شريط سينمائي مصوّر، حزين، استرجعته ذاكرتك، ليكون أحد فصول سيرتك الغريبة، ها أنت تعود إلى حاضرك. أنت في الرياض، في شقة صغيرة في حي الوزارات، واليوم هو الجمعة، تتوضّأ وتتّجه إلى المسجد الجامع لتستمع لخطبة الجمعة، وتصلي وتدعو كثيراً لرجل منحك الحب، وأخذ بيدك لتكبر.

١٥

قرارات سريعة ومتلاحقة، لن يكون هنالك مجلس عزاء لمسعود في الطائف، العزاء في بلدته، عند إخوته وأهله، هنا في الطائف تعرف غالبية الناس الأستاذ مسعود، ويطلقون عليه "العم مسعود"، كل من يعرفه في الطائف حزنوا لوفاته، بكت غالبيتهم. وهناك في بلدته، لا تعرفه غالبية الناس، حين سمعوا بخبر وفاته علق بعضهم: "أخوهم ولد عقاب الساكن في الطائف، الله يرحمه".

أخبر عوض منير بأنهم سيغادرون بعد صلاة العشاء، وسيغلقون بيت مسعود. لذا، عليه أن يحضر بعد صلاة المغرب مباشرة ويأخذ كل ما هو موجود في غرفته من كتب وملابس وأثاث اشتراه. أما بقية أثاث المنزل، فهي أموال ورثة لا يجوز المساس بها.

قال عوض ذلك الكلام لمنير قبل مغادرتهم المقبرة، وطلب منه ألّا يتأخر لحمل ممتلكاته من بيت أخيهم مسعود، رحمه الله.

كان ذلك الكلام على مسمع جابر أبو دحيّم الذي أحسّ بوضع منير الصعب. لذا، طلب منه أن يذهب معه إلى بيته في الفيصلية، وسيهيئ له الغرفة الخارجية ليضع فيها أشياءه التي سيأخذها من بيت مسعود.

لم يكن منير قادراً على الكلام، سمع ما قاله عوض ولم يستوعبه تماماً، ركب سيارة عبد الرحمن الذي أقلّ والده إلى المسجد والمقبرة، وجلس في المقعد الخلفي. سأل والده بالرضاعة جابر: "ألن يكون هنالك عزاء لأبي مسعود؟"، ليجيبه عبد الرحمن: "لا أحد يعرف إخوة العم مسعود رحمه الله هنا، أمر طبيعي

أن يكون العزاء هناك"، فقال منير: "وأنا، هل سأكون معهم؟"، فسأله جابر: "هل طلبوا منك أن تذهب معهم؟"، فأجاب: "لا"، فسأل جابر مرة أخرى: "هل سبق أن زرتهم مع أبيك مسعود وطلبوا منك أن تزورهم مرة أخرى؟"، قال منير: "لا"، ليعقب جابر: "يا ولدي، ادعُ لذلك الرجل الطيب بالرحمة، لو كانوا يريدونك، لأبقوك معهم ورحبوا بمجيئك في حياة والدك". تساءل منير: "ماذا يعني ذلك؟"، ليتدّخل عبد الرحمن قائلاً: "يا منير، هؤلاء ليسوا أهلك، أنت رجل كبير، ولا تحتاج إلى من يعولك، وبإذن الله أنت في غنى عنهم".

بكت أم جابر مريم كثيراً عندما رأت منير. تذكرت ذلك الرجل الطيب الذي دعت الله أن يكون من أهل الجنة. لاحظ منير آثار الكبر والمرض على أمه مريم. بكى معها. بنات جابر عزّيْن منير. لاحظ أنهن يلبسن الحجاب ويتحدثن معه بوقار.

أحسّ بالراحة قليلاً رغم شعوره بفراغ غريب داخله، فراغ لا تملؤه كل كلمات العزاء والشفقة، فراغ يجعله أشبه بالجسد المجوّف، لا شيء داخله، كل المشاعر اختفت، ينظر إلى أفراد أسرة جابر ويلمح وجوهاً غريبةً. الأكل الذي قدموه إليه بدا غريباً عليه، يده وهي تتجه إلى الطعام خالها يد إنسان لا علاقة له به، طنين الأذنين يحاصره ويملأ رأسه بصوت غريب، صوت هواء يمرّ بين القبور، يبحث عن صوت مسعود الذي لن يسمعه مرة أخرى فيشعر أنه يكاد يسمعه، كأنه يقول: "أين أنت يا منير، لماذا تأخرت؟".

زوج حسنة ابنة جابر الثانية أعطاه حافلة صغيرة لينقل فيها أثاثه وأشياءه من بيت مسعود، وعرض عليه حسن أن يساعده. شكره منير على المبادرة. أعطاه جابر مفتاحاً للبيت الخارجي، ومفتاحاً للغرفة الخارجية (الملحق).

ذهب منير إلى حارتهم في الشرقية، اتّجه لصلاة المغرب في المسجد الذي اعتاد أن يصلّي فيه والده مسعود. انتهت الصلاة وعزاه أغلب المصلين الذين لم يتمكّنوا من تعزيته في مسجد ابن عباس أو المقبرة. بحث عن إخوة مسعود ولم يجدهم، توجّه إلى البيت الذي حمل أجمل ذكريات الطفولة والشباب، بيته سابقاً، ليجد عوض ومهدي في استقباله عند مدخل البيت. علم أن فالح غادر إلى مكة لينهي إجراءات الشقة التي استأجرها مسعود خلال الحج ويأخذ سائق مسعود وزوجته بعد أن أتموا حجتهم ويتوجه معهم إلى بلدتهم.

أخبرهم منير أن هنالك غرفة خاصة له مغلقة في العمارة التي بقرب الحرم، فيها كتب وملابس له، فقال عوض: "سيتم استلام العمارة من بعثة الحج بعد أيام، وحينئذ ستستطيع أخذ أشيائك الخاصة".

طلب منير منهما أن يدخل ليحضر أشياءه من الداخل، فطلب عوض من مهدي حينئذ أن تفسح له النساء الطريق ليتجه إلى الداخل. سأله مهدي: "هل لك أشياء في المطبخ أو غرفة الجلوس أو مجلس الرجال؟"، كان منير يتمنى أن يقول كل شيء هنا في البيت لي مع أبي مسعود، كثير من الأشياء اشتراها لي، ومن أجلي، وكثير من الأثاث ساهمت في شرائه، أو أخذته من مالي الخاص، لم يقدر أن يقول ذلك، أجابه: "ما هو موجود في غرفتي فقط"، ليبدأ تجميع الكتب وبعض المفارش والأغطية والملابس. أفرغها جميعها في مجموعة كراتين أحضرها معه، أبقى السرير والدولاب، وأبقى مكتباً كان يكتب عليه بعض القصص والخواطر، أبقى جزءاً من روحه وكثيراً من ذكرياته. كان عوض يردد ومنير يحمل أشياءه ويضعها في حوض الحافلة: "خذ أشياءك التي تملكها والباقي سيجرد لأنها أموال ورثة، لا نريد أن ندخل في ذمتنا شيئاً".

حمل الأشياء التي يحتاجها ويريدها، وأبقى الأثاث الخاص به وبعض الملابس القديمة وأغطية تالفة، كان يتمنى لو حمل معه بعض الجدران التي علّق عليها صوراً لمبدعين، تلك الجدران الشاهدة على الجهل والتكفير.

غادر البيت وداخله غصّة. لم يتفوّه بكلمة، لم يقل وداعاً. ابتعدوا عنه متجهين إلى داخل البيت حتى لا يصافحهم مودّعاً، ليطلّ عوض من النافذة بعد أن أغلق مهدي الباب وهو يقول: "اذهب إلى مكة غداً قبل أن يسافر فالح، وخذ أشياءك من العمارة. كلّمنا فالح قبل قليل وهو ينتظرك غداً".

***

لم يُعزّوني وأنا ابن أخيهم، تذكرت ذلك، لم ينظروا إلي بعطف أو رحمة، ما ذنبي إذا كان والدي مسعود عطف عليّ وأحبني وتبناني؟ ما ذنبي إذا لم أقوَ على فراقه عندما كبرت؟ كنت أتمنى لو كانت علاقتي بأسرة مسعود جيدة، لا أريد شيئاً من أمواله، أريد علاقات ودّ مع إخوته وأبنائهم فقط؟ أريد أن أشعر أنني جزء من أسرة مسعود، لا أريد نسباً، أريد فقط أن أقول لعوض وفالح ومهدي، يا عمّ، وهم مع الأسف لا يرغبون في سماع ذلك!

مكاني المؤقت، هذه الغرفة التي بنيت في حوش فيلّا والدي بالرضاعة جابر، كأن قدري أن أكون خارج البيوت. لا أستطيع أن أستقبل أحداً في هذه الغرفة، ستبقى لحفظ أشيائي مؤقتاً، وللنوم.

في طريقنا إلى مكة لمقابلة فالح، عرض علي أحمد أن يبحث عن شقة صغيرة قرب بيته. أعرف أن بيت والده صغير، وليس فيه مكان لاستضافتي، لكن رأيت

أنه من الأفضل أن أسكن بالقرب من مقر عملي في منطقة شهار أو ما حولها، ولاسيما أنه ليس لدي سيارة حالياً.

أغلب الحجاج غادروا مكة، هذا سهّل لنا أن نركن السيارة في مواقف مخصصة لعمارة والدي مسعود. قابلني فلاح بكل برود عند المدخل، رأيت سائق والدي الخاص الذي أشاح بوجهه عني، لم يرغب في السلام ولا المساعدة، فتجاهلته، ودخلت العمارة، فقابلت رجلاً مسؤولاً عنها خلال سكن بعثة الحج، وأخبرته بوجود كتب وملابس في غرفة في الدور الأرضي مغلقة، فسمح لي بالدخول. كانت هنالك آثار حجاج، اتجهت إلى الغرفة، وفتحت بابها بمفتاح كان معي من ضمن المفاتيح التي أحملها، طلبت من أحمد مساعدتي، وأسرعت في جمع ما أحتاجه ووضعته في سيارة أحمد، تحدث فالح مع أحمد قبل مغادرتنا قائلاً: ''سنبني لمسعود مسجداً في الديرة، لا بد من تخليد ذكراه''، فقال له أحمد: ''العم مسعود من أهل الخير، أفضاله على الجميع''. وقبل أن أركب السيارة، قال لي فلاح: ''لو سمحت، مفتاح الغرفة''، فأجبته مباشرة: ''تركت المفتاح على باب الغرفة''، وهذا ما فعلته حقيقة.

استغرب أحمد تعاملهم معي بذلك الجفاف ليطلب مني أن أقول له بكل صراحة سبب تعاملهم الغريب معي، ورغم حزني العميق، وشر البلية ما يضحك، قلت: ''بسبب العقاد وطه حسين والرافعي ومجلة **الهلال**''، وأخبرته ونحن في طريقنا إلى الطائف بحادثة تمزيق الصور والمجلات، وتصوّرهم أنني غير سويّ، ليعلق أحمد قائلاً: ''هل سمعت ما يقول، سيبنون مسجداً عندهم، كأنهم بذلك قاموا بعمل كبير، بقيمة عمارة مكة يبنون أكثر من عشرين جامعاً وليس مسجداً صغيراً في قرية صغيرة كبلدته''، فقلت: ''إذا رزقني الله مالاً، فلن أنساه أبداً''.

الجميع يتوقعون أن مسعود أوصى بثلث ماله أو بمبلغ جيد لي بعد وفاته. أخبرت من سألني أنني سمعت أنه سيوصي بشيء لي ولكن لا علم لي أبداً، وحقيقة أنا لا يهمني كل أمواله من دونه. أريده هو لا ثروته. والد أحمد، العم مساعد، زار والدي مسعود قبل أشهر بعد أن سمع كلام ولده عن ذلك الرجل الجليل الخيّر، ليتعرّف إليه، وقد أخبره مسعود بمشروع الوصية، ولكن لا يدري هل وثّق الوصية أم كانت مجرد رغبة لم تنفذ على الورق، وقال سأتواصل مع إخوته وأخبرهم برغبة أخيهم، وطلب مني أرقام هواتفهم. لم يكن معي إلا رقم عوض، وقد أخذته منذ سنوات حين أصيب والدي مسعود بوعكة صحية قد تعافى منها، وطلب مني إخبار أخيه بذلك.

***

أنت الآن ستفتح صفحة جديدة، صفحة ليس فيها والد وولد، صفحة تمتد إلى هذا اليوم الذي تجمع فيه الأوراق وتحصر الذكريات وتختصرها وترتبها وتفرغها على ملف في الحاسب الآلي، منير عبد الله، أنت وحيد بلا أب، كأنك عدت ذلك الطفل الجالس على عتبة الباب عند ذلك البيت المحترق، قبل أن يتجه إليك ويحملك. مصير جديد ومختلف ليس فيه استقرار، وليس فيه ثبات.

تعلم أن تلك العائلة التي ينتمي مسعود إليها قالوا لمساعد والد أحمد: لا توجد وصية ولا أوراق تخصّك، حتى صك الأرض الذي ساعدك مسعود على شرائها أنكروا وجوده، ما حدا بك إلى استخراج صك بدل فاقد. انتهى كل شيء يربطك بذلك الرجل الطيب، عليك أن تنساه الآن، وعليك أن تأخذ قسطاً من الراحة،

فأمامك مشوار طويل من الكتابة، عن نفسك وعن أصدقاء وأعداء قابلتهم، أو كانت لهم قصة معك، أو لك قصة معهم.

أعرف أن رغبة البحث عن والدك ووالدتك تصاعدت في حياتك الجديدة، منذ بدأت تعي أن مسعود ليس والدك الحقيقي، ولا جابر. فمنذ بدأت تعي وضعك في الحياة مع والدك مسعود حتى واريته الثرى، وأنت لا تفكر في البحث عن والديك الحقيقيين بصورة جدية. ربما خطر ببالك أو سمعت كلاماً يجعلك تفكر في البحث، ولكن لم يكن بصورة جدية. لقد أنساك مسعود والديك، وكنت تخاف أن تبتعد عنه فتجد نفسك في الفراغ وتصبح ذلك الطفل الذي فقد أسرته فجأة.

فكِّر أن تتصل بأحد أصدقائك، تقابله في مقهى في شارع التحلية، أو في أي مكان تريده. لديك مجموعة من الصحف والمجلات لم تقرأها، تصفحها، هاتفك المحمول يعجّ بالرسائل، ووسائل التواصل الاجتماعي تحاصرك، ما رأيك لو نشرت سيرتك مسلسلة عبر صفحتك في "فايسبوك"، أعرف أنك لا ترغب في ذلك، وأعرف أنك تريد أن تبتعد عن كل البشر، وأعرف أنك تنتظر نهاية لقصتك، ولكن بكل تأكيد لا تريدها كنهاية مسعود. هو رحمه الله لم يدرِ بنهايته التي لم تكن في الطائف ولا في مكة، بل بينهما، هل هذا "البين" يوحي لك بشيء. هو غادر مكة، وغادر قبل ذلك الطائف، ليعود إلى المقبرة. لديك إحساس أنه جعلك في مرحلة "البين"، بين السعادة والشقاء، بين الفرحة والحزن، بين الحياة والموت، بين الشعور بالحياة وغياب الشعور بها، بين الناس ولكن تشعر أنك لست منهم، تعيش بين جدران أربعة فتشعر أنها تضيق بك فتفقد كل إحساس بالراحة.

أنت ابن الفراغ، ابن عبد الله، والكل عبيد الله، لم يقدر والدك مسعود عندما بدأ إجراءات تبنيك أن يختار اسماً خاصاً كاسمه أو اسمك، فقد كان القرار أن يكون

الاسم مما عُبِّد فالجميع عبيد الله... حتى يُعرف اسم والدك الحقيقي.

أعرف أن ما ستكتبه سيكون مثل مما سبق أو أهم. وأعرف أن داخلك الرغبة لمعرفة ما حدث لذلك الرجل الذي اتصل بهاتفك المحمول ليخبرك بلقاء عائلتك، لا يزال مسافراً؟ ربما، تحتاج أنت إلى وقت ترتاح فيه وتستمتع بمشاهدة فيلم أو مقابلة صديق، وبعد أن تشعر أن لديك الرغبة في الكتابة أغلق هاتفك المحمول، وتوجّه إلى الحاسب وقل ما عندك.

١٦

أسبوع واحد فقط قضاه منير في الغرفة الخارجية في بيت جابر، وبمساعدة صديقه أحمد، حصل على شقة صغيرة في حي حوايا قريبة من عمله: غرفتان ومطبخ ودورة مياه، هذا مناسب له خاصة في هذا الوقت.

سليمان زوج ابنة جابر الثانية حسنة جعل الشاحنة الصغيرة تحت تصرف منير، الذي شكره على هذا الجميل، وهذا ما ساعده كثيراً في تهيئة الشقة للسكن. هو لا يعرف سليمان كثيراً ولم يسبق له أن جلس معه، يعرف أنه موظف ولكن لا يعرف تحديداً أين يعمل. ما يعرفه عنه أنه ملتزم بذقن طويلة وثوب قصير، الالتزام هذا والمحافظة الدينية لاحظهما على كامل أسرة جابر، وإن كان عبد الرحمن الابن الأكبر أخفهم، ولكن السمة الغالبة هي الالتزام الديني. لذا، لا مكان للتلفزيون، وممنوع سماع الموسيقا. ناصر الابن الأصغر لم يره منذ مدة لبقائه في المنطقة الشرقية في مدينة الظهران، حيث يواصل دراسته في مجال الهندسة، ولا يدري منير هل أصبح مثلهم، بل الأمر الذي أزعجه تحول حسن الابن الأوسط من دراسة الطب إلى الشريعة، وحين سأله منير عن سبب التحويل، أشار إلى مشكلة الاختلاط في الطب... وأهمية دراسة العقيدة وما ينفع الناس في دنياهم وآخرتهم.

لم يتعود منير بيئة جابر أبداً. لذا، كان حريصاً على الانتقال إلى شقة حوايا قرب عمله، وأيضاً شراء سيارة صغيرة، كل ذلك من أموال ساهم مسعود في

جعل منير يوفرها من رواتبه للحاجة، وها هي الحاجة ماسة للاستفادة من تلك النقود القليلة.

حين أعاد منير السيارة إلى سليمان، رفض في البدء أن يستلمها، إذ طلب أن يبقيها لديه ويستفيد من استخدامها كمصدر دخل ثانٍ له مقترحاً أن يذهب إلى حلقة الخضار أو السوق كمثال، ويحمل مشتريات الناس ويوصلها إلى بيوتهم بالأجرة، مؤكداً أنه ليس بحاجة إليها حالياً. شكره منير كثيراً قائلاً إن عمله يأخذ جل وقته. وقبل أن يغادر دعاه سليمان لتناول العشاء، ليعتذر منير، فأصرّ سليمان على تناول طعام العشاء لديه، مشيراً إلى أن البيت بيت أخته حسنة بالرضاع، فهو ليس غريباً وستسعد بمقدمه. وافق منير على الدعوة ليؤكد له سليمان أنه في انتظاره في بيته في حي القمرية ذلك المساء.

كان منير يتمنى لو أن والده مسعود على قيد الحياة لاستشارته بأمر هذه الدعوة، ولاسيما أن سليمان، أبو معاذ، يشبه في توجهه وتفكيره ذلك الرجل الذي طلب منه منذ سنوات حين التقاه بعد صلاة المغرب في مسجد في حي أبي بكر أن يغيّر مسار قراءاته. عموماً لقد أصبح منير أكبر عمراً وأكثر وعياً، ولكن قد يجد لديه ما يضيفه إليه.

فكر منير في البحث عن دخل آخر، ولكن وجد أن عليه أن ينظّم مصاريفه، وهي محدودة، لن يبقى وحيداً دون زوجة وأبناء، سيبحث عن زوجة تقبله، ولكن عليه أن ينتظر قليلاً.

اتصل به أحمد طالباً منه الذهاب لحضور عرض مسرحي في جمعية الثقافة والفنون في الطائف، لكن منير اعتذر لارتباطه بموعد العشاء عند سليمان.

بعد صلاة العشاء كان أحمد يقف أمام بيت سليمان الذي استقبل ضيفه بترحاب، توقع أن يقابل أخته حسنة، لكن لم يحدث ذلك، وتوقع مجيء جابر وأبنائه، وكذلك لم يحدث ذلك، كان هو الضيف فقط. وكان سليمان مع ابنه معاذ الذي يبلغ عشر سنوات، والذي أحضر القهوة والشاي، وأبلغ والده بجهوز العشاء، هم من يتوقع أنهم بالبيت فقط.

بعد تناول منير فنجان القهوة، قال سليمان: "هذه دعوة خاصة لك، لنجلس ونتحدث على راحتنا". شكره منير على ذلك ليقول سليمان: "أعرف مصابك الكبير، الموت حقّ، وفقد والد مثل مسعود ليس بالأمير الهيّن"، فرد عليه منير: "الحمد لله على كل حال، الله يرحمه ويدخله فسيح جناته". واصل سليمان حديثه قائلاً:

> سأتحدث معك مباشرة بصفتك أخاً لي ولزوجتي، أنت خال لابني معاذ هذا، ومعزّتك مثل معزّة عبد الرحمن وحسن وناصر، أنا كنت أتابعك من بعيد، وسألت عنك أكثر من شخص، كلهم أثنوا عليك، رجل متزن محافظ على الصلوات، لا يدخن، خلوق، وأنت الآن فقدت صمام الأمان، العم مسعود (رحمه الله)، وهنا بدأ خوفي عليك، خوف الأخ الكبير على أخيه الأصغر.

شكره منير كثيراً، مؤكداً أن الشعور متبادل، وتركته يواصل حديثه قائلاً: "يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يأتي زمان على أمتي القابض على دينه كالقابض على جمرة من النار". ها هي الفتن والحروب، وها هو الغزو الفكري، ربما لديك أصدقاء، أليس كذلك؟!"، ليجيبه منير: "عددهم محدود".

– هل تناقشون عند لقاءاتكم حال أمتنا الإسلامية وتفشي الضلال؟ أجبني بصدق وصراحة.

أجابه منير موضحاً أن أصدقاءه بعضهم أصدقاء عمل ويتحدثون أحاديث عامة، والبقية أصدقاء لهم اهتمامات ثقافية وأدبية وحديثهم حول الثقافة والأدب.

"هل تتقبل نصيحة من أخيك الأكبر؟"، ودون أن ينتظر الإجابة، أكمل حديثه قائلاً: "لن ينفعك هؤلاء أبداً، يا أخي، الأصدقاء عملة نادرة، قليل من تجده يبحث عن الخير لأخيه، هل تقبل أن أعرفك إلى بعض الأصدقاء، إنهم أهل علم وتقوى".

تحدث كثيراً عن حال الإسلام ووضع الجهاد في أفغانستان واستغرب أن منير لا يتابع مجلتي **المجتمع** و**البلاغ**، وطلب منه أن يقرأ المقالات المنشورة عن كرامات شهداء الجهاد الأفغاني في **المجتمع**، وتحدث عن عبد الله عزام الذي يرى أن الجهاد فرض عين على المسلمين.

كان العشاء بسيطاً ليبرر سليمان ذلك بقوله: "أختك أم معاذ أصرّت أن تأكل من طبخها، وإلا فقد كنت ناوياً أن أذبح خروفاً، فمقامك وزيارتك لبيتنا أكبر من ذلك".

شكره منير على ذلك مشيراً إلى أنه يفضّل البساطة.

ثلاثة تناولوا العشاء، سليمان ومنير ومعاذ بن سليمان، اثنان صامتان، منير ومعاذ، ومتحدث وحيد هو سليمان الذي أحسّ بتجاوب منير مع كلامه وبداية تأثره، ولاسيما حين ينقل إليه قصص بعض كرامات شهداء الجهاد الأفغاني، وما يكسبه كل رجل يذهب إلى هناك، من ذلك سهولة الزواج، لأنهم ينظرون إلى الدين والخلق لا النسب، ليقترح سليمان عليه الذهاب إلى أفغانستان موضحاً أنه لن يخسر شيئاً، بل ربما يكون ذلك خيراً له.

لم يعلّق منير كثيراً على كلام سليمان، ولم يبدِ له موافقة أو رفضاً، بل أشعره أن تلك الليلة التي قضاها معه بصحبة ابنه معاذ أنارت له الطريق وعرفته بأشياء يجهلها، مرحباً بمشروع التعرف إلى بعض الأصدقاء ذوي العلم والدين، ليخبره سليمان أنه سيتصل به حين يحدد موعد للقاء.

***

''كن نفسك!''.

تذكرت هذه الكلمات التي قالها لي والدي مسعود عندما طلب مني ذلك الرجل تغيير قراءاتي، تذكرت ذلك وأنا في طريقي إلى شقتي مغادراً بيت سليمان؟ لو قلت له أنا موافق سأذهب إلى أفغانستان، لوجدت نفسي خلال أربع وعشرين ساعة هناك. هنالك تنظيم غريب لا أعرفه ولا أعيه، وليس لدي معلومات وافية عن آلية الجهاد في أفغانستان، وليس هنالك إمكانية للبحث والاستقصاء، والمعلومات التي نحصل عليها غالباً من المجلات والصحف والإذاعة والتلفزيون جميعها تمجد الجهاد الأفغاني وتتابع أخبار المجاهدين.

من جانب آخر، أنا لم أحتكّ بأشخاص مثل سليمان الذي يرى أن الأهم الأمة الإسلامية وليس الوطن، كأن هنالك مشروعاً ما غير واضح. لذا، لا أستغرب حماسته أحياناً لمشروع جعل الإسلام غطاء له، مشروع قاله لي أحد الموظفين في المؤسسة التي أعمل فيها، وهو من الملتزمين، وقد سبق أن تحدث عن جهاد الأفغان قبل سليمان، وفيه أن هؤلاء – ويقصد بهم المجاهدين – سينتهون من دحر الشيوعية، ثم يتجهون إلى فلسطين لتحرير القدس وإرساء الخلافة الإسلامية.

كنت أتمنى لو أجّل سليمان دعوة العشاء إلى زمن أكون فيه قادراً على التفكير بصورة أفضل، ليكن بعد سنة أو سنتين، وليس بعد أيام لا تتجاوز أصابع اليدين كنت أعيش فيها متعة الثقافة والأدب والفن والتسامح في القاهرة. لم يختلّ إيماني بالله في ذلك الوقت، ولكن ما حدث أنني وصلت إلى الطائف لأجد نفسي ملقًى في الشارع، بلا أبٍ، ظهر أستند إليه، وأسمع كلاماً يوحي بنهاية العالم، ولا طريق إلّا الجهاد. ماذا لو علم سليمان أنني قبل أيام كنت في مجلس غالبيته نساء، ليس هذا فقط، بل كان الجميع يغنون لجيفارا، هذا الشيوعي الملحد، الذي لم يحبّه سيد إبراهيم، كما نحن، أحمد وأنا، لا تعنينا تلك الفتاة المصرية المناضلة، وها هي الكلمات تخلق شيئاً من الفروق، ففي أفغانستان هنالك جهاد، وفي ثورات شعوب العالم، كان هنالك نضال.

أعرف أن سليمان وبمباركة من أسرة جابر سيسعون أن أكون على الأقل متديناً ألتزم الصلاة في المسجد وأحرص على حلقات الذكر، وأبتعد عن اللهو، ولا أسمع المعازف.

في الأيام التي قضيتها عندهم في الغرفة الخارجية، كان حسن يوقظني لأداء صلاة الفجر معه لنجلس بعد ذلك ونقرأ ما تيسر من القرآن الكريم، وأحياناً نستمع لشيخ يقدّم نصيحة إلى المصلين.

في ذلك الوقت، لم أتعرف بعد على سليمان زوج أخته، ليست أسرة جابر فقط التي أخذت صبغة المحافظة والالتزام، بل الجو العام للمجتمعات، إضافة إلى القنوات الإعلامية الرسمية، فالمرأة غادرت قناة التلفزيون بعد أن كانت سميرة توفيق وفيروز وأم كلثوم يصدحن كل مساء، وكل متدين أو رجل دين يكون له

صدر المجلس ولو كان شابّاً يافعاً، يرضخ له كبار السن ويجلونه ويحترمونه، لأنه من أهل العلم وصاحب فضيلة.

هنالك أشياء تغيّرت وبدت واضحة لم ألاحظها إلا بعد فقدي والدي مسعود، هل مؤشر التدين ابتعد عن الوسط قليلاً، بل ربما أصبح متطرفاً في أقصى اليمين؟

بعد أن استقررت في شقتي، تذكرت الهدايا، فكان حامل المصحف من نصيب والد صديقي أحمد، الذي فرح به كثيراً، أما الملابس والقطنية التي كنت سأهديها لوالدي مسعود، فأعطيتها لأبي جابر مع قطعة القماش مرفقه بهدية أمي مريم، وقد كان لذلك الأثر الطيب في نفوس كامل أفراد الأسرة، وحافزاً على تقوية العلاقات معهم، ولاسيما وهم من التجأت إليهم بعد فراق والدي مسعود.

***

كدت تفقد كل ما كتبته في ملف في الحاسب الآلي. أحياناً يكون الأمر مخيفاً، فجهد أيام بالطباعة، والنسخ والنقل يذهب بلحظات إذا لم يحفظ، انقطعت الكهرباء فجأة في شقتك، اكتسحك الظلام، غادرت شقتك مستطلعاً سبب انقطاع التيار الكهربائي لتجد ساكني الشقق في العمارة خارج المبنى، سألت عن سبب انقطاع التيار الكهربائي، لم تجد إجابة مقنعة، بعضهم قال: ''إن الجهد أقوى من قدرة تحمّل المولد''، وآخر قال: ''صيانة''، لم تقتنع بذلك، كيف تكون صيانة في المساء.

في أزمة مثل هذه، تكون فرصة لبعض المتطفلين لمعرفة أشخاص مثلك. لذا، لم تستغرب عندما قال لك أحدهم: ''ما الوقت المناسب حتى يتمكن الأهل من زيارة أهلك؟''، لتجيبه: ''أهلي عند أهلهم وسيأتون بعد أيام''، أعجبتك كلمة

"أهل"، التي يقصد بها الزوجة، التي تفتقدها كثيراً، إنه سؤال صعب ومتعب لك عندما يسألك أحد عن أهلك، أو عندما يسألك أحدهم: "لماذا لا نراك تصلي معنا في المسجد؟". ماذا تجيبه؟ ربما تقول عملي استهلك أغلب وقتي، ولكن ماذا عن إجازة الأسبوع الخميس والجمعة، أو الجمعة والسبت، حصار ينبع من التطفل لمعرفة هذا الرجل الغامض. يسألك آخر: "هل لديك شموع؟" لتجيبه: "أتذكر يوجد لديّ في المستودع"، ليقول: "لديّ شموع معطرة وتقي بالغرض حين يداهمك الظلام". لتسأله: "هل يوجد لديك برائحة الورد؟"، يجيبك: "سأبحث ولكن ما أنا متأكد منه رائحة الياسمين والفراولة"، تقرر أن تشتري منه ثلاث شمعات بروائح عطرية مختلفة.

كنت تفكر أن تشعل شمعة برائحة عطرية حتى تشعر بقليل من الراحة والاسترخاء عندما تشعر أنك مجهَد، لا بأس في ذلك، ولكن كن حذراً، من النار والروائح الخانقة.

تسمع تصفيق أهل العمارة فرحاً بعودة التيار الكهربائي. تعود إلى شقتك، مكتبك، وتتفقد الملف في جهاز الحاسب، هل فقدت شيئاً عندما انقطع التيار الكهربائي، ربما فقدت بضع صفحات كتبتها، ربما هناك طرق لاسترجاعها، تحتاج إلى خبير في الحاسب، عموماً، كن حذراً، واحفظ كل نصف ساعة ما تكتبه تحسباً من أي طارئ، فهناك من ينتظر سيرتك.

١٧

لم يغب مسعود عن مخيلة منير، دائماً يتذكره، حين يجلس مع أحمد يحكي له قصصاً عن والده مسعود، يذهب أحياناً إلى حي الشرقية ليتأمل البيت الذي عاش به طفولته وشبابه، ربما يجد أحداً يعرفه، يخرج أو يدخل ذلك البيت ليدخل معه وسط البيت ويبحث عن بقايا لمسعود. ليس لديه أي شيء من بقاياه، كان يتمنّى لو كُتب ذلك البيت الصغير باسمه، لو كانت هنالك مبايعة بأوراق رسمية تجعله المالك الرسمي لذلك البيت. ربما كان موقفه مختلفاً، ولكنه يعرف أن مسعود ومن واقع حبه له وحرصه عليه كان لديه قرار بأن يوصي بمبلغ أو عقار يمثل ثلث ثروته له، وحتماً سيكون أكثر من قيمة ذلك البيت الصغير بكثير، ولكن رحل فجأة. إخوته لا يعلمون برغبته تلك، ومساعد فوجئ برد عوض الجاف بأنه لا توجد أوراق تخص منير.

لا بد أن الورثة ينتظرون بشغف حصة كل واحد منهم، فليس مستغرباً بيع البيت بأثاثه بعد مضيّ شهر على وفاة مسعود، ولا يدري منير ما تم بشأن العمارة القريبة من بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

أفكار كثيرة أزعجته ليحاول نسيان مسعود، وليبحث عن أي شيء يشغل تفكيره. لذا، ها هو يرحب بزيارات سليمان المتعددة بعد لقاء العشاء، وها هو يذهب معه إلى مناسبات لبعض أصدقائه الذين لم يرتحْ لأغلبهم، ومشكلة منير الأزلية أنه مجامل وتابع.

مارس سليمان أسلوب العصا والجزرة مع منير، ولكن بصورة مختلفة، فالجزرة هي المرأة، والعصا الضياع، فهو يعرف أن ذلك الرجل يعاني مشكلة الانتماء والاستقرار، ويرى أن معرفته أسرته أصبحت شبه مستحيلة، لأنه بعد كل تلك السنوات التي قضاها عند مسعود لم يأتِ أحد ليسأل عن ابن ضائع أو مفقود.

منير انتبه إلى أول ملاحظة من سليمان عندما زاره في شقته الصغيرة في حي حوايا حول صغر الشقة وكآبتها دون زوجة وأطفال، وقوله: "على يدي ستتزوج بإذن الله قريباً".

– أين المرأة التي سترضى أن تتزوج رجلاً مثلي؟

– كن معي وستجد كل الخير.

قربه من سليمان جعله يبتعد قليلاً عن أحمد، وهذا ما لا يرغب فيه منير أبداً، ولكن كل واحد لا علاقة له أبداً بالآخر، ولاسيما أن سليمان قالها له بكل صراحة عندما شاهد في زيارة له إلى شقة منير طفو سجائر تركها أحمد، إن عليه يبتعد عن ذلك المدخن، فلن يجلب له إلا الضياع، مستشهداً بحديث بائع المسك ونافخ الكير، ليجيبه منير إن هذا الصديق والده إمام مسجد، وهو من المحترمين، واعداً إياه أن ينصح هذا الصديق بترك الدخان.

ذات يوم طلب سليمان من منير أن يستعد لحضور حفل عشاء "لرجل مهم"، وأخبره بأنه سيمرّ عليه قبل صلاة العشاء. استعدّ منير لتلك المناسبة، ولاسيما أنه منذ زمن لم يحضر مناسبة كبيرة، وأن الضيف "رجل مهم"، قد يكون أميراً أو وزيراً. لم يسأل سليمان عن ذلك الرجل وهما متوجهان إلى مكان الحفل الذي اختير له قصر كبير في حي شهار. كانت رائحة دهن العود تعبق من سليمان وقد لبس بِشتاً بنياً قصيراً أيضاً. أديا صلاة العشاء في مسجد قرب القصر، ثم تبع منير

سليمان وهو يدخل القصر ويسلم على المستقبلين. الجميع ينعته بأبي معاذ. اتجها إلى مجلس كبير، جلس سليمان في الصدر وجلس منير على الطرف بعد السلام على عدد من الرجال سبقوهما بالحضور، كان الجميع في انتظار ذلك "الرجل المهم". أسقط منير من تفكيره أن يكون الضيف أميراً، لأنه ليست هنالك مظاهر توحي بذلك، وبكل تأكيد لن يكون مسؤولاً بالدولة، لأن جميع الحضور من الملتزمين دينياً. كان محرجاً من لبسه العقال، ولكن كان هنالك اثنان أو ثلاثة مثله من بين عشرات يلبسون شماغاً أحمر بلا عقال، وهم الغالبية، أو غترة بيضاء على ثوب، ومجموعة تلبس البشوت، وهذا أراحه، رائحة البخور تعبق بالمكان، والجميع ينتظرون مقدم الضيف المهمّ. توقّع أن يكون الضيف أحد كبار العلماء أو المفتي، وهؤلاء الذين كان مسعود يقدّرهم، بل أحياناً يزورهم في مقرّ سكنهم في الطائف عند مقدمهم كل صيف. ربما يتذكّر بعضهم منير وهو يزورهم برفقة مسعود. الوقت يمضي والجميع بانتظار الضيف الذي سيتشرّف الجميع بالسلام عليه وتقبيل رأسه، وهذا ما حدث، ولكنه لم يكن المفتي ولا أحد كبار العلماء. خجل منير أن يسأل رجلاً جلس بجانبه من يكون ذلك الضيف. انتظر الجميع حديثه، لم يبتسم كثيراً، ثم شرع بالحديث بعد التسمية بالله والصلاة والسلام على رسول الله عمّا يصيب العالم اليوم من مآسٍ واضطرابٍ، مشيراً إلى أن العالم الإسلامي مستهدف بدعوات المستغربين إلى الرذيلة، مثل الدعوة إلى تحرير المرأة والاختلاط، والسير وراء الشهوات، وقد طالب بأن يكون كل واحد من الحضور غيوراً على دينه ومحارمه، لينتقل بعد ذلك للحديث عن الفكر الغربي الضالّ، ويعرّج على أقلام كثيرة بدأت تنتشر في الصحف مطالبة بحرية الرأي لتبثّ سمومها، وهؤلاء تلاميذ دعاة الفساد.

كلمات ذلك الضيف المهم ذكرت منير بحديث ذلك الرجل بعد صلاة المغرب، ولكن هل هو ذلك الرجل! منذ سنوات وقبل حادثة اقتحام المسجد الحرام كان ذلك الرجل وحيداً، كان يقول ما يقوله الآن الضيف المهم، ولم يكن يستمع إليه سوى منير، والآن الحضور تجاوز عددهم المئة. نظرة سوداوية متطرفة، هم لهم الحق بالغيرة على الإسلام، ولكن هل الجميع على ضلال وهم فقط على صواب؟ أسئلة بدأت تدور في ذهن منير الذي لا يحب أن يدخل ضمن هذه الدائرة. للبيت رب يحميه، وكذلك الإسلام.

انتهى كلام الشيخ "الرجل المهم" واتجه الجميع لتناول عشاء فاخر: عدة ذبائح على الأرز. تصدّر الضيف المهمّ برفقة بعض كبار السن أكبرها، وجلس منير مع بعض الشباب ممن هم بعمره أو أصغر كثيراً في الطرف. سليمان جلس في الوسط مع بعض أصدقائه. بعد ذلك انفضّ المكان بمغادرة الجميع وأولهم الضيف الكبير، ومن ضمنهم سليمان ومنير، وأغلب الضيوف حصلوا على هدية صغيرة مكونة من "ربع تولة من دهن العود، وشريط كاسيت فيه بعض محاضرات الرجل المهم". سليمان علق على كلام الضيف بأنه مفيد، ليسأله منير عن سبب الاحتفاء وهو ليس من كبار العلماء، فيخبره أن السبب جرأة ذلك الضيف الذي جعله أكثر من مرة تحت مساءلة الدولة.

أحسّ سليمان أن منير لم يتأثر كثيراً بكلام الضيف، ولم يناقشه، خاصة ما يتعلّق بالغزو الفكري، فقرر أن يلوّح بالجزرة أمامه ليقول له: "غداً أو بعد غد سنذهب إلى رجل من أهل الخير لديه ابنة، آمل أن تكون زوجة صالحة لك". خفق قلب منير قليلاً، وقال: "الله الموفق".

بعد وصول منير إلى شقته ومغادرة سليمان بيته، اتصل منير بأحمد ليخبره بتفاصيل حفل العشاء والضيف ''الرجل المهم''، والأهم من ذلك وعده بالذهاب لرجل لديه ابنة ليتزوّجها. كان تعليق أحمد عندما استقبله منير في شقته: ''الذيب ما يهرول عبث''، ليعلل ذلك قائلاً: ''هنالك أمر في ذهن سليمان، وإلّا ما مناسبة هذا الاهتمام الزائد بك؟''. لم يشغل منير ذهنه بالأمر، أحضر مسجّلاً وفكّر أن يضع شريط الكاسيت الذي أُهدي له بعد حفل العشاء، ولكن غيّر رأيه وبدأ يستمع مع أحمد لعبد الحليم حافظ، وهو يغني:

الرفاق حائرون، يفكرون، يتساءلون في جنون
حبيبتي أنا، من تكون؟ حبيبتي من تكون؟ حبيبتي
يفكرون، يتساءلون، يتهامسون، يتخيّلون
أشياء وأشياء، أسماء وأسماء، ويضيع كل هذا هباء

***

ليتهم سمحوا لي أن أتحدث قليلاً قبل الضيف ''الرجل المهم'' لديهم أو بعده، ربما قلت شيئاً مختلفاً، وقد يكون مفيداً، ربما ذكرت لهم قصة دون كيشوت محارب طواحين الهواء، ليكن تفكيري قاصراً، وليس لديّ الثقافة الدينية والدنيوية الجيدة، لكن هذا رأيي، أليس من الأفضل أن نضيء شموعاً بدلاً من لعن الظلام.

أنا لا أستطيع أن أصرّح بهذا الكلام، ولكن لا أرفض أن يكون هنالك علماء دين، لنجلّهم ونقدّرهم، دون تقديس ورفع مكانتهم فوق الناس العامة، وجعلهم أعلى منزلة من الأطباء والمهندسين وأهل العلم التطبيقي. أنا مجهول الهوية، أملك رأياً، ولكن لو علمه بعضهم لطالب بإنزال أقصى العقوبة عليّ، ربما أسمع من يقول: ''هذا اللقيط لا يحترم أهل العلم''. بالعكس أنا أحترمهم، ولكن هل ننفّذ

رغباتهم بتكسير التلفزيونات رغم أن التلفزيون بقناتيه اللتين يعرفهما الناس بمسمى "غصب واحد" و"غصب اثنين" لا يقدمان ما يخالف الدين. أمر آخر هو تمزيق الصور. نحن لا نعتقد أبداً بهذه الصور، لقد خسرت "بورتريهات" عمالقة الأدب العربي التي أبدعتها ريشة جمال قطب، ومزّق إخوة مسعود بعض صوري الشخصية وجميع صور والدي مسعود.

ما الذي يريده سليمان مني؟ ها أنا أصلي الفروض الخمسة، لا أمارس أي خطيئة، ولكن مشكلتي أنني أحبّ قراءة الأدب العربي والعالمي، وسماع الموسيقا، ومشاهدة العروض السينمائية والمسرحية. عندما أوافق على رغبته في أن أكون شبيهاً له أو لأحد أصدقائه، أو لحسن الذي ترك دراسة الطب ليتوجّه إلى العلم الشرعي، هذا يعني أن أحرق مكتبتي وتنتهي علاقتي بالرواية والموسيقا والمسرح والسينما، رغم أن السينما أصلاً غير متوافرة إلا خارج الحدود.

هو يريدني أن أذهب وأجاهد في أفغانستان، وقد قالها بكل صراحة أحد أصدقائه، مشيراً إلى وضعي، قائلاً: "لو استشهدت، فستجد حور العين في انتظارك، وإذا بقيت هناك، فستجد من يزوجك". يبرر حديثه قائلاً: "هنا أنت وحيد بلا أهل، لن يبكي عليك أحد، وهناك ستكون مجاهداً أو شهيداً". هل أصبحتُ عبئاً على مدينة الطائف أو على وطني لأرحل عنه؟ سأبقى، قد أضيف شيئاً للوطن، ربما ليس الآن، ولكن أشعر أنني لا زلت محتاجاً إلى ولادة ثالثة، ولادة طبيعية، فقد كانت الأولى عندما ولدتني أمي التي لا أعرفها، ولا أعرف أين ومتى ولدت، والولادة الثانية كانت حياة جديدة على يد والدي مسعود – رحمه الله – الذي انتشلني من بين أيادي ملك الموت لو لم يأتِ تلك الساعة، بل ربما الدقيقة، لدخلت

البيت لتلتهمني النار، أو لمتُّ تحت أقدام الناس وهم يطفئون الحريق، هل ستكون ولادتي الثالثة على يد المرأة التي سأتزوجها بواسطة سليمان.

الموعد قريب في الغد أو بعد الغد، ها أنا أنتظر وقد هيأت نفسي لفتح صفحة جديدة، فهل يتحقق ذلك؟

***

عزيزي منير، أعتذر كثيراً لتأخري بالاتصال عليك وعدم مقابلتك، لا زلت عند كلامي عندما هاتفتك أول مرة، أنا أعرف من تكون، أعرف أسرتك، آمل أن تكون بخير، سأتصل بك لاحقاً، تحياتي.

رسالة الهاتف المحمول النصية اقتلعتك من حدث له قرابة أربعين سنة لتعيدك إلى زمنك الحاضر، أنت محتاج إلى أحد تتّصل عليه الآن وتقول له: "ماذا أفعل برجل أزعجني باتصالاته ورسائله، كل مرة يقول أنا أعرفك، وماذا بعد؟".

هو يعرفك، ربما سيقرأ كل هذه الأوراق في ما بعد ويصيغ منها سيرة أخرى، وهنا يجعلك تعتمد على شخص آخر بكتابة سيرتك، هو ربما، ويكون هذا تحديّاً لك لتتوقف عن الكتابة وتنتظر لقاء ذلك الرجل.

تغلق جهاز الحاسب وتسترخي قليلاً، تبحث عن كتاب لتقرأه. لديك مجموعة من الكتب التي اشتريتَها منذ مدة من معرض الكتاب، تقلّب صفحات بعضها، تبحث عن محفّز للقراءة، تقرأ ما كتب على الغلاف الخلفي للكتاب، بعض الكتابات لا توحي لك بمضمون الكتاب أو عمّ يتحدث، تتجه إلى الصفحات الأولى، تجد أن بعضها بمقدمات، هنالك أكثر من رواية بين يديك، تتصفح إحداها، تتجّه لمقدمة الكاتب أو المترجم، يقابلك نصّ شعريّ يقول:

إن كنت ستحاول، فاذهب

حتى النهاية.
وإلّا، فلا تبدأ!

تأسرك تلك الكلمات، كانت من مقدمة كتبتها ريم غنايم مترجمة رواية **مكتب البريد** للروائي الأميركي شارلز بوكوفيسكي، هذه الرواية التي يراها بعضهم سيرة ذاتية لهذا الروائي والشاعر، سيرة مختلفة تماماً عن سيرتك، في عالم أيضاً مختلف عن عالمك. ربما أنت محتاج إلى شيء من الراحة تقضيه بين صفحات تلك الرواية التي تقع أحداثها في زمن غالباً بدأ قبل ولادتك حتى سنوات الطفولة الأولى من عمرك، ولكن هو رجل مثلك لديه حياته الخاصة وعمله، ولكن ثمة ممارسات يختلف فيها كثيراً عنك. لتكن محطة استراحة لك، ولا تبحث عن نفسك في تلك الرواية، فمهما حاولت، فلن تجدها أبداً، ولكن ثق أن لديك ما هو مختلف تماماً عن كثير من الروايات، وقبل ذلك ستعرف أن بطل الرواية وربما هو الكاتب استقال من عمله ليتفرّغ للكتابة، وها أنت غادرت عملك للتفرّغ لكتابة سيرتك، هل ستصبح مثله روائياً كبيراً؟ يبدو لي الأمر سابقاً أوانه.

تقرأ رسالة الهاتف المحمول النصية أكثر من مرة، وتغلق هاتفك، تصنع لك كوباً من القهوة، وتبدأ قراءة الرواية، وتفكر في أوراقك المتراكمة بجوار الحاسب، والكلمات التي تضجّ داخل رأسك، هل تواصل القراءة، أم تتجه إلى الحاسب وتعود بمخيلتك إلى زمن ليس بعيداً من زمن بوكوفيسكي؟ وإن لم يكن يوازيه فهو قريب منه، مع الاختلاف الشديد بين عالمين وزمنين، هل كنت تتمنى لو كانت حياتك مثل حياته: إدمان خمر ونساء و...، بالطبع مستحيل، ولاسيما أن بعض من قابلتهم يرى أن لعب البلوت والتدخين يحتاج مرتكبهما إلى التوبة، تشرب فنجان قهوتك الأمريكية السوداء، وتستقطع من وقتك مساحة تهبها لذلك

الروائي الأمريكي ذي الأصول الألمانية، وتمارس حريتك في تشكيل وقتك لما يمتعك، لتستمتع كثيراً بالقراءة والكتابة، فربما سيستمتع من يقرأ صفحاتك تلك.

١٨

دكان صغير لا تتجاوز مساحته ستة عشر متراً مربعاً، مملوء بأقمشة رجالية صوفية ملوّنة وقطنية بيضاء، بجانبها ماكينة خياطة خلفها كرسي يجلس عليه أغلب أوقات النهار أبو أنس ليحيك ثياباً لرجال وصبية. وجه أبي أنس دائري أبيض مشرّب بحمرة، وذقنه خفيفة بيضاء تغطي مساحة كبيرة من وجهه. تبدو عليه علامات الطيبة والتقوى.

دكان الخياطة يقبع في أحد الأزقة الصغيرة وسط البلد، بعض الملتزمين يفضلون أبا أنس لأنه يخيط لهم أثواباً وفق السنة، بسيطة، طولها لا يغطي الكعب. لا يطلب أبو أنس مبلغاً كبيراً لقاء خياطة الثوب، بل يقنع بالقليل، متسامح، ومحبّ للخير.

عرفه سليمان بسبب مشورة من أحد أصدقائه الذي أشار أن يكون ثوب حفل زفافه على ابنة جابر من خياطة "أبو أنس"، ومنذ ذلك الوقت والعلاقة بين أبي أنس وسليمان تتّسم بالصداقة أكثر من المنفعة. عرف سليمان أن ناجي، وهذا اسمه، قدم إلى الطائف مع زوجته وطفلة صغيرة هارباً من جحيم حرب الإبادة في فلسطين عام ١٩٤٨، ليساعده بعض أهل الخير في الاستقرار والبحث عن عمل، وليفتح محلاً مستقلاً للخياطة الرجالية بعد سنوات من العمل في ورش خياطة البدل العسكرية. في ذلك الوقت، فقد ابنه أنس، وعوضه الله بابنة بعد سنوات حزن على فقد الابن، ورزقه بثالثة سماها الشيماء.

زوّج أبو أنس ابنتيه الكبرى والثانية، وبقيت الثالثة تنتظر عريساً، وهو منير الذي أوصى به سليمان، حين تحدّث مع والدها أبي أنس مخبراً إياه أن ذلك الرجل يتيم الأبوين، تبنّاه رجل توفّي منذ أشهر، وقد أثنى سليمان على منير مشيداً بأخلاقه وسلوكه، مؤكداً لأبي أنس أنه سيكون نعم الزوج لابنتهم، ونعم الولد لهم.

رحب أبو أنس بالرجل الذي تحدث عنه سليمان وحدد موعداً للقاء الرجل والتعرّف إليه، وإذا كان يرغب في رؤية ابنته وفق الشرع.

لا يعرف منير ذلك الرجل ولم يسبق له أبداً أن ذهب إلى محله الخاص بالخياطة الرجالية. كانت المشكلة هي أن الرجل وابنته من فلسطين، وهو يحمل الجنسية السعودية، وليس لديه أي خبرة في إجراءات الزواج، ليسهّل سليمان عليه الأمر، ويقول له: "إذا كانت لديك رغبة، فتوكّل على الله، واترك الباقي عليَّ"، ليقوم منير ويقبل رأسه، ويقول: "أنت قلت إنك أخي الأكبر، فثق أنني لن أعصي أمرك، أنت تأمر وأنا أنفذ".

في الدور الثاني من إحدى عمائر حي العزيزية، تقع شقة أبي أنس الذي استقبل سليمان ومنير بالترحاب. الشقة صغيرة ومرتبة: على يسار المدخل مجلس الرجال، فيه طقم كنب ذهبي، وعلق في صدره صورة ملونة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى. أحضر أبو أنس من الداخل قهوة وشاياً، وبادر منير إلى سكب القهوة في الفناجين الصغيرة وتقديمها إلى الرجل الوقور وسليمان لأنه الأصغر سناً. تحدثوا كثيراً عن الحياة والصراع لكسب العيش لينتقل الحديث عن معاناة الفلسطينيين، بدءاً من حصار بيروت، مروراً بمذبحة صبرا وشاتيلا، وكان الخبر الذي تناقلته وكالات الأنباء منذ أيام تفجير السفارة الأمريكية في بيروت. أخبار وأحاديث أخذت جلّ الوقت، ليبحث سليمان عن مخرج من تلك الأحاديث التي

تزيد ألم الرجل الوقور أبي أنس، ليقول: ''أملنا بالله كبير أن ينصر المسلمين ويعيد فلسطين، لنستبشر بانتصارات المجاهدين في أفغانستان''، ليرد أبو أنس: ''الحمد لله على كل حال''، وحينئذ بدأ سليمان الحديث عن الخطبة قائلاً: ''يشرفني أن أطلب يد ابنتك لأخي منير''؛ وكان جواب أبي أنس: ''يشرفنا ذلك، وإذا كانت لديه الرغبة في رؤية الفتاة، فلا مانع لديّ، وبعد ذلك سيكون القرار النهائي له ولها أيضاً''. وافق منير على ذلك، واقترح سليمان أن ينتظر منير في السيارة حتى يقابل الفتاة بحضور والدها كسباً للوقت.

جلس منير وحيداً في صدر المجلس منتظراً دخول أبي أنس مع ابنته حين أطلت مع والدها. ارتبك هل يبقى جالساً أم يقف لاستقبالها، ولكن بكل تأكيد تقديراً للأب وقف مستقبلاً إياه مع ابنته التي كانت أطول منه قليلاً. جلست على مقعد مقابل لمنير لكي يراها بوضوح. ولمنع الإحراج، بدأ أبو أنس حديثه قائلاً: ''هذه يا أستاذ منير ابنتي الشيماء، أسميتها على اسم أخت الرسول بالرضاع''، دار حديث مقتضب بين منير والشيماء حول عمله ومقره، وشهادتها الدراسية، وعلاقة سليمان بمنير، لتغادر الشيماء مستأذنة من منير ووالدها. لقاء لم يدم أكثر من خمس دقائق، ولكن كان تأثيره عميقاً.

***

ما الذي حدث؟ أنا لست ذلك الرجل الذي كان قبل ساعات، هل حقاً قابلت امرأة جميلة، فعلاً جميلة وآسرة؟ هل في كل البيوت نساء مثلها؟ أبحث عن كلمات غزل، أريد أن أقول شعراً، خاطرة، تأبى الكلمات، كل ما قدرت عليه أن أقول لسليمان: ''أنا موافق''.

لم أفكر أن أكلم أحداً عندما وصلت إلى شقتي الصغيرة حتى أحمد الذي ينتظر بشغف آخر أخباري.

سأغلق النوافذ، أطفئ إنارة الغرفة، وأعيش لدقائق في ظلمة حالكة، لا زلت أحمل كثيراً من وهجها عندما قابلتها قبل دقائق، سأستمتع بالصمت، فصوتها لم يغادر بعد أذني.

يا إلهي! كم هي جميلة، بياض آسر وشعر أشقر وقامة ممتلئة قليلاً، ولكن لم تصل حدَّ السمنة، وصوت هادئ. كانت تنظر إليّ عندما أسألها أو أجيب عن سؤال لها نظرة خجل، ثم توجه نظرها إلى والدها لترى رد فعله.

هل ستنتهي حكايتي عندما أتزوجها، هل ستكون بُحيرة حياتنا هادئة وسأمضي معها بزورق نبحر به إلى ما لا نهاية؟

أعيش الآن في عالم من الصمت والظلام، ماذا لو أقبلت علي وابتسمت؟ حتماً ستضيء الغرفة! إحساس بترقب لعرض مسرحي جميل، لحظات وتفتح الستارة، وتبدأ المسرحية، لحظات عشتها أكثر من مرة، وخاصة عندما حضرت عروضاً مسرحية رائعة، ولكن بعد هذا الصمت والظلام الذي أعيشه الآن أشعر أن بطل العرض هو أنا، كأنني أتخيّل نفسي وأنا جالس على أحد المقاعد ضمن جمهور سيشاهد مسرحية، هنالك من يمسك يدي بهدوء، ويضع السبابة على فمه مسلّطاً ضوءاً باهتاً عليه، ليشعرني أن ألتزم الهدوء ولا أتحدث، لا يريد أن يكسر حدة الصمت والظلام المطبّق، أتبعه لأجد نفسي على خشبة المسرح، ويهمس في أذني: أنت البطل، لتفتح الستارة وتتبعني إضاءة خاصة ومركزة، ليصفّق الجمهور لطلتي المسرحية. الصمت والظلام ما زالا مطبقين على قاعة المسرح ولم يكسر الصمت سوى التصفيق الذي استغرق أقل من دقيقة، ليعود الصمت

لانتظار هذا البطل وما سيقدمه، الذي تلاحقه بقعة ضوء، هل ألتزم الصمت أم أبدأ بالتحدث؟ هل أؤدي حركة إيمائية تجعلهم يفسرونها وفق فهمهم؟ أعرف أنني أطلت الوقوف أمامهم صامتاً، هل أترنّم بأغنية، ولكن صوتي مزعج، أين الملقن؟ أنا رجل خائب، ليس لدي القدرة على الحفظ، لا أحفظ النص أبداً، هيا أيها الملقن، لتقل الكلمة الأولى، مفتاح للانطلاق، لا أجد ملقناً، وذلك الرجل جلس على مقعدي ليكون من ضمن الجمهور، مأزق حرج! لا بد أن أقول شيئاً، أنا الآن على خشبة المسرح، وأنا من المفترض البطل، ولكن، هل أنا البطل الوحيد فقط؟ هل هذا العرض المسرحي "مونودراما"، بمعنى: هل أنا الممثل الوحيد في هذا العرض؟ ربما في زمن سابق، كنت وحيداً، أما الآن وفي هذا المساء، أنا ومعي امرأة جميلة سأتزوجها، هل ستأتي الآن وتقف معي على خشبة المسرح ونبدأ العرض؟ توقعت أن لديها سحراً خاصّاً، وأنني بمجرد حضورها ووقوفها بجانبي سأتغير، سأكون كتلة من الحركة وسأتحدث كبطل، سأتذكر ما قاله سوفوكليس على لسان أوديب، وكرستوفر مارلو على لسان فاوست، وشكسبير على لسان ماكبث، سأعيش عالم هنريك إبسن في بيت الدمية، وبالطبع، لن أكون من ضمن الشخصيات الست التي تبحث عن مؤلف لبيراندييللو، وسأعيش، ولن أموت مثل ذلك البائع المتجول الذي صوره آرثر ميلر، ولن أمارس العبث، فلست جودو حين يجعل بيكيت الجميع في انتظاره. يا لها من عوالم رائعة فور أن أشعر أن امرأة جميلة ستشاركني العرض! عوالم ربما لن أجدها في ما كتبه لوركا وبريخت وكل مبدعي المسرح.

هذا الظلام وهذا الصمت وهذا العرض المسرحي... الذي أكون فيه المؤلف والمخرج والبطل.

***

استيقظتَ هذا اليوم وأنت تشعر بالتعب، حلقك محتقن، ربما بداية أعراض برد أو زكام، لم تكن تحب الذهاب إلى الطبيب إلا عندما تكون مجهداً أو مريضاً تماماً، تتعب كثيراً إذا كان هنالك غبار في الرياض، أو عند بداية فصل الشتاء أو نهايته، تقرر ألّا تجهِد نفسك هذا اليوم. تعد لنفسك كأس عصير الليمون، تتناول مسكناً، وتعود إلى سريريك، تقرر أن ترتاح قليلاً، تفكر أن تكتب جزءاً من سيرتك بخط يدك.

تتذكر في زمن سابق قبل أن يتجه الناس إلى استخدام الحاسب للكتابة أن الكتابة باليد كانت متعة: اختيار لون القلم، والبحث عن أوراق متناثرة أو "بوكنوت". العلاقة الجميلة بين الورقة والقلم تجعلك تكتب وأنت مستمتع بالكتابة، المأزق هو التعديل والإضافة. هذا يحتّم عليك أحياناً تكتب النص مرة أخرى.

كنت تشاهد صوراً وأفلاماً لبعض الكتاب العالميين وهم يستخدمون الآلة الطابعة، بعضهم يكتب بسرعة. تشاهد قرب المحكمة الشرعية بعض كتاب "العرضحال" أو ما يطلق عليهم في الطائف "كتاب المعاريض" الذين تعلموا في معهد لتعليم الآلة الكاتبة، وكان تميز أولئك الكتاب أو بعض الموظفين في الدوائر الحكومية والمؤسسات الخاصة بعدد الكلمات التي يطبعونها في الدقيقة.

أنت تذكر محاولتك ذات يوم في مقر عملك في الطائف استخدام الآلة الكاتبة لكتابة نص قصير، لم تكن لديك القدرة الجيدة على الطباعة، فاستغرق وقتَ كتابة نَصّ قصصيّ قد تكتبه بخط يدك بمدة لا تتجاوز خمس دقائق، وكذلك الآن على الحاسب، استغرقت كتابتك النص باستخدام الآلة الكاتبة أكثر من ساعتين،

استهلكت فيها أكثر من ورقة مزقتها لوجود خطأ، أو لضغطك على حرف بدلاً من حرف.

زمن تغيّر، وتقنية ساعدت على الكتابة، وأنت متعب هذا اليوم، لا قدرة لديك على أن تستخدم الحاسب الآلي للكتابة، فتبدأ الكتابة مستخدماً قلماً أخضر وأوراقاً بيضاء أخذتها من الطابعة. تشعر أنك فقدت خطك الجميل. تقرر أن تواصل الكتابة حتى يصبح القلم ثقيلاً في يدك، وعندئذ تخلد للنوم، أو تذهب إلى الطبيب.

١٩

فرح أحمد كثيراً بخبر خطبة منير، واستقبل هاتف منير عدة اتصالات من جابر وابنيه عبد الرحمن وحسن، وبعض الأصدقاء، وقرر منير أن يزور والدته بالرضاعة مريم ليخبرها بنبأ خطبته، والمعروف الذي أسداه له سليمان، وهذا ما أسعدها، ولاسيما أن كبر السن والمرض يقضّان مضجعها ويعكران صفو أيامها.

رئيسه في الشركة التي يعمل فيها منحه راتب شهرين ليتدبّر أمور الزواج ويهيئ نفسه مع التساهل في أمر حضوره إلى الدوام لمدة محددة، وهذا تقديراً لالتزامه العمل، ومن أجل صديقه الراحل مسعود.

لم يتوقّع منير مقدار المودة من الجميع وفرحتهم باستقراره، ورغبتهم في المساهمة في حياته الجديدة، وهذا ما دفعه إلى البحث عن شقة أفضل وأكبر، ووفق رغبة زوجة المستقبل أن تكون بالقرب من والديها. فكان المكان في عمارة مجاورة في حي العزيزية. تبرع الجميع بتأثيثها ليجد نفسه يعيش في شقة من أربع غرف إحداها جعلها مكتبة خاصة له، وثلاث غرف إحداهما للنوم، والثانية خصصها مجلساً للرجال يستقبل ضيوفه فيها، أو ضيوف زوجته. أما الثالثة، فمستقبلاً تكون غرفة لمن يمنّ الله به عليهما من أطفال.

سنوات تجاوزت العشرين عاشها في بيت مسعود، فهل ستكون الإقامة في هذه الشقة ستتجاوز تلك السنوات أم ستتغيّر أحواله؟ يكبر الأبناء ويحتاجون مساحة أكبر، شعر أن ذلك في علم الغيب، فلا يستطيع التكهن به. المهم لديه أنه أصبح جاهزاً لاستقبال شريكة العمر.

ازدادت وطأة المرض على أم دحيّم مريم لتدخل المستشفى، ولتبقى مدة من الزمن في غرفة العناية الفائقة، الأمر الذي دعا إلى تأجيل حفل الزفاف الذي كان الاتفاق على أن يكون مختصراً وبسيطاً، وبعد خروجها من العناية بقيت في المستشفى لتجدول بناتها الثلاث مرافقتها للبقاء بقربها، ولاستقبال الزوار. كان من ضمن الزوار أم أنس التي سيتزوّج منير ابنتها الشيماء، والتي سبق أن التقت بحسنة، زوجة سليمان، قبل الخطبة وتوطدت العلاقة بينهما. كان الحديث عن منير وأسباب الرضاع، وكيف فقد والديه، لتحكي حسنة لها قصة حريق البيت الذي كان يقيم فيه منير، وكيف أنقذه مسعود.

أم أنس علمت أن ابنها أنس الذي مات وهو في شهره الثالث بعد ارتفاع مفاجئ للحرارة غالباً بعمر منير، والأمر الذي أزعجها هو حادثة الحريق وموت أسرة في حي السلامة قبل قرابة ربع قرن. لم تعلّق على حادثة منير عندما كانت مع حسنة أثناء زيارتها مريم في المستشفى، ولكنها حرصت على أن تتحدث مع أبي أنس عند عودتها بعيداً عن مسامع الشيماء.

فور سماع ما قالته زوجته له، قرر أبو أنس الاتصال بسليمان طالباً منه أن يحضر حالاً دون علم منير.

خاف سليمان أن يكون هنالك تصرف غير لائق من منير أزعج أبا أنس وجعله يرغب في رؤيته بصورة عاجلة دون معرفة منير، داعياً له بالهداية وأن يكون الأمر سوء فهم أو غير مقصود، مقرراً أن يكون حازماً مع منير عندما يرتكب خطأ يجعل أهل زوجة المستقبل يقررون تغيير موقفهم، ومن أسوأ المواقف فسخ العقد.

سليمان لا يعرف تفاصيل قصة منير وكيف أنقذه مسعود من البيت المحروق، ولم يكن موضوع حديث بينه وبين أسرة جابر أو زوجته. كل ما يعرفه أن منير فقد والديه صغيراً في ظروف غامضة، وتبناه مسعود. ولو كان لقيطاً، فليس ذلك ذنبه، وسلوكه السوي يشفع له.

لذا، كان قرار سليمان أن يذهب مع أبي أنس إلى خاله جابر، ويجتمعا به على انفراد، ويعرفا منه قصة منير التي عايشها. كان قرار اللقاء بعد صلاة المغرب في بيت جابر حيث يكون الجميع في المستشفى عند أم دحيّم، ليستقبلهم جابر بترحاب متمنياً أن الظروف أفضل من الوضع الذي تعيشه أسرته في هذه الأيام.

- هل تعرف رجلاً احترق منزله وفقد الحياة مع أسرته قبل سنوات اسمه أبو عطية؟

كان السؤال مفاجئاً لجابر الذي احتاج بعض الوقت ليفكر ويتذكر حادثة حريق المنزل الذي كان يسكنه منير.

- لا أذكر الاسم بالضبط ولكنني أذكر أن البيت في حي السلامة.

- أتمنى ألّا يكون البيت هو البيت نفسه والأسرة هي الأسرة نفسها.

- هل تعرفون الأسرة التي احترق بيتها.

- نعم، ليست معرفة قوية، ولكن أعتقد أنهم من جنوب الطائف.

- أظن ذلك، قبل سنوات طويلة ذهبت مع مسعود – رحمه الله – لنسأل عن تلك الأسرة.

- هنالك بوادر مشكلة، ولكن يجب ألّا نستعجل الأمر.

انزعج جابر وسليمان كثيراً من كلام ناجي، أبي أنس، الذي طلب منهم أن يتأكدوا من اسم تلك الأسرة، ليخبرهم بعد ذلك أن زوجته أرضعت طفلاً عدة

مرات بسبب مرض والدته التي لم تقدر على تغذيته ولأنه لا بديل في ذلك الوقت، ولأمر أهم، هو أن لديها فائضاً من الحليب بعد وفاة ابنهما أنس.

كم تمنّى جابر لو كانت زوجته في حال صحية أفضل، لتحدث معها في أمر رضاعة منير، والأم الجديدة التي ستكون سبباً في فقدان زوجة المستقبل، وسليمان تحدث مع زوجته حسنة متألماً على مصير منير الذي فرح باقترانه بتلك الأسرة الطيبة، وابنتهم التي من المؤكد أنه أحبها. سيكون الخبر طعنة في خاصرته، فهل يتحمل؟

تأكد أمرُ الرضاعة، وحرمة زواج منير بالشيماء لأنها أخته بالرضاع، إذ استشهد سليمان بحديث الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب".

لن يفرح منير باكتشاف أبوين جديدين له بالرضاع، ما الذي سيجنيه من وجود أسرة جديدة يرتبط بها عبر حليب شربه وهو رضيع؟ هو يريد تلك الأسرة غريبة عنه لتكون ابنتهم زوجة له.

رغم أن خبر الرضاع يحمل أمراً إيجابياً من جانب بسيط وهو معرفة بعض المعلومات عن أم منير الحقيقية، ولكن، هل هذه الأم على قيد الحياة، ليضحي بالعالم من أجلها؟ ما عرفه من سياق حديثهم أن أمر الأم في علم الغيب، إذا كانت هي أم عطية، فقد لاقت مصيرها المحتوم في حريق بيتها، وإذا لم تكن، فأين هي؟ إذ حين لا تقدر على إرضاع ولدها فلذة كبدها، هذا يعني أنها لن تكون قادرة على البقاء؟

هل يضحك أم يبكي؟! خاف الجميع على منير أن يصاب بالجنون.

***

وما ذنب الجدار حين تضرب رأسك به. أعرف أنك مررت بأحداث أليمة: كنت في فرح وفجأة تحول إلى مأتم. أنت رجل غريب، أربعة آباء لك، في ذلك الوقت، كنت تعرف أن والدك بالتبني مسعود الذي أحببته كثيراً انتقل إلى الرفيق الأعلى، ووالدك الحقيقي لا تعرف عنه شيئاً، فهو بحكم الميت، ولكن في المقابل هنالك أبوان وأمّان من الرضاع، أبو وأم دحيّم، وأبو وأم أنس، ولا تعرف إذا كان هنالك آباء آخرون وأمهات أخريات.

استفزتك كثيراً تلك الذكريات، وحزنت كثيراً على الشيماء التي عقدتَ قرانك عليها، وكنت في انتظار حفل الزفاف لتذهب بها إلى عشّ الزوجية. لقد أحببتها كثيراً، وهي أحبتك، وبكت كثيراً حين علمت بحرمتها عليك. مزقت ملابسها من القهر، وأغلقت على نفسها غرفتها.

الجميع يحبونك يا منير. أنت لم تقوَ على مقابلة أبي أنس إلّا بعد زمن، لترفض والدتك بالرضاع أن تقابلك في البدء، وبكل تأكيد ترفض الشيماء أبداً أن تراك، لأنها حينئذ ستبكي حظها العاثر. كنت تريد أن تسأل: هل أم عطية هي المرأة المريضة التي لا تقدر على إرضاع ولدها؟ حينئذ، ستكون أنت ابناً لذلك الرجل وسيكون كل من أنكر أن ليس لديه ابن كاذب، لكن إجابتها كانت أن هناك امرأتان، إحداهما أمك المريضة والأخرى كانت برفقتها، كل ما عرفته أم أنس أن المرأتين شقيقتان، وبكل تأكيد تتذكّر أنك ذهبت إلى قرية أبي عطية لتعرف اسم زوجته، ليقابلك أبناء الأخ الذي لحق بأخيه الذي مات حرقاً بعد عدة سنوات، ليخبروك بأنه لا علم لهم، ويؤكدوا أن أوراق زوجته احترقت، وهي غير سعودية، وتجلب العار.

ما سمعته منهم لا يشجعك أبداً على مواصلة البحث عن والديك. أنت لم تكتب هذا في مذكراتك، لأنك تريد أن تتجاوز تلك المصيبة، والمؤلم وأنا أعذرك على غضبك وضربك رأسك بالجدار، أنه بعد عودتك من مصر، كانت مصيبتك الأولى فقدك والدك بالتبني، ثم طرد عائلته لك. ولأكن صريحاً: فعلاً طردوك، دفنوك حياً مع أخيهم، لم يبحث عنك أحد ولم يسأل عنك أحد، وكان من الأولى أن يهبوك بعض المال من الملايين التي ورثوها من أخيهم مسعود لقاء خدمتك ورعايتك وحبك له، والسهر بجانبه إذا مرض ومساعدته على تكوين ثروته الكبيرة بنقله إلى مكة أو جدة أو إلى مواقع البيوت أو الأراضي التي يزمع شراءها.

ربما تصل نسخة من سيرتك إلى أحد أبنائهم، ويجدون ما كتبته عن عمهم مسعود، وموقفهم الرديء، ربما سيشعرون بالخجل من تلك المواقف، ولاسيما إن كان معتقدهم متطرفاً وليس على صواب، فمن يفخر بمن دنس حرمة بيت الله الحرام!

لا بدّ أن رأسك يؤلمك الآن، لديك دعوة هذا المساء لحضور حفل زواج ابن أحد الموظفين من زملاء العمل، وهو قد تعرفت عليه منذ مدة طويلة، ولكنه بقي زميل عمل فقط.

قم وهيئ نفسك، احلق ذقنك، والبس ثوباً نظيفاً، لك الحرية أن تلبس غترة بيضاء أو شماغاً أحمر، ضع بعض العطر، ابتسم، فأنت في الفترة الأخيرة لا تبتسم أبداً، وتوجه إلى مقر الحفل في حي السليمانية.

حتماً هذا التغيير سيدفعك أن تواصل الكتابة على نحو أفضل.

٢٠

لم يستطع أحد أن يخرج منير من حالة الاكتئاب التي أصابته، ألا يكفي أنه مجهول الهوية ليفقد الرجل الذي تبنّاه، ثم يفقد امرأة توقع أنها ستكون شريكة العمر؟ لقد أحب الطائف كثيراً، ولكن ها هو الآن يشعر أنه غريب عن هذه المدينة.

صديقه أحمد حاول أن يحفّزه على الكتابة: قصص خواطر... المهم أن يكتب، اشترى له جهاز فيديو ليشاهد بعض المسرحيات الفكاهية والأفلام العربية والأجنبية، وقال له: "اختر سوريا أو مصر أو المغرب، هناك سنجد لك شريكة العمر التي لن تكون أبداً أختك بالرضاع".

شعر سليمان بحالة منير النفسية، وطلب منه أن يرافقه مع بعض الأصدقاء لزيارة المدينة المنورة لبضعة أيام، لكن منير اعتذر منه، لأنه ليست لديه الرغبة في السفر.

ذات يوم قال له أحمد: "أتذكر تلك المرأة التي قابلناها في صالون الأدبية الكبيرة، والتي قالت إنك تشبه رجلاً في مدينة المنصورة؟"، كاد منير أن ينسى تلك المرأة والرجل الذي يشبهه، ليواصل أحمد كلامه: "أرسلت إلي رسالة منذ مدة وقالت إنها قابلت ذلك الرجل وأرسلت إلي رقم هاتفه لأتواصل معه".

- وهل اتصلت به؟

- اتصلت به مباشرة، وكان متحفظاً عن الحديث عن حياته الخاصة وأسرته، وطلب مني صورة خاصة لك وأخبرني بعنوانه البريدي لأرسل إحدى الصور

الخاصة بك، التي التقطتُها في القاهرة، وانتظرت ردّه، وقد طلبت أن يرفق مع الرد صورة له.

- وماذا كان الرد؟

- بالأمس وصلني رده، وقد كان مختصراً: "الرجل لا يشبهني ولا علاقة لنا بأحد في السعودية، ولم يرفق مع الرسالة صورة له، هذه الرسالة معي".

إحساس منير منذ لقاء تلك المرأة صادق، قد يكون له إخوة أو أخوات بالرضاع، إضافة إلى أبناء وبنات أبو دحيّم وأبو أنس، ولكن لا يعتقد أبداً أن له إخوة من صلب أبيه أكبر منه، أو أصغر منه. إحساس الإخوّة مختلف، فلو كان لذلك الرجل إخوة في السعودية أو ينتمي إليها، لبحث عن إخوته. هذا الكلام قاله لأحمد لينهي ملف شبيهه في المنصورة، وليطرح عليه فكرة تراوده في الأيام الأخيرة، فكرة أزعجت أحمد كثيراً، ولاسيما أنه الصديق الخاص له.

أخبره منير برغبته في مغادرة الطائف. لم يقل له إلى أين، ولكن مجرد مغادرة هذه المدينة الصغيرة تجعل المسافة بينهما تطول، فلا يستطيع أن يلتقي به كل يوم وفي أي وقت يريد.

قال له أحمد: "لديك الآن شقة واسعة وجميلة، يصعب أن تجد مثلها، كل ما تحتاجه، الزوجة فقط"، ثم يضيف بعد لحظة صمت من منير: "سأطلب من أخواتي أن يبحثن عن زوجة مناسبة، أنت تعرف أن أخواتي أكبر مني وجميعهن متزوجات، وبإمكانك الطلب من أخواتك بالرضاع أن يبحثن أيضاً، البيوت فيها كثير من النساء يبحثن عن أي رجل مناسب".

ابتسم منير قليلاً وقال لصديقه: "القضية ليست زوجة، القضية أكبر من ذلك".

لم يعلّق أحمد على كلام منير، فغادر شقته وهو يقول: "يا صديقي: فكر قبل اتخاذك القرار!".

***

لا أريد أن أجترّ الماضي، الماضي فيه كثير من التعاسة، أريد ولادة ثالثة، ولتكن هذه الولادة على يدي، لن أخسر شيئاً، ولكن حتماً ستكون هذه الولادة صعبة، سأنزف من الألم.

عشت عمري من الطفولة إلى الشباب في مدينة الطائف، وأنا الآن على مشارف الثلاثين، مقبل على منتصف العمر، أعيش الرتابة، حتى لو تزوجت، ما الذي سيتغير؟ زوجة، أبناء، وماذا بعد؟ سأكون مثل كثير من الآباء: حياة رتيبة، انتظار الأبناء ليكبروا ويتزوجوا، ثم أحفاد، شيخوخة، فموت؛ هذا سيناريو حياة غالبية البشر في كل مكان، ولكن يختلف مع اختلاف الأشخاص. متعة الحياة وتعاستها ليست بهذا المحور الذي يبدأ بالولادة وينتهي بالموت، بل بما يحدث على هامش هذا الخط المستقيم في الحياة.

ماذا لو قررت أن أصبح مطرباً، هم يعرفون منير الهادئ، الرزين، محب الأدب والفن، ولكن هو بعيد عن أن يغني، لا علاقة له بالطرب، وأنا فعلاً بعيد عن ذلك العالم الجميل الذي أحببته. هنا في الطائف سيدور جدل حول التوجه إلى الغناء، سيقاطعني بعضهم، ويحاربني آخرون، وبكل تأكيد سيسخر مني الكثير، لديّ أصدقاء وإن كان عددهم محدوداً، أقربهم إلي أحمد، ومعه وفق توجهه أصدقاء لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، ولكن هنالك أصدقاء، وربما أطلق عليهم أصدقاء مجازاً، مثل سليمان وعبد الرحمن وحسن، وأيضاً ناصر الذي لم

أره منذ زمن. بالطبع إخوة وأصدقاء، ومجموعة أخرى بعضهم أصدقاء لسليمان أو من أقاربه، وبعضهم أصدقاء لحسن، غالبية هؤلاء من الملتزمين دينياً، يختلفون تماماً عنّي، والأوقات التي ألتقي فيها أحمد وأصدقاء الأدب أقل بكثير من الأوقات التي ألتقي فيها البقية، ولاسيما بعد وفاة والدي مسعود، وفشل مشروع الزيجة. بعضهم يرون أنني نموذج مهيأ لشخصية المجاهد، كل ما أحتاجه لأتغيّر مجموعة أفكار أعتنقها بعد الإيمان بها، ترتبط بالإسلام شكلاً، وأنا عقيدتي قوية وإسلامي متين، ولكنني لست مقتنعاً بآراء "الإخوان" أو السروريين أو السلفيين الذين يدعون للجهاد.

أحمد غير مهيأ لأنه لا يواجه نقصاً مثلي، له أسرة تخاف عليه، ولديه إخوة يستشيرهم ووالد ينصحه، وأنا ليس لدي إلا سليمان وحسن اللذان يريان أن الإسلام مستهدف، فيجب الذود عنه. آمنت بالله، الإسلام عظيم وقوي، وسيقوى بتوجه المسلمين إلى بناء الحضارة واكتساب العلم والمعرفة. هنالك أشخاص مثل عبد الرحمن الذي لم يكن متديناً مثل أخيه حسن، بل محافظاً على الفرائض دون غلوّ، الذي قال لي ذات يوم: لا تربط حياتك بمكان معين، ربما رِزْقُك في مكان كنت تكرهه، أو تخاف العيش فيه. تجربته في المجال العسكري شكلت رؤيته هذه، فسنوات طويلة عاشها بعيداً عن والديه، وعاد إليهما أخيراً بعد رحلة عمل ناجحة حقق فيها ما يؤهله للاستقرار بجانبهما.

قررت مغادرة الطائف التي سأبقى أحبها طول العمر، لا أريد أن أخبر أحداً بذلك سوى أحمد، ستكون وجهتي إلى مدينة قدّمها القصيبي لي بصورة امرأة جميلة عُرِفَ عنها "ترحيبها بالغريب الجريح"، لأردد معه:

وفاتنة أنت مثل الرياض

ترقّ ملامحها في المطر
وقاسية أنت مثل الرياض
تعذّب عشاقها بالضجر
ونائية أنت مثل الرياض
يطول إليها، إليك، السفر

***

كل شيء مختلف، أنت تعرف هذا، لقد تعودت كثيراً الطائفَ، هنا في الرياض أناس وهناك أناس، هنا شيء من الصخب وإن كان بسيطاً في سنواتك الأولى وهناك في الطائف هدوء، هنا أنت وحيد فعلاً، وهناك علاقات ممتدة منذ طفولتك، هنا مستقبل غير واضح وهناك ذكريات كثيرة ومريرة.

بعد عودتك من حفل زفاف ابن صديق العمل السابق جئت متحمساً للكتابة، كنت تريد أن تكتب عن انطباعاتك عن الحفل، لكن وجدت أنه لا جدوى من كل ما يكتب حول أي حفل زواج في نجد. أنت تعرف أن زمن الصحوة انتهى، ولكن حتى الآن لم يدخل الفرح من باب أغلب الاحتفالات: الضيوف يحضرون ليباركوا للعريس، يتناولون الطعام على عجل ويغادرون، الموسيقا غادرت منذ أحداث الحرم المكي الشريف، ولكن أين التراث الشعبي شعراً رقصاً عرضات شعبية مصحوبة بقرع الطبول، كثيرون من الناس يرغبون في أن يرقصوا فرحاً، وخاصة ممن تربطه بالعريس صلة، ليعبّروا عن فرحهم، الابتسامة لا تكفي، ومن يضحك بصوت مرتفع، سيقال عنه مختلّ. إذاً، ليمارس الجميع الفرح، وليمارس الناس هنا فرحهم بصمت.

كل ذلك الكلام يعتلج داخلك، كنت تريد أن تكتب ذلك وتعلّق على كل ممارسة غير منطقية. أنت تتذكر في سنواتك الأولى من إقامتك في مدينة الرياض لما جاء سليمان لحضور حفل زواج صديق له، ذهبت بصحبته كالعادة، فوجئت أن ذلك "الرجل المهم" الذي حضرت حفل الاحتفاء به في الطائف في حي شهار كان حاضراً ذلك الزواج بصحبة مجموعة من الرجال المهمين مثله، وربما بعضهم يتفوّق عليه بالأهمية. ليس هناك مشكلة بحضور أولئك لأنهم جزء من المجتمع، ولكن ما أزعجك ولم تقدر أن تعلق عليه حينذاك احتراماً لسليمان أن حفل الزفاف تحوّل إلى تبجيل لأولئك الرجال، وسماع لما يتحدثون به... الذي يبدأ بمباركة للعريس ودعوات طيبة له، وينتهي بحديث مطول عن الحياة الدنيا وأنها ليست دار قرار، ويختتم بالحديث عن أهوال عذاب القبر. وقتهذاك حاولت أن تسلّي نفسك لتتذكر مقطعاً لعادل إمام في مسرحية مدرسة المشاغبين، وهو يقول: "أنا أتزوج إزاي"، حين قالت له سهير البابلي: "سوف أقسمك إلى نصفين".

جميل أنك لم تتحدث عن حفلات الزواج وسردت مرحلة مهمة من حياتك ستكون مختلفة في بعض الأحداث، ورتيبة في علاقتك بالعمل، لأن قرارك أن تلتزم العمل دون أن تجهد نفسك، ورئيسك بالعمل وفق ما وصل إليه من معلومات عنك، سيقدّر ذلك، فأنت مهما حاولت، فستبقى مختلفاً.

كزيجات أغلب أهالي نجد التي تنتهي باكراً ليكون لك وقت متّسع للكتابة وهذا ما حدث، وأنت عائد إلى شقتك كنت تتمنى لو قابلت أحد الضيوف وقال لك: "أنا الذي اتصلت بك منذ أيام، وأرسلت بعد ذلك رسالة نصية عبر هاتفك المحمول" لتتعرف عليه وترتاح من مأزق الموعد واللقاء، وهذا ليس مستحيلاً أو مستبعداً،

فحفلات الزواج وأيضاً من جانب آخر أيام العزاء، وخاصة في المقبرة، مكان مضمون للقاء أشخاص لم تلتقِ بهم منذ زمن بعيد.

ولكن هذا لم يحدث، قابلت بعض أصدقاء العمل، ومن ضمنهم ذلك الرجل الذي قابلته في اليوم الأخير لك، والذي أوصلته إلى بيته، إذ بدأ يكرر حكاية ذهابه معك من العمل إلى بيته وحواركما وتكتمك عن خبر تركك العمل، قالها على مسمعك لثلاثة أو أربعة أشخاص، وليجلس بجانبك، ويتحدث، تمنيت وقتئذ لو كانت هنالك على الأقل فرقة شعبية تغني، ربما يصمت ويريحك. لم يتوقف الأمر على ذلك، ولكن سعى إلى أن يحصل على رقم هاتفك المحمول، قائلاً: "إذا تركتنا، فنحن لن نتركك، أنت صديق عزيز".

بعد هذه الليلة المختلفة عليك أن تنام لتستيقظ باكراً وذهنك صافٍ، وتواصل حكايتك.

٢١

لم تغادر مريم أم دحيّم المستشفى إلا إلى المقبرة، تدنّت حالتها الصحية، ولم تُجدِ محاولات الأطباء في المستشفى العسكري إعادة النبض إلى قلبها الذي توقف، والذي يحمل الحب للجميع ومن ضمنهم منير الذي ازداد حزنه لمفارقة أمه التي باح لها أكثر من مرة بما يعتلج في صدره.

الحزن خيّم على أسرة أبو دحيّم. قابل منير ناصر بعد سنوات لم يره فيها. لاحظ أنه حليق الشارب واللحية، وعلم أنه بصدد استكمال دراساته العليا في أميركا في مجال الهندسة.

الحزن كان أقوى من كل نقاش وجدل، وفقد الأم يجمع الإخوة والأخوات حول الأب ليبحثوا معه عن بوصلة تدلهم على الاتجاهات، فيجدون أن البوصلة فقدت وجهتها، ومع ذلك، ليس هنالك ضياع للأسرة، وخاصة الشيخ الأب الوقور الذي شارف على الثمانين، فعبد الرحمن وحسن يقيمان بالقرب منه، وإن كان حسن يتردد على مكة متابعاً دراسته العليا في الشريعة، ولكن يبقى قريباً من والده، ولاسيما أنه تزوج ورزق بأطفال كانوا قريبين من جدهم. أما ناصر، فغالباً سيبقى في المنطقة الشرقية، لم يتزوج بعد، وحسنة مقيمة بالقرب من والدها مع زوجها سليمان صديق منير ووسيط مشروع زواجه العاثر الأول. أما الابنة الثانية مها، فاستقرت في مدينة جدة برفقة زوجها، والابنة الصغيرة "مجازاً" عبير، التي رضع منير معها من حليب أمهم مريم، انتقلت إلى الرياض برفقة زوجها منصور

الذي أعطى منير بطاقة عليها عنوانه وأرقام هواتف عمله ومنزله، طالباً منه أن يزوره في أي وقت يقدم فيه إلى الرياض، لأن ذلك سيسعده.

لم يخبر منير أحداً بمشروع الانتقال إلى الرياض طالباً من أحمد أن يبقي ذلك سراً، ليبدأ ذلك المشروع بالتحدث مع رئيسه في العمل ومالك الشركة ويخبره برغبته في الانتقال إلى الرياض، فقال له: "ما مر عليك في هاتين السنتين الأخيرتين من ظروف صعبة لا يتحمّلها إلا الرجال الأقوياء، وفكرتك جيدة بالنقل من أجل التغيير، رغم أننا سنفتقدك".

لقد كان يعرف وضع منير جيداً لصداقته أولاً مع مسعود، ولأن منير يخبره تباعاً بما يحدث له، ففي سنوات قليلة مات والده بالتبني، ولم يقدّره إخوة ذلك الولد ويبقوه في بيته حتى يتدبر أموره، وأخفق مشروع زواجه بحكاية لا يصدقها العقل، وأخيراً موت أمه بالرضاع. لحسن حظّ منير، كان ذلك الرجل مساهماً في شركة حديثة الإنشاء في الرياض، وكانت ترغب في استقطاب بعض الموظفين ذوي الخبرة، فاتصل مباشرة بمدير شركة الرياض ليخبره بأمر منير، ليوافق ذلك المدير مباشرة على تعيينه في الشركة. بالطبع صديق مسعود كان حريصاً على منير، لذا اتصل بمدير الشركة في الرياض لاحقاً، ليخبره بوضع منير مفصلاً، حتى يعامله معاملةً خاصةً وليكسب أجره.

طلب منير من مديره في الطائف ألّا يعلن خبر انتقاله إلى الرياض، يريد أن يغادر الطائف بهدوء، وهذا ما حدث. بعد أيام قليلة غادر منير إلى الرياض، وتوجّه إلى مقر الشركة في شارع الخزّان، ليقابل المدير الذي رحب به كثيراً، وأمر بتهيئة مكتب مناسب له، وطلب من أحد الموظفين أن يبحث له عن سكن قريب من العمل، فكانت شقته الأولى في حي الشميسي.

استطاع منير أن ينقل ما تحتاج إليه شقته الجديدة من الطائف إلى الرياض، وأن يوزع ما يفيض عن حاجته بيعاً وإهداء وصدقة لبعض الجمعيات الخيرية. مشروع النقل مضى بصورة سريعة لدرجة تفاجأ منها الجميع، الأمر الذي جعل سليمان يتصل ببعض أصدقائه في الرياض ليتواصلوا مع منير، ويساعدوه في حال رغبته. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أعطاه مجموعة من الأرقام لأهل الخير في الرياض ليكتسب علماً ومعرفة.

ودّع منير الجميع وعلى رأسهم والديه بالرضاع جابر "أبو دحيّم" وناجي "أبو أنس" الذي عاتبه على مشروع النقل قائلاً: "ما صدّقنا أن يكون لنا ابن حتى تغادر، ما حصل إلا خير، الآن أصبح لديك ثلاثة أخوات وأخوان أيضاً، وهما زوجا ابنتي، إذا كانت المشكلة الزواج، ستبحث لك أم أنس أفضل وأجمل امرأة". شكره منير كثيراً وقبّل رأسه، وقال له: "لن أترككم، ولكنني محتاج إلى أن أحسّن وضعي الوظيفي والمعيشي، والجميع يعرفون أنه هنا في الطائف تبقى الشركة صغيرة والفرص الوظيفية محدودة، لا مجال لزيادة الراتب أو تحسين مستوى الوظيفة على عكس الرياض المتجددة والمتغيرة".

في أعماق أحمد رغبة قديمة كان يئدها كلما بدأت تشغل ذهنه، وهي الذهاب إلى جدة أو الرياض والعمل في إحدى الصحف أو المجلات. هو يعرف أن بإمكانه مراسلة أي صحيفة أو مجلة ونشر قصائده وكتاباته، ولكن يبقى صحافياً عن بعد، وهذا ليس فيه أي متعة، وقد سبق أن أشرف على مجلة أصدرتها إحدى المؤسسات في الطائف، وقد كانت تجربة ممتعة ساعده فيها منير، إذ كتب افتتاحية لتنشر باسم مدير المؤسسة مصحوبة بصورة ذلك المدير لابساً البشت.

الجميع يعرفون أن ذلك المدير لا يستطيع أن يكتب جملة مفيدة، فما بالكم بمقالة، ولكن لا بأس، إضافة إلى ذلك، كانت غالبية الصفحات من تحريره.

متعة مارسها أحمد بإصدار مجلة فيها مجموعة من الأخبار والتحقيقات مع مقالات وصفحات ثقافية شارك فيها بعض أصدقاؤه الأدباء وعلى رأسهم منير، المكافأة لم تكن مجزية أبداً، ولكن كانت هنالك تجربة ممارسة تحرير المجلة ومتابعة عمل مخرج قدم من مصر ليعمل في الغرفة التجارية، ليخرج مواد تلك المجلة، ويضع الصور المناسبة والرسومات، فيتابع أحمد بعد ذلك طباعتها، ولتصدر بعد ذلك بصورة متميّزة. تجربة كانت فعلاً جميلة لعدد يتيم صدر عن تلك المؤسسة، ولكن شغف الرغبة جعل العمل الصحافي لدى أحمد يزداد ليفكر في مغادرة مدينة الطائف إلى جدة أو الرياض.

تجربة إصدار ذلك العدد الوحيد من المجلة جعلت منير يتعرف إلى مبدع من مصر هو المخرج الصحافي أشرف الذي عُرِفَ أنه فنان تشكيلي ومهتم بالثقافة والأدب، وله علاقة بكثير من الأدباء والمثقفين في الوطن العربي، وقد استفاد أشرف من هذه العلاقات لينتقل من الطائف للعمل في مؤسسة صحافية كبيرة في الرياض.

منير قرر أن يتواصل مع أشرف بعد استقراره في الرياض، وأحمد رسم لنفسه طريقاً جديداً، ربما هذا الطريق وافق هوىً لدى والديه، ولاسيما أنه سيتزوج بابنة عمه. المختلف بذلك الزواج أن البنت مدرّسة في المرحلة المتوسطة للبنات في جدة. لذا، قدّم طلباً للنقل إلى جدة ليعمل هناك، وفي الوقت نفسه يتزوّج ويستقرّ، وبعد ذلك التسلل إلى بلاط الصحافة ليعمل في إحدى الصحف محرراً أدبياً.

الأحداث التي جاءت بعد رحلة القاهرة للصديقين منير وأحمد كانت سبباً في أن يكون أحدهما في الرياض والآخر في جدة، ليبتعد كل واحد عن الآخر، ويتشكّل وفق البيئة المحيطة به.

***

أن تنتقل من مكان إلى مكان ليس أمراً هيّناً، فما بالكم بالانتقال من مدينة هادئة إلى مدينة كبيرة وصاخبة إلى حدّ ما. يصعب عليّ مغادرة الطائف، ولكن لم أستطع أن أهرب من الماضي، كل يوم أتوجّه إلى حي الشرقية أتأمّل البيت الذي عشت فيه جزءاً كبيراً من عمري، كنت أتمنّى أن أجد والدي مسعود جالساً على رصيف البيت كعادته سابقاً مع بعض أصدقائه، أراقب المصلّين الخارجين من المسجد من بعيد، ربما يكون بينهم، أنا أعرف متى يخرج من المسجد، ومن يرافقه بالخروج.

حتى لو كان مقرّ سكني بعيداً عن حارة الشرقية، ولكن هناك أماكن كثيرة مررت بها مع والدي مسعود. حتى مكتب الشركة، أتذكر زياراته المتباعدة إلى مديرها، وجلوسه مع المدير في مكتبه، وضحكهما، وأحاديثهما الطويلة.

غالباً أتركهما وأتجه إلى مكتبي، ربما لديهما بعض الذكريات، ذكريات بكل تأكيد لا أعرفها، وربما لا يرغبان في أن أعرفها. لم أفكر بذلك ولم أسأل والدي مسعود عن علاقته بذلك المدير الطيب، وبالمناسبة علاقاته كثيرة ومتنوّعة، من ضمنها علاقته برجل دين وقور يأتي كل صيف إلى الطائف، يحتفي به والدي مسعود ويعدّ له وليمة مناسبة. الجميل بساطة ذلك الرجل وتواضعه، كل من يجلس معه ويستمع لحديثه يشعر بعظمة الإسلام وسماحته، يختلف كثيراً عن

أولئك الظلاميين، وبكل تأكيد لا علاقة لذلك الرجل بأولئك الممجدين من "الرجال المهمّين" الذين اكتسوا بوشاح الصحوة بخيوط سرورية وإخوانية.

فَقَدَ والدي مسعود ذلك الرجل الطيب، رجل الدين الوقور، قبل حادثة الحرم، حيث مات كما قال لي والدي في يوم من أيام الجمعة بعد أن صلى الفجر.

هنالك أناس أنقياء يحبهم كل من رآهم وقابلهم، قد لا يكونون عظماء أو مشاهير، قد يكونون بسطاء جداً، ولكن لهم وهجهم الخاص، ربما كان والدي مسعود أحدهم، وكنت أتمنّى لو كنت مثله أو مثل أولئك البسطاء الأنقياء، ولكنني خائف من تقلبات الحياة. أخاف أن أتشوّه بممارسات قد لا أكون متعمّداً فعلها، ولكن لشخصيتي الضعيفة والمسالمة والتابعة، أجد نفسي منقاداً لممارستها، وفي الطائف ربما يتحقّق ذلك أكثر من الرياض التي بما أنها كبيرة وفيها عدد كبير من السكان يتوه الساكن فيها، ولا يجد من يتتبعه أو يوجهه إلى الطريق الذي يريده.

قرار انتقالي إلى الرياض محاولة كي تبقى سمة الطيبة والنقاء التي ورثتها من والدي مسعود، محاولة للانتقال من بحيرة ساكنة إلى بحر متلاطم الأمواج، فهل سأكون البحار القادر على خوض عبابه؟

***

كنتَ موظفاً، وتركت عملك، لم تفكر أبداً أن ترصد تجربتك بالعمل لسبب مهم هو أنك أردت أن تكون موظفاً عادياً ليس لديه طموح، لا تريد أن تكون رئيساً، مقتنعاً براتبك البسيط. لذا، أنت ظاهرة شاذة، من النادر أن يوجد مثلك، عملك في شركة الطائف ثم في شركة الرياض جاء عبر توصية. التوصية الأولى من والدك مسعود لصديقه مدير شركة الطائف. اختار لك عملاً بسيطاً في الشؤون المالية

رغم أنك تكره الرياضيات والأرقام الحسابية، ولكن ربما كان ذلك أفضل لك، لا مجال للابتكار، هنالك حقول معيّنة، وبيانات ترصد، هنالك صح وخطأ، ولا شيء بينهما، وهذا يتطلّب دقةً ودرايةً وحضور ذهن، وحين يصعب الأمر، تتجه إلى الآلة الحاسبة التي تعطيك نتائج محددة.

لم تكن غامضاً أبداً، فمنذ أول يوم بدأته في العمل في الطائف اتضح لمديرك نقاط القوة لديك ونقاط الضعف، وهذا أراحك جداً، وأراح كل من يتعامل معك.

التوصية الثانية من مدير شركة الطائف إلى مدير شركة الرياض عندما قررت الانتقال من الطائف إلى الرياض، وبقيت في المجال المالي، ولكن تغيّر المكان والشركة، وأنت كما أنت سابقاً.

مفارقة غريبة: أنت مهتمّ بالكلمة، تقرأ وتكتب، وعملك أرقام تجمع وتطرح وترصد. رداء العمل يختلف تماماً عن ردائك الطبيعي، ربما تقول إن الثقافة والأدب هواية وموهبة وملكة فهنالك كثير من المهندسين والأطباء أدباء، أتّفق معك، ولكن أعود وأقول: ألا تستحق سيرتك الوظيفية أن ترصد؟ أراك تضحك وتقول: "لو أردت أن أؤلف كتاباً سيكون اسمه موت في الإدارة"، ألا تتذكر نصيحة ذلك الرجل الذي وصّلته إلى بيته في آخر يوم لك في العمل حينما أشار إلى أنك من قدماء الموظفين في الشركة ولديك الخبرة التي يجب أن يستفيد منها كل موظف مستجدّ. لم تعلّق على حديثه، قلت فقط: "جزاك الله خيراً". إنه صادق؛ لديك تجربة، هل هي جيدة أو سيئة، لا يمكن تحديدها الآن، ولكن لننظر إلى تجربتك في العمل بصورة إيجابية، أولاً، طوال سنوات عملك التي ربما تجاوزت الثلاثين لم يبدر منك مخالفة أو تصرف أخذت عليه إنذاراً أو لفت نظر أو تنبيهاً بسيطاً من مديرك المباشر، وهذا أمر مهم، فسلامة السجل الوظيفي من خطابات

التوجيه والإنذار مطلب كل موظف يطمح إلى تحسين وضعه الوظيفي، ثانياً مسيرتك الوظيفية وسعيك أن تكون كما أنت، موظفاً مرؤوساً وليس رئيساً، يدلّ كل من يرغب أن يكون رئيساً أو مديراً على الأسباب التي لا تحقق ذلك، فيمارسون العمل بصورة مختلفة عنك، يقتربون من رؤسائهم وبقية المسؤولين، يمدحونهم، يتملقونهم، يبحثون عن ملاحظات على زملائهم في العمل ليوصلوها إلى المسؤولين فيضمنوا بذلك تقدمهم بخطوة، وتأخر أولئك الزملاء خطوة أو خطوات، وهذا يجعلهم أكثر قرباً من المنصب القيادي.

أمر أخير حول مسيرتك الوظيفية هو قدرتك طوال تلك السنوات أن تضع حولك حاجزاً، فلا يتمكن أي موظف من معرفة حياتك الخاصة وسيرتك، والأهم أنك بلا أبوين معروفين، ولو عرف أغلب الموظفين ذلك، لتغيرت معاملتهم لك، فبعضهم سينظرون بعين الرأفة لأنك يتيم أو لقيط، وآخرون سيجدونك غير سويّ، وربما يتهربون منك، لتوقعهم أنك نتيجة لممارسة شاذة. لذا، كنت دقيقاً وحريصاً على اختيار زملاء العمل الذين تقرّبهم منك.

فكّر كثيراً حول سيرة العمل، ولكن قبل ذلك ركّز على سيرة حياتك الخاصة، التي يكون العمل جزءاً منها، واستمر في رصدها.

٢٢

بعد عدة أشهر من استقراره في الرياض، وبعد أن بدأ يتعرف ويتكيّف مع مدينته الجديدة، طلب منه مدير الشركة عبد القادر أن يزوره في بيته. كانت هذه أول دعوة له داخل الرياض لزيارة بيت رئيسه في العمل. وافق منير مباشرة ليرسم له المدير مخطط الطريق لمنزله.

كانت أول مرة يذهب فيها منير داخل حي الملز، علماً أنه سبق أن ذهب إلى شارع الستين الذي عُرف في ما بعد بشارع صلاح الدين الأيوبي، برفقة صديقه المخرج الصحافي المصري أشرف الذي دله على مكتبة "دار العلوم"، التي فيها الكثير من الكتب المتميّزة، وخاصة الأدب الحديث ومجموعة من الكتب الإبداعية التي أصدرتها الدار.

كانت الدعوة لتناول العشاء مساء، وكان الموعد بعد الصلاة، تذكّر منير وقتذاك دعوة سليمان له، لكن ثمة اختلاف كبير بين عبد القادر مدير الشركة، وسليمان، لبس منير ثوباً أبيضَ كان قد أحضره من "مغسلة ملابس" قريبة من شقته، حيث حرص على وضع قليل من "النشاء" لإزالة تجاعيد الشماغ الأحمر، كان منير حريصاً على نظافته وأناقته، تعلّم ذلك كثيراً من مسعود.

وفق المخطط الذي رسمه له عبد القادر، وصل إلى قصر صغير، على واجهتين، أوقف سيارته، وبترددٍ، ضغط على زر جرس البيت ليفتح له خادم آسيوي مرحباً، قائلاً: "الأستاذ منير، تفضل"، وجد أنها بداية مشجعة. سار خلف العامل مخترقاً حديقة فيها مجموعة من الأشجار، ولاحظ في الجانب الآخر من

فناء البيت مدخلاً للسيارة فيه سيارة المدير وسيارة أخرى، استقبله مديره عبد القادر بثوب بيتي حاسر الرأس عند مدخل القصر، وبقي ممسكاً بيده حتى أدخله إلى مجلس كبير فيه رجل بذقن صغيرة وقف عند دخولهما، فعرفه إلى الرجل قائلاً: "هذا زميلنا الجديد في الشركة، منير، قدم من الطائف". صافح منير الرجل وجلس على مقعد مستقل بين الرجلين، ليواصل المدير حديثه ويقول لمنير: "أعتقد أن هذه أول مرة تقابل أبو حسين؟".

أجاب منير بالإيجاب، ليتحدث أبو حسين قائلاً: "لقد زرت الطائف كثيراً، وقد أعجبني جوّها الجميل وأهلها". أثناء ذلك قدم خادم آسيوي آخر القهوة والشاي. دار الحديث حول أمور مختلفة منها المظاهرة الإيرانية السياسية في مكة التي تسببت في وفاة أكثر من أربعمئة حاج، إذ أكد عبد القادر أن "الدولة كانت صارمة في موقفها، فهي لا ترغب في أن يكون موسم الحج للممارسات السياسية، وبثّ التفرقة والطائفية، لأن الشريعة السمحاء جعلت جميع المسلمين في يوم عرفة سواسية بلباس أبيض واحد"، فعقّب أبو حسين: "منذ بدأت الثورة الإيرانية وملاليها يحاولون تصديرها". شارك منير الحديث قائلاً: "أتذكر قبل سنوات كنا ننتظر الحجاج الإيرانيين والأفغان، حيث يتوقفون في منطقة تدعى الركبان وسط الطائف، وكان أهالي الطائف يشترون منهم السجاد والمسابح والفستق".

طال الحديث وتشعّب، لينهض عبد القادر، ويقول: "هذه زيارة بسيطة للتعارف، تفضلوا لتناول بعض الطعام". تبعه أبو حسين ومنير إلى غرفة فيها طاولة طعام ليجلس في الوسط، ويجلس أبو حسين على يمينه، ومنير على يساره. بدؤوا الأكل مختارين مما وضع في أوانٍ مغطاة ما يرغبون، ثم يضعونه على

صحون أمام كل واحد منهم. تذكّر منير طعام بعض الفنادق والمطاعم الكبيرة التي تقدم "البوفيه"، وبالطبع، رأى أن هنا أرقى وأجمل، فكان أفضل عشاء تناوله منذ زمن.

بعد تناول العشاء، عاد الثلاثة إلى مقاعدهم وأحضر خادم آسيوي شاياً أخضر، وشكر منير مديره عبد القادر على هذه الدعوة والضيافة، فقال المدير: "ثمة أمر آخر بتوصية من مديرك السابق في الطائف أريد أن أتحدّث عنه، أعرف أنك لم تتزوج بعد، وحدث أن تقدمت إلى واحدة وبإرادة الله فوجئت أنها أختك بالرضاع، وأنا أعرف أبا حسين منذ سنوات طويلة، من الناس الفضلاء أهل الخير، وجانب آخر له أنه وسيط زواج"، ليضحك بهدوء ويواصل حديثه قائلاً: "زوجتي وزوجات بعض الأصدقاء لا يحبذن زيارته، أنت تعرف السبب". قال أبو حسين: "يعلم الله أنني من الموحدين (لا أحب التعدد) رغم أن ديننا الحنيف أوصى به مع العدل"، فوجه عبد القادر حديثه إلى منير: "الآن يا منير، إذا كانت لديك رغبة في الزواج، فهذا أبو حسين سيساعدك، يعرف مجموعة من الخطّابات، وسيبحث عن المرأة التي تناسبك وتتفهم ظروفك". لم يعلق منير على حديث عبد القادر، فقدم أبو حسين مجموعة من القصص عن زيجات سعى فيها ونجحت منذ زمن طويل، وأثناء ذلك كان منير يفكر قائلاً في سريرته: لماذا التردد، كنت متردداً بالضغط على جرس الباب، وها هو اللقاء جميل والعشاء لذيذ، لماذا تتردد؟

قرر منير بعد ذلك قائلاً: "توكل على الله يا أبا حسين وابحث لي عن ابنة الحلال التي ترضى بيتيم متوسط الدخل".

فعلق عبد القادر قائلاً: "وأنا وصديقي مدير الشركة في الطائف، وكثير من الأصدقاء سيكونون عوناً لك، لأنني سمعت أنك محبوب ومقدر من الجميع".

رد منير وقد شعر بغصة داخل حلقه: ''الحمد لله''.

***

أحتاج إلى امرأة تلطف عليّ حدّة طقس الرياض في الصيف والشتاء، تعبت كثيراً من بقائي وحيداً، وأنا بكل تأكيد لست مثل والدي مسعود، أُفضل العيش وحيداً دون نساء، بل أرغب أن أقترن بامرأة، أحلم بالنساء وأحبهن، حبّ لا يمكن تفسيره، هل هو صدى لنزوة خاصة، أريد امرأة تشكلني من جديد، وفق رأي أحمد.

العمل لا يأخذ جل تفكيري، ليست لديّ مشكلات، ولا أعيش صراعات اجتماعية، ما أعيشه صدى لقراءاتي واهتماماتي الثقافية، وتحديداً الأدبية. أحتاج إلى أن أغادر عالماً وجدت نفسي فجأة منغمساً فيه، جزءاً منه أحياناً، وضده في أوقات قليلة. لم يبدأ هذا العالم بعد انتقالي إلى الرياض بل قبل ذلك، ففي الثمانينيات الميلادية أُوقِدت شعلة الحداثة، لتتوهّج وتضيء أرجاء الوطن كافة. في المقابل، كانت الصحوة تتشكل، لم أفكر بالحداثة ولا بالصحوة، ولكن هذا لا يعني أنني بعيد عنهما، فاهتماماتي القرائية وحبي للأدب الحديث والمختلف تجعلني أتابع وأقرأ وأتواصل مع كثير من الشعراء وكتاب القصة والنقاد. من جانب آخر، قويت علاقتي بسليمان وأصدقائه الذين بدأت الصحوة تشكلهم يوماً بعد يوم.

ففي الوقت الذي صعد فيه الأمير سلطان بن سلمان إلى الفضاء ودار حول الأرض بالمكوك الفضائي ''دسكفري''، كان الجدل في الأرض حول الحداثة يتصاعد، جدل انطلق من صراع أجيال بحضور قائمة جديدة من الشعراء احتلت

المنابر وتجاوزت حدود الدولة إلى مهرجانات عربية كبيرة. قائمة الأسماء الجديدة هذه سحبت البساط من مجموعة لم يكن لها بريق واضح في المشهد الثقافي، وباسم الحفاظ على الأخلاق والدين، أفردت بعض الصحف والمجلات صفحات تناقش فيها أرباب الحداثة في العالم بصورتها الفكرية والحركية. كان وقتي يضيع بقراءة تلك المقالات التي وصفت ما يحدث بأنه خروج عن القيم التقليدية، فيما يرى أغلب الجيل الجديد أن الأمر لا يتجاوز العمل الإبداعي.

أنا لا أتابع مباريات كرة القدم، وأجهل أسماء أغلب الأندية الرياضية، ولكن ها أنا أتابع مباراة بين فريقين، فريق مع الحداثة وفريق ضدها، وأرى أن الأمر مبالغ فيه في النقاش، ومن جانب آخر ثمة بعض الاستفزاز ممن ينتمي إلى التيار الحداثي.

قبل أن أغادر الطائف كنت ألتقي بأحمد وبعض أصدقاء الأدب لنناقش ذلك الجدل، فمن جانب آخر نعلّق على ما ينشره بعض المبدعين من قصائد ونصوص شعرية، وحين صدر كتاب **الخطيئة والتكفير** للدكتور عبد الله الغذامي، أحضر أحمد عدة نسخ من نادي جدة الثقافي. كل واحد أخذ نسخة من الكتاب لنقرأها ونفتح نقاشاً حولها، بعض الأصدقاء اصطدم بعدة مصطلحات نقدية قابلته على الغلاف مثل البنيوية والتشريحية والسيميولوجية وتشريح النص، أما أنا، فتصفّحت الكتاب دون قراءة خوفاً من رد فعل يحدث لي مشابه لما سبق في تجربتي القرائية، فتوقفني عن القراءة، مثلما حدث ذلك عندما قدم إلي ذلك الرجل بعد صلاة المغرب مجموعة من الكتب من ضمنها **معالم في الطريق**، وطلب مني قراءة كتب من ضمنها **جاهلية القرن العشرين**، التي كادت أن تنهي علاقتي بالقراءة، وأتوقف عن تلك المتعة، لولا نصيحة والدي مسعود برفض الانصياع

لأي رأي لا يوافق هواي. الأمر مع **الخطيئة والتكفير** يختلف تماماً، فالكتاب يقدّم قراءة نقدية حديثة، ولكن قد تكون بعض القراءات شائكة ومجهدة ذهنياً، وهي في تلك الفترة مجهدة نفسياً وذهنياً لي.

حينما استقررت في الرياض فوجئت بتسجيل على شريط "كاسيت" ضد الحداثة، ليفرغ آخر ذلك التسجيل الصوتي ليكون مقروءاً ويصدر ككتاب. ما أزعجني هو التكفير لعدد من الأدباء وإخراجهم من الملّة، لأنهم أعجبوا ببعض الأدباء والمفكرين من الدول الغربية، وأيضاً العربية، وتأويلهم بعض النصوص، من أولئك صديقي أحمد الذي كتب نصاً من الشعر الحديث وكتب في مقدمته إهداء لأديب عربي.

دار جدل حول ذلك الكتاب، وأصبحت الحداثة تهمة، وخبا أصوات كثير من المبدعين.

ذات مساء دعاني أشرف لزيارة شقته الصغيرة في حي منفوحة، والاطلاع على بعض لوحاته الجديدة. سعدت بتلك الدعوة، ولاسيما أنه بدأ يصيبني الملل من رتابة حياتي الجديدة التي بدأت منذ قرابة الشهرين بعدما قُسمت بين مكانين: العمل والبقاء في شقتي.

استقبلني أشرف بالترحاب، وعرّفني إلى مجموعة من الأدباء وبعض الفنانين التشكيليين، ودار حديث حول الحركة التشكيلية، لينطلق الحوار بعد ذلك إلى ما أصدره بعضهم عن الحداثة والموقف منها، ما لم أستوعبه كثيراً حديث أحد المهتمين بالشأن السياسي والفكري، عن أن ما كُتِبَ حول الحداثة وخطورتها ليس حرصاً على الدين بقدر ما هو خوف من وجود تيار قوي يجهض تيار

''الإخوان المسلمون''، ليدور في ذهني سؤال وجهته إلى ذلك المفكر: ''هل المؤلف ينتمي إلى تيار ''الإخوان''؟''، فأجابني مباشرة: ''أتوقع ذلك''.

***

أنت قلتها بكل صراحة أحتاج إلى امرأة. الموقف من الحداثة لم يبقَ أمراً خاصاً، بل أصبح موقفاً عاماً لكل من استمع إلى شريط التسجيل وقرأ الكتاب، وأنت لك ميل كبير إلى الإبداع الحداثي. لذا حتماً ستخسر لو وقفت بجانب الحداثة أو دافعت عنها. من جانب آخر أنت لم تتفاعل مع موجة الصحوة التي غزت كل مكان، حتى أصدقاء العمل الذين كانوا يتفضلون عليك بصورة شبه يومية بمنشورات وكتيبات وأشرطة في الطائف والرياض لم يقدروا أن يغيروا قناعاتك.

لقد بدأت الصحوة بتشكيل المجتمع وفق رؤيتها، أمر جميل العودة إلى الله ومحافظة الشباب على أداء الصلوات في أوقاتها، ولكن أعرف أنه أزعجك وأزعج الكثير ذلك الإحساس بأن الإسلام مستهدف، ويجب توجه الجميع بدعم قتال الأفغان بالمال والنفس، كأن الذهاب إلى أفغانستان أصبح متعة.

لقد كان قراراً صائباً اتخذته لتغادر تلك الدوامة المزعجة التي ستحيط بك ما دمت وحيداً دون امرأة؛ وجود المرأة قد يوجد توازناً لك، وهذا أمر جيد.

لست هنا بدور الناصح والموجه، ولكنني أعلق على حدث كتبت عنه في سيرتك التي توحي بأنها على وشك النهاية، لأن ما بعد الزواج هو الاستقرار: أولاد، وحياة وظيفية رتيبة، وهذه لا تعني للقارئ شيئاً، عموماً هنالك حكاية بدأت وفي الوقت نفسه لم تبدأ، تجعلك تتوقف أحياناً عن الكتابة متوقعاً أن هنالك اتصالاً أو رسالةً نصيةً، أو عبر مواقع التواصل الاجتماعية الحديثة. على المكشوف أنت

تتوقع أن يتصل بك ذلك الرجل لأن داخلك أملاً لمعرفة من أنت تماماً، لا جديد، لا جديد حتى الآن، عموماً واصل الكتابة.

٢٣

أبو حسين أصبح صديقاً لمنير، هو أكبر منه بخمس عشرة سنة تقريباً، رجل علاقات عامة متميز، ملاحظة منير الوحيدة أنه ليست له علاقة بالقراءة والأدب، يحفظ بعض الأشعار الشعبية، يترنّم بها أحياناً، مشارك في مكتب عقار في شارع أنكاس الذي عرف في ما بعد بشارع خالد بن الوليد. تعوّد منير مرور أبي حسين بعد صلاة العصر ليرافقه إلى مكتب العقار، والبقاء هناك حتى صلاة العشاء، فيعود إلى شقته غالباً في حدود التاسعة مساءً، مشوار شبه يومي بثّ شيئاً من الحيوية داخل منير كاد أن يفقده في الأيام السابقة.

خمس ساعات تقريباً يقضيها منير أغلب الأيام بصحبة هذا الصديق الطارئ، الذي يدعى "أبو حسين"، ولم يعرف أن اسمه الأول مبارك إلا بعد أيام من التعارف.

ثقة كل واحد بالآخر مستمدة من مدير الشركة عبد القادر، الاثنان يثقان بالرجل، وينفذان ما يأمر به، بسبب حسن تعامله مع الجميع، وهذا أراح منير كثيراً.

المشوار اليومي ينطلق من الشميسي حيث شقة منير إلى أنكاس حيث مكتب العقار، الذي يطلّ على الشارع الرئيسي. مساحة المكتب لا تتجاوز ستة عشر متراً مربعاً، وفيه طاولتا مكتب إحداهما في الصدر وتحديداً في الجانب الأيسر، وهناك يجلس أبو حسين، وعلى الطاولة الهاتف الوحيد، وطاولة المكتب الأخرى عند المدخل على اليسار، يجلس خلفها شريك أبي حسين في تجارة العقار، رجل

تعرّف إليه منير يدعى أبو مرزوق، وحول المكتبين وعلى جانبيه مجموعة من المقاعد الجلدية، وفي الوسط طاولة وضع عليها برادا شاي وقهوة وحولهما مجموعة من الفناجين، وفي الجانب الأيسر جهاز تلفزيون ملوّن صغير.

اعتاد منير ذلك المشهد داخل المكتب. واستمتع برؤية السيارات والناس وهم يمرون خارج المكتب، لا أحد يعرف هنا أن منير يحب الجلوس عند العتبات ومراقبة الناس، ها هي فرصة جميلة تهيأت له. يخرج كرسياً صغيراً معه إلى خارج المكتب ويجلس يراقب، كان يفكر، ماذا لو كان المكان قصر المدير عبد القادر، هنالك أكثر من عتبة للبيت، ولكن، لو جلس، فلن يجد حياة مثل التي كان يجدها في الأحياء الشعبية، والشوارع التجارية؛ عند بيت عبد القادر، جدران وقطط أحياناً، وسيارات تسير شبه مسرعة للتواري داخل تلك البيوت، ''هل انتهى زمن العتبات؟''، قالها منير داخله متسائلاً بحسرة خوفاً من أن يفقد هذه المتعة.

غالباً يناديه أبو حسين ليدخل ويقول له مباشرة: ''اجلس وشاركنا بالحديث''، ثم يقول:

- اتصلت بأسرة لديهم فتاة، ولكن كان سؤالهم عن مؤهلك التعليمي.
- للأسف ليس لدي مؤهل تعليمي.

تبقى مشكلتَا الوضع الاجتماعي والتعليم في المقدمة لتتوسع دائرة البحث ليدخل من ضمنها الأسر الحاصلة على الجنسية السعودية، إضافة إلى بعض الأسر العربية. كان أبو حسين يطلب من منير الصبر، ويؤكد له أنه سيبحث عن المرأة الصالحة التي تعيش معه كل العمر.

مع مرور الوقت شعر منير أن الأمر ليس بالهين، وأن كوكب المرأة بعيد، وإن كان يضيء في السماء. خاف أن يصل مرحلة التوجه إلى الدور الاجتماعية

للفتيات ليبحث عن فتاة تشبهه، يتيمة الأبوين أو لقيطة، يعرف أن كل الفتيات وبصورة أدقّ غالبيتهن تم تهيئتهن ليكنّ زوجات صالحات، ولكنه يأمل بزوجة لها أب وأم ليشعر بشيء من العلاقة بين الأب وابنه والأم وابنها، ولو عبر زوجته، وهذا ما وجده في امرأة تعيش مع والدها وترفض الزواج الذي يبعدها عنه، ولاسيما أنها هي العائل الوحيد له بعد موت أمها وسفر أخويها.

أبو حسين سأل عن أسرة المرأة ووضعها الاجتماعي، فعلم أنها من الأسر التي استعادت جنسيتها السعودية، إذ كانت تعيش في الشام، وقدم الرجل والد المرأة التي سيتزوجها منير مع زوجته وثلاثة أبناء: ولدان وبنت، منذ أواسط الستينيات الميلادية. الولدان سافرا إلى أستراليا ليستقرا هناك مع خال لهما بعد عدة سنوات، وبقي الرجل مع زوجته وابنته، لترحل زوجته قبل سنة بعد معاناة لم تدم طويلاً من مرض ألمّ بها، فبقي وحيداً مع ابنته يعاني وطأة الزمن ومرض الزهايمر.

كان منير متفهّماً وضعها، مقدّراً برّها بوالدها. في المقابل، وافقت على الاقتران به بشرط أن تبقى مع والدها، وهذا يعني أن يعيش معهما.

العم "عكيل"، وهذا اسمه، وربما كان اسمه "عقيل" ولكن بسبب اللهجة تحوّل حرف القاف إلى كاف، وهذا الاسم استوحي من العقيلات، حيث كان والده ممن هاجر من القصيم إلى الشام للتجارة. بقي هناك، وتزوّج، وأنجب عدة أبناء كان منهم عكيل الذي كانت عودته رغبة منه لمعرفة بقية أفراد أسرته في السعودية، لكنه لم يكن يملك المعلومات الكافية عنهم، وفوجئ بورود أسر تحمل لقب عائلته نفسه في أكثر من مدينة، في القصيم وسدير والوشم، إضافة إلى الزلفي. لذا، فضّل الاستقرار في الرياض، والبحث عن عمل، والبحث عن أصول أسرته

بهدوء. معرفته باللغة الفرنسية وإن كانت بسيطة جعلته يعمل مترجماً في إحدى الشركات.

يسرى ابنة العم عكيل والمرأة التي قرر منير أن يتزوجها ليست صغيرة، بل هي بعمر منير تقريباً، وإن بدت أصغر منه. ملامحها شامية، درست في معهد الإدارة، وعملت في الاستقبال في أحد المستشفيات. كانت تحلم أن تذهب مع أخويها إلى أستراليا ولاسيما أن هناك خالها الذي أصبحت له شركة تجارية كبيرة، وخاصة ابن خالها الذي يكنّ لها الودّ، وشغل شغاف قلبها عندما كانت تزورهم في الشام في سنوات سابقة قبل أن يلحق أباه هناك.

جاءت موافقتها على الزواج بمنير لإحساسها أن قطار العمر يجري، خاصة أن ابن خالها ذلك الحبيب لا يرغب في المجيء إلى الرياض للبقاء عندها، ووالدها يرفض مغادرة وطنه أرض آبائه وأجداده، وعندما بدأت أعراض الزهايمر تتّضح في تصرفاته، أخبرت أخويها بوضعه، وطلبت منهما المجيء إلى الرياض لأخذه ليعيش معهما، لكن إصابة أمهم بورم خبيث ومرضها ثم موتها غيّر مشروع النقل ليتأجل قليلاً، ولاسيما أن يسرى علمت من أخويها بزواج ابن خالها بامرأة غربية تعيش في أستراليا. لم تسأل أبداً عن التفاصيل، لأن عنوان الخبر يمثل لها كارثة. لذا، قررت أن تبقى في الرياض وترعى والدها، وتقبل أي زوج يتقدّم لخطبتها، وكان ذلك الزوج هو منير.

***

أنا جاهل بالنساء. لذا، فكرت في منصور وزوجته، عبير أختي بالرضاع، اللذين يقيمان في مدينة الرياض. اتصلت بمنصور وأخبرته رغبتي في زيارته. فرح

بذلك وحدد لي موقع بيته لأتوجه إليه وأستأذنه بمقابلة زوجته عبير بحضوره، التي كانت تنتظرني بفرح متذكرة أيام الطفولة، وأمها مريم التي أحبتني كثيراً. أخبرتهما برغبتي في الزواج وأخبرتهما بمساعدة مبارك "أبو حسين" بواسطة الخطّابات، وترشيح يسرى لتكون زوجة لي، طالباً من عبير أن تقابلها وتخبرني إذا كانت تصلح زوجة لي أم لا، وأعطيتهما رقم هاتف منزلهما لتتواصل معها عبير، فسألني منصور:

- هل هي من الأدبيات؟

- لا أعتقد.

زيارتي إلى منصور وزوجته أشعرتني بشيء من الراحة، فقرار عبير هو الذي سيعتمد. لذا، أخبرت أبا حسين بأن أختاً لي بالرضاع مقيمة في الرياض رغبت في مقابلة ابنة العم عكيل، فقال لي: "هذا حقك، وليساعدهم أيضاً على أن يتعرفوا إليك، الزواج حياة، لا يصلح أبداً التسرع في اتخاذ القرار"، وذكر أبياتاً شعرية للشاعر راشد الخلاوي حرصت على تدوينها لأنني لا أحفظ الشعر. يقول الشاعر:

أوصيك يا ولدي وصاة تضمها
إلى عاد مالي من العمر زايد
لا تاخذ الهزلة على شان مالها
ولا تقتبس من نارهم بالوقايد
لا تاخذ إلا بنت قوم حميده
لعل ولد منها يجيك بالفوايد

يهمني أن أعيش وأستقر، والاستقرار يحتاج إلى زوجة تساعد على مواجهة مشكلات الحياة. ربما لدى يسرى هم وحيد هو والدها، ولكن أحتاج إلى الصبر،

فحتماً ستتغيّر الأمور، الأعمار بيد الله، وذلك الرجل الكبير لن يخلّد، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}. سبحانه وتعالى هو الباقي، والمرأة بعد وفاة والدها ستبقى وحيدة وتحتاج إلى رجل، هذا الرجل هو أنا.

لم أنتظر كثيراً، فبعد ثلاثة أيام أو أربعة اتصلت بي عبير لتخبرني أنها قابلت يسرى، وقد أثنت على أخلاقها، وقالت إنها خير زوجة لي إذا وافقتُ على شرطها الوحيد، وهو السكن معها ووالدها في بيته، فقلت لها: "كأن ذلك الزواج أشبه بالمسيار"، فقالت: "لا أعتقد، أنت تتزوجها وتشهر زواجكما في حفل بسيط، وتسكن عندهم، وهنالك أيضاً شرط آخر هو أنها لا تريد للزواج أن يبعدها أو يلهيها عن العناية بوالدها، بمعنى آخر: ليس هنالك سفر أو أطفال".

طلبت من منصور أن يخبرني برأيه، فقال أَجّل قرار الموافقة قليلاً وابحث، لكنني قلت له: "أريد أن أكسب أجراً في ذلك الرجل الكبير"، فطلب مني أن أصلي صلاة الاستخارة، وأتخذ القرار، وهذا ما فعلته. دعوت الله كثيراً، وغفوت مرهقاً، لأرى في المنام والدي مسعود لابساً بشته البني الذي لا يلبسه إلّا للمناسبات الكبيرة، مبتسماً ويسير وسط رجال يحملون مباخر، ثم يختفي وسط دخان البخور، استيقظت وقد اتخذت قراراً بأن تكون يسرى زوجتي.

سأعيش معها في بيت والدها الذي سأساعدها على خدمته. سأُبقي شقتي في الشميسي. ستكون مكتبتي الخاصة. سأحمل معي ملابسي التي أحتاجها وأشتري غرفة نوم جديدة فقط أضعها في بيت العم عكيل لتكون غرفة نومي مع زوجتي يسرى.

***

مشروع الزواج أبعدك فعلاً عن متابعة المشهد الثقافي، ولاسيما أن أشرف طلب منك أن تذهب معه إلى بريدة لمشاهدة مسرحية **تغريبة القوافل والمطر** الشعرية، التي ستكون بحضور مجموعة من الأدباء والفنانين في المملكة، ليعلق ضاحكاً في ذلك الوقت: "نشيد الحداثيين يغنى بالموسيقا في معقل الصحويين". تذكرت أبيات محمد الثبيتي الجميلة في تلك القصيدة:

شدنا في ساعديك
واحفظ العمر لديك
هب لنا نور الضحى
وأعرنا مقلتيك

كنتَ سعيداً لأنني حفظت تلك الأبيات لغنائيتها. قلت في نفسك: لأبتعد عن صراع الحداثة والتقليد، الأمر شائك ويزداد تعقيداً.

في ذلك الوقت، ربما لم يكن لديك معرفة بالحركات الدينية وتشكلاتها، ولم تعرف شيئاً عن إخوان بريدة، وموقفهم المتشدد تجاه التجديد والتكنولوجيا الحديثة، بل إن بعضهم يسكنون في بيوت طينية، ويستخدمون الخيول والحمير والجمال في التنقل، وقد كانت فئة منهم في صراع مع من يحاول تغيير الموقف تجاه احتياجات الحياة الحديثة مثل الكهرباء واستخدام السيارات. لم تذهب إلى بريدة رغم وجود بعض الأصدقاء لك هناك، الذين لا يمثلون الصورة النمطية عن تلك المدينة.

أنت تعرف أن من الشخصيات المهمة التي حققت كثيراً من النجومية الدينية والإعلامية عبر قنواتها القديمة والحديثة من خرجوا من تلك الصراعات والنقاشات الجدلية التي تدور حول إطار الدين والتجديد فيه وبين الإقصائية

والتشدد والسماحة والتيسير والولاء والبراء. جدل وحوار، الصوت الأقوى والحاد والمقنّع وفق توجههم هو الذي يحقق حضوراً في كل مكان، ويكسب كثيراً من المؤيدين.

لحسن حظك ابتعدت عن دائرة الجدل تلك، وبحثت عن حياة أخرى.

ربما لو عايشت أولئك أو كنت أحد مدعي التنوير أو المتحولين لأصبحت شخصاً آخر، ولكنني أعرفك، أنت منير الذي يتغيّر كل ما حوله وهو لا يتغيّر.

٢٤

لم يستغرب منير من عدم اتصال الأخوين لمباركة الزواج، وعلل ذلك بصعوبة الاتصال من أستراليا. أقام حفل عشاء بسيط في استراحة صغيرة في حي السليّ حضره بعض أصدقاء العمل، وقد اعتذر مدير الشركة وأبو حسين لسفرهما، ولم ينسَ منير أن يدعو أشرف وبعض الأصدقاء الذين تعرّف إليهم في بيته، ومما أسعده مجيء كل من سليمان وناصر برفقة منصور، وقد اعتذر أحمد الذي استقر في جدة بعد زواجه لأن زوجته على وشك إنجاب طفلهما الأول ولا يستطيع تركها.

أجلس منير العم عكيل على مقعد وسط القاعة، وكان بجانبه اثنان من أصدقائه، أحدهما يبدو عليه سمات التديّن، اقترب منه سليمان وتعرّف إليه، ويعرف أن لعكيل ولدين في أستراليا، ليعلق قائلاً: "شغلتهما الدنيا عن برّ والدهما".

لم يستوعب ذلك الرجل الكبير أنه في حفل زفاف ابنته، تتأمل عيناه وجوه أناس يراهم لأول مرة. لم يختزن صورهم في ذاكرته سوى رجلين يتذكرهما للحظات ثم لا يلبث أن ينساهما.

في ذلك الحفل، كان هنالك ثلاثة تكتلات، حيث يجتمع مجموعة من الأصدقاء أو ذوي الاهتمام الواحد، ويدور حديث خاصّ بينهم: المجموعة الأولى تضم ستة أصدقاء، العمل يجمع بينهم، وأحاديثهم تدور غالباً حول ذلك، والمجموعة الثانية تضم أشرف واثنين أحدهما فنان تشكيلي والآخر من الأدباء الشباب، هؤلاء

الثلاثة يجمعهم الهمّ الثقافي، والمجموعة الثالثة هم ناصر بن جابر وزوجا أختيه سليمان ومنصور، إضافة إلى صديقي العم عكيل، وكان الرابط بين المجموعات الثلاثة منير.

انتهى الحفل ليتوجه منير برفقة العم عكيل وصديقيه إلى بيت العم، حيث تنتظره يسرى مع مجموعة من النساء اللاتي احتفلن معها بزفافها، وغالبيتهم صديقات لها وبعض صديقات والدتها، إضافة إلى زوجتي وبنات صديقي العم عكيل.

غادر الجميع وخلد الرجل الكبير إلى النوم، وبقي منير مع زوجته يسرى التي كانت تجهش بالبكاء. لم يعرف منير سبب ذلك البكاء: أهو فرح؟ وقد استبعد ذلك الأمر، أو لأنه لا وجود لبقية أفراد الأسرة، خاصة أخويها وأبنائهما، وبقية أسرتها؟ هذا ما توقعه منير، لكن كان بكاء يسرى لمسار حياتها الرديء. كانت تحلم أن يكون الزوج ابن خالها الذي طالما وعدها بالزواج، ولكنه غدر بها لزواجه بامرأة غربية. تعلم أنها لو رحلت مع أخويها إلى هناك لربما تزوجته، ولكن لا تستطيع، والدها يرفض أن يغادر أرض أجداده. ها هي الآن تتزوج برجل مجهول النسب، قد يكون لطيفاً، قد يكون طيباً، ولكن بكل تأكيد هي تحتاج إليه لأنها لا تستطيع أن تنقل والدها معها إلى مقر عملها لتكون بقربه، والعاملة المنزلية لا تثق بها، وذلك الرجل الذي تزوجها وافق على شروطها. لذا، هو مطالب أن يجلس برفقة والدها ويرعاه في عملها الذي تغيّر إلى الفترة المسائية رغم أن منير عرض عليها ترك العمل والإنفاق عليها مع والدها، لكنها رفضت. هي الآن مع منير، لا تدري هل سيكون زوجها إلى الأبد. إذا كان كذلك، فسيبقى معها هنا في رعاية والدها، وعندما يختار الله أمانته، وهذا ما لا تحب التفكير فيه

لحبها الكبير لوالدها، فستنتهي علاقتها بالرياض، وستطلب منه أن يرحل معها، وبكل تأكيد سيرحّب به أخواها هناك في أستراليا. لن تخبر منير بتفكيرها هذا، ولكن هذا يريحها ويصبرها.

***

عندما قابلتُ يسرى لأول مرة، حاولت أن أقارن بينها وبين الشيماء. وهذا – مع الأسف! – ليس في مصلحة يسرى لأن الشيماء أجمل وأصغر، وفوق ذلك تمتلك كثيراً من النقاء لم أشعر به عند يسرى، ربما لحياتها الصعبة التي بدأت في الشام ثم الرياض، ولفقدها أخويها وسفرهما وموت أمها، ويبقى والدها موجوداً وغير موجود. داخل يسرى حزن أكثر من الفرح، وأنا أبحث عن الفرح.

استقبلتني في ليلتها الأولى بالدم الذي يقصيها عني، اقتربت منها قليلاً، وأردت أن أتحدث معها عن نفسي أولاً، لتسألني طالبة أن أجيبها بكل صراحة:

- هل سبق أن كانت لك علاقة بامرأة، حلالاً أو حراماً؟

- ماذا تتوقعين من رجل عاش في بيت لم تدخله امرأة إلا بعد وفاة صاحبه ومغادرتي، أنت أول امرأة أختلي بها.

تحدثنا كثيراً وبدأنا نقترب بعضنا من بعض مع كل كلمة. لم أعرف أنها أثناء ذلك قد بدأت بتشكيل رجل يناسبها اسمه منير. أجل، لقد أصبحتُ مشروعها الأول للحياة، هي تريد أن تعيش وتفضل أن تكون مع رجل بمواصفات معينة، وحقيقة أنا الرجل المناسب، لا علاقة لي مباشرة مع أحد، هارب من الماضي وأبحث عن جديد ومختلف، فعلاً شريط حياتي الماضي ليس فيه ما يجعلني أريد إعادة تشغيله واسترجاع أحداثه. ليكن؛ لنأجل الأطفال قليلاً، لأبقى مع العم عكيل في المساء،

أمر جميل بدأت أنفّذه منذ الأسبوع الأول بعد عودة يسرى للعمل في المساء، وهو الخروج مع العم عكيل عند الباب، قلت لها: ''جلوسه في الخارج ومشاهدته الناس قد يريحه ويسعده، وحقيقة سيسعدني لأنني سأجلس بجانبه على عتبة الباب''.

أنا والعم عكيل جالسان عند عتبة الباب، هل سيأتي والدي مسعود ويشاهدني جالساً مع ذلك الرجل الكبير، ويسألني: ''ألم تغيّر هذه العادة؟''، فأجيبه: ''لا أستطيع''. ولكن المختلف أن ذلك الرجل الكبير يراقب الناس المارة في الشارع ليسألني:

- أين نحن؟

- نحن، يا عم عكيل، عند باب البيت.

- من أنت؟

- أنا منير زوج يسرى.

- أين يسرى؟

فأجيبه: ''ستأتي بعد قليل''، ليسألني مرة أخرى: ''من أنت؟''.

وتتكرر الأجوبة لتتكرر الأسئلة.

ماذا لو كان أبي، أعيش معه وهو لا يعرفني، لا يتذكرني، يعيش حياته الخاصة جداً. ربما عوالمه ضبابية غير واضحة، حتماً سأقلق عليه، سأذكّره كل لحظة أنني ابنه. أعرف معاناة يسرى مع أبيها الذي يزداد تعباً وهذياناً.

كل يوم يزداد القلق عليه وعلى حالته الصحية، قلق لم يتوقف عليه فقط، بل اتّسع مداه ليشمل الوطن كاملاً. حرارة الجو جعلتنا نخفف خروجنا للجلوس خارج البيت، ولنبقى نستمع إلى إذاعة لندن وبقية الإذاعات العربية والعالمية. لقد

اختفت دولة من الوجود، تساءلت: هل أصيب العالم بالزهايمر وأصبح مثل العم عكيل تختفي من ذاكرته الأسماء والأماكن، "الكويت اختفت، غزاها جيش صدام"، لا يعي العم عكيل ذلك، ولن يعيه أبداً، ولكن بكل تأكيد أثر ذلك في حالة يسرى النفسية، لتتلقى اتصالاً من أخيها الكبير يطمئن فيه إلى والده وأخته، ويطلب منهما الشروع بالرحيل إلى أستراليا لأن الوضع في المملكة العربية السعودية مع دول الخليج غير آمن. قالت لي يسرى ذلك وسألتني: "ما رأيك؟"، لم أجب، ولكن أشعر أن الأمر لن يستمر طويلاً.

جلوسي الطويل مع العم عكيل منحني وقتاً أقرأ فيه كتباً مختلفة، ولكن الأمر السلبي هو ابتعادي عن بعض الأصدقاء خاصة أصدقاء الأدب. بعد غزو الكويت بدأت أشعر بالحالة الكابوسية في مدينة الرياض. عمائر الإسكان امتلأت بالعائلات النازحة من الكويت. غالبية الأسر استقبلت أقاربها القادمين من الكويت عدا بيت العم عكيل.

هذه الأسرة تشبهني، أنا لست لقيطاً ولا يتيماً، لديّ أسرة، ولكن لا أعرفها ولا أعرف من يدلني عليها. وأسرة العم عكيل لديها أقارب في السعودية ولكن لا يعرف أحد في أي مدينة تحديداً، أسرة مقطوعة من شجرة. لها أقارب للزوجة في الشام وأستراليا، كما لي إخوة وأخوات بالرضاع، ولكن الأهمّ هو الأصل: والدي، ووالدتي. أما العم عكيل، فوالده رحل عن أسرته في جزيرة العرب قبل سنوات طويلة ليعيش في بلد مختلف يمارس التجارة، وكان قدره أن يموت في الشام.

***

حين تجلس وحيداً مع رجل صامت دائماً فقد جزءاً كبيراً من ذاكرته بسبب تقدمه بالعمر، وإصابته بالزهايمر، ألا تفكر في حياة الرجل وتاريخه؟ لقد استهوتك قصص العقيلات وحاولت أن تقرأ سير أولئك الذين غادروا نجداً طلباً للرزق، وغالبيتهم للتجارة، وتحديداً بيع الأبل والأغنام ومنتجاتها. كنت تتمنّى أن تعود ذاكرة العم عكيل لو لساعات ليتحدّث لك عن معاناة والده في السفر إلى الشام، وحياتهم هناك. ربما يحفظ بعض القصائد التي قالها بعضهم أو قيلت عنهم، ولكن ذاكرته ثقبت فتسرّب منها كل الكلمات.

ربما أخبره والده بسيرته، وأسرته التي يتوقع أنها من القصيم. ربما كان والد عكيل شاعراً وله مجموعة من القصائد التي تصف حياتهم، ربما أخبر عكيل بها، ولكنه نسيها مع الزمن.

ألا تخاف أن تصاب بالزهايمر مثله؟ ألا ترى أهمية رصد سير بعض الأشخاص؟ أنت الآن ترصد سيرتك، وهذا جيد، وذلك الرجل الذي اتصل بك وقال إنه يعرف كل شيء عنك هو لم يقل إنه يرصد سيرتك، ولم يقل سيرتك مكتوبة لديّ، بل قال يعرف، ومهما كان، فقد تكون المعرفة محدودة؛ هناك حوادث وقصص وانطباعات لا يعرفها غيرك حتى لو تتبع كل دقيقة أو ثانية في حياتك. أنت الذي تعرف كل شيء عن نفسك، وإلا كنتَ غير سويّ. حتى ابنة ذلك الرجل يسرى حين سألتها ذات يوم عن سيرة والدها، وكيف غادر جدها بلدته في نجد، لتخبرك أنها لا تعرف شيئاً. كل ما تعرفه ولادة والدها هناك، ثم ولادتها وطفولتها هناك، ومشروع العودة إلى السعودية الذي غيّر حياة أسرتها.

كنت تشعر أنها لم تكن حريصة على معرفة سيرتك مع والدك مسعود، فدائماً تقول: "أنت الآن زوجي، دعنا من الماضي". تساءلت ذات يوم عندما طلبت منك

التوقف عن سرد ذكرياتك: هل رغبتها عن سرد ذكرياتي، لأنها تريدني أن أنسى الأحداث الأليمة التي مرّت عليّ أم أنها لا تريد أن يذكرها أحد أنها تزوجت رجلاً بلا أبوين، تبنّاه رجل غريب الأطوار، وفق تعليقها عليه ذات يوم عندما علمت أنه لم يتزوّج وعاش بعيداً عن النساء؟

إذا لم ترغب يسرى أن تعرف سيرتك، فلا بد أن هناك من يريد أن يعرف.

٢٥

رجل يعيش مع زوجته التي ترعى والدها الذي يعيش أيامه الأخيرة، رجل أصبح مهموماً بوطنه، ليس لديه القدرة على التطوع للذود عنه، ولكن يحاول أن يساهم بمشاعره، هذا هو منير.

تشتد وطأة المرض على العم عكيل في وقت بدأت فيه الاستعدادات لتحرير الكويت؛ المنافذ الجوية مغلقة ولا مجال لوصول طائرة تقلّ ابني عكيل ليجلسا بجانبه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

يموت وحيداً، وصوت صفارات الإنذار يدوّي في سماء الرياض. عدد بسيط يحضرون جنازته في وقت غادر فيه غالبية سكان الرياض إلى مدن بعيدة وغير مستهدفة بصواريخ صدام التي سقطت أشلاؤها على أماكن مختلفة في الرياض حين تصدّت لها المضادات الأرضية. يموت وحيداً ذلك الرجل الطيب الذي لم يعِ أن منير تزوّج ابنته.

تبقى يسرى وحيدة مع رجل وحيد، حزنها كبير بفقدها والدها وإحساسها بالوحدة. لا يوجد أقارب لها ولا لزوجها، حالة أزعجتها كثيراً. هي لديها الرغبة أن ترحل عن الرياض، تريد أن تطلب من منير ذلك، ولكنها تخاف. ليس هنالك مبرر لمغادرة الرياض، ولكن تريد أن تكون بقرب أخويها وخالها.

حرب الخليج لم تكن تزعج منير بقدر ما تزعجه الحرب التي شنّها بعض المنتمين إلى الصحوة على الدولة بسبب استعانتها بالقوات الأجنبية، ثم موقفهم من كتابات غازي القصيبي في صحيفة **الشرق الأوسط** التي أسموها خضراء

الدمن. كان منير يتابع زاوية "في عين العاصفة" بشغف، ويعرف أن هنالك مجموعة من "الرجال المهمين" الذين سبق أن رآهم في إحدى زيارات سليمان إلى الرياض يقفون وراء كثير من المواقف تجاه ما أسموه بالعلمانيين، ليرتفع الصوت بصورة أقوى وأوسع تجاه بعض النسوة اللاتي قدن السيارات قبل تحرير الكويت. لم يقف الأمر عند تلك النساء، بل تجاوزه إلى أولياء أمورهن من آباء وأزواج، وكان من ضمنهم بعض الرجال الذين التقاهم منير في ندوات ثقافية وأمسيات أدبية.

كانت يسرى تعلّق على الموقف من قيادة السيارة لمنير قائلة: "لن نفرح أبداً بقيادة السيارة هنا. في أستراليا زوجتا أخويّ وبناتهما كل واحدة معها سيارة"، كانت تلك رسالة غير مباشرة لمنير توضح فيها رغبتها في الهجرة إلى أستراليا. لم تكن محاولة قيادة السيارة تمثّل له شيئاً بقدر ما هنالك من وضع مزعج اعتمد على التكفير وقد يصل إلى ما هو أكبر، ولاسيما أن صوت الصحويين قويَ وأصبح معترفاً به في كل مكان، وغدا عدد من "الرجال المهمين" والمنتمين إلى الصحوة نجوماً في المجتمع لما لهم من أتباع، ولسعيهم إلى أن يكوّنوا جبهة معارضة لعلماء السلاطين وللفئة التي تشكلت من الجاميين الذين يدينون بالولاء للوطن ويحرّمون الخروج على الحاكم، إضافة إلى ذلك رغبة أولئك الرجال في أن يكون لهم سلطة دينية مستقلة.

في المقابل، خبا صوت الحداثيين فلم يكن لهم حضور مع تشبث بعضهم بالمجلات الشعبية التي بدأت تأخذ موقعاً في المشهد الثقافي.

توقف أحمد عن كتابة الشعر ونشره، وأرجأ الدخول في عالم الصحافة ليتحوّل إلى زوج تقليدي. ربما استطاعت ابنة عمه أن تشكله وفق النسق الذي ترغب فيه،

بينما تشكّل منير سلوكياً وفق رغبة زوجته، ولكن داخله لم تنطفئ شعلة أوقد منذ صغره زيتَها الكتابُ والقراءة، والرأي الخاص له دون وصاية أحد.

ذات يوم فوجئت يسرى بزيارة اثنين عزيزين على قلبها، أخوها الصغير وابن خالها، وقد قدما من أستراليا. لم يكن لدى ابن خالها الجنسية السعودية ما جعله يقدم بتأشيرة عمرة، ليتوجها بعد وصولهما المملكة إلى مكة لتأدية العمرة، ومن مكة قدما إلى الرياض. استقبلتهما يسرى بفرح واستقبلهما منير ببرود. كان لديه إحساس بأن زيارتهما كانت للتأثير في يسرى لتوافق وترحل معهما، إذ توقع أنها سترفض لرغبتها في البقاء في الرياض.

الأخ وابن الخال لم يقيما عند أختهم في بيت أبيهم، بل قررا أن تكون إقامتهما المحدودة في فندق "الإنتركونتيننتال"، ليجلس الأخ مع منير وزوجته ملبياً دعوة منير لتناول طعام الغداء، وليتحدّث عن وضعهم المتميّز في أستراليا، ودعوته لهما للسفر معهما والإقامة هناك بصورة دائمة، معلقاً على وضع منير قائلاً: "أنت ليس لديك ارتباطات عائلية وهناك ستتغيّر حياتك".

لم يكن لدى منير رغبة أبداً في السفر، ولم تقوَ يسرى أن تعلن رغبتها في السفر بصراحة. إضافة إلى ذلك لا تريد أن ترى ابن خالها مع زوجته، وهي التي كان حلمها أن تتزوجه، لكن لم تعرف أن مرافقة ابن خالها لأخيها كانت بناء على رغبة من ابن الخال الذي حنّ إلى الفتاة التي أحبها في طفولته بعد أن انفصل عن زوجته الغربية.

علمت يسرى بذلك، وتغيّرت لهجتها مع منير الذي فوجئ برغبتها في الانفصال عنه والسفر مع أخيها. استشار منير صديقه ووسيط الزواج أبا حسين

وأخبره بما حدث، إذ أشار عليه ألّا يطلقها حتى تطلب الخلع، وتحقّق ذلك بعد أن أرجعت المهر الذي دفعه منير وأضافت فوقه مبلغاً من المال.

لم يتأثر منير كثيراً بانفصاله عن يسرى لأنه لم يشعر أبداً بحبها له، ولرغبتها عن الإنجاب، ولرتابة الحياة معها. ورغم ذلك، كانت تجربة مهمة له في الحياة.

***

ألم أفهم النساء؟ ألا أعرف الفرق بين الحب والكراهية؟ لقد شعرت أن العلاقة بيني وبين يسرى علاقة تعتمد على حاجة كل طرف إلى الآخر، أنا محتاج إلى زوجة، وهي محتاجة إلى زوج. توقعت أن يتطوّر هذا الاحتياج ليصل إلى مرحلة المودة ولا أقول الحب، لكنه تحوّل إلى مرحلة الوظيفة، وتذكّرت المثل المصري الذي تكرره النساء في المسلسلات: "ظل راجل، ولا ظل حيطة". يسرى بعد وفاة والدتها وصعوبة رعاية والدها وحدها بحثت عن حائط (حيطة) تستند عليه، وكنت أنا ذلك الحائط البشري، لأن كل حوائط أو حيطان أو جدران العالم الجامدة لن تسندها بقدر وجود رجل يرعاها ووالدها.

لا أستطيع أن أمدح نفسي أو أذمّها في تعاملي مع الأنثى، ولكنني أسعى إلى أن أكون مثالياً، أحترمها وأقدّرها. في بداية معرفتي يسرى، كنت مشفقاً على وضعها، فقد تحمّلت مسؤولية إعالتها والديها، وبكل تأكيد، كانت المرحلة الصعبة عندما كانت أمها مصابة بمرض خبيث. هم ثلاثة: أب وأم وابنتهما. ليس لهم أقرباء، ربما هنالك بعض الجيران والأصدقاء، لكن الأم تفتقد فلذتيْ كبدها اللذين رحلا بعيداً عنها، وتفتقد إخوتها، وأخواتها، وأسرتها بصورة شاملة. ليس لديها إلّا

ذلك الرجل الكبير السن، وتلك الفتاة التي تخاف عليها وتشعر أنها غريبة في مجتمع صعب.

أنا لم أعرف إلّا بعد زمن أن يسرى وطنها الرجل، وكنت إلى حدٍّ ما في بداية زواجنا أرضاً تحتاج للتهيئة لتكون وطناً، لأنها فقدت الوطن الذي كان حلمها منذ سنوات.

فعلاً حرصت على أن أكون مناسباً لها، حتى علمت أن ابن خالها قدم مع أخيها، وكانت أرضه متاحة لها، فبدأت الحرب لمغادرة أرض لا تشعر بالانتماء إليها، وتسترجع وطنها الذي أحبته متمثلاً بابن خالها الذي تخلّص من زوجته الغربية، وجاء ليعيد حباً سابقاً.

الأخ كان على الحياد، يريد أن ترحل أخته معه فقط، بزوج أو دون زوج، لا يعنيه هذا، إذا لم يوافق زوجها، فسترحل دونه، لأنه يريدها أن تعيش بقية عمرها في أستراليا مع بقية أسرته. هو لا ينتمي إلى هذه الأرض، لا علاقة له أبداً بمدينة تدعى الرياض، ولا يفكر أبداً بالبحث عن أسلافه وأقرباء جده؛ هو يعيش حياة أخرى.

أنا لا أدري هل تعيش يسرى معي على أمل أن أتحوّل إلى شبيه لابن خالها، وحين فشلت، حاولت أن تضع نفسها أمام الأمر الواقع، لتشعر أنها فقدت سفينتها وبقيت مع رجل في جزيرة نائية. لا بدّ أن تكيّف نفسها لتعيش بسلام مع ذلك الرجل. وعندما جاء قارب النجاة، توقعت أن هنالك مقعدين لها ولزوجها، ولكن فوجئت أن مقعد زوجها غير شاغر بوجود حبيبها الأول، فكان قرارها التخلص من ذلك الرجل الذي اضطرت إلى البقاء معه في تلك الجزيرة والعودة مع حبيبها.

فعلاً أمر مؤلم جعلك تراجع جميع تصرفاتك معها لتعرف كيف تتعامل مع المرأة، ولتصبح المرأة كائناً غامضاً تحتاج إلى تجارب كثيرة لمعرفته.

***

بعد أكثر من عشرين عاماً هل اشتقت ليسرى؟ أعرف أنك محوتها من ذاكرتك حتى أنك لم تتحدّث عنها كثيراً. ربما لم تحبها، كانت مجرد زوجة أمضت معك خمسة أعوام تقريباً ثلثاها بوجود والدها الذي كسر رتابة الحياة معها. جلوسك معه وإجابتك عن أسئلته المتكررة، وزيارات بعض أصدقائه إليه، كل هذا منحك بعض الرضا بوضعك مع زوجة لم تمنحك نفسها منذ أول يوم. إنك الآن لا تتذكر ملامحها بقدر تذكرك ملامح الشيماء، ولا مجال للمقارنة بينهما.

ها أنت تغلق جهاز الحاسب، وتتجه إلى هاتفك المحمول لتجد رسالة من ذلك الرجل الغريب يقول فيها: ''هل الوقت مناسب لأتصل بك؟''، تنظر إلى وقت إرسال الرسالة فتجد أنه قبل أربع ساعات. ترد عليه: ''أنا في انتظار اتصالك''.

تذهب إلى المطبخ لتعدّ لنفسك كوباً من الشاي وتحمل معك هاتفك المحمول، تجلس على كنبة استرخاء في غرفة الجلوس مقابلة للتلفزيون، تشرب الشاي وتنتظر الاتصال، تقضي وقتك بمشاهدة فيلم عربي، تمضي ساعة، ساعتان، تشعر بثقل في رأسك ورغبة في النوم، تتوجّه إلى غرفة النوم وأنت تشعر أن جسدك ثقيل كأنك تحمله، تقذف به على السرير وتنام، تستيقظ على صوت هاتفك الذي وضعته بالقرب من رأسك، تجيب مباشرة دون أن تنظر من المتصل، لتسمع صوت ذلك الرجل الذي تسأله قبل أن يبدأ التحدث وتقول له:

- يا أستاذ: قبل أن تبدأ بالحديث معي أريد أن أعرف ما اسمك؟

- لا تقلق! اسمي عبد العزيز.

- أهلاً أستاذ عبد العزيز! هل من جديد؟

تتجدد داخلك الرغبة في أن يقول: لا جديد أبداً، لا توجد صلة بينك وبين الأسرة التي توقعت أنها أسرتك، ولكنه يجيبك قائلاً: "أمك ماتت منذ سنوات طويلة، وهؤلاء إخوتك من أبيك الذي أخبرهم قبل موته بقصة مشابهة لقصتك، فقد قال إنه كان له ولد تركه عند أسرة تسكن في حي السلامة ومات محترقاً معهم".

أعرف أن هنالك كثيراً من الأسئلة بدأت تحاصرك لتقذف بها في وجه عبد العزيز: هل علموا أنني أنا الأخ المفقود؟ وهل سيتقبلون وجود أخ لهم جاوز الخمسين؟... وأسئلة كثيرة عن تلك الأسرة: ما اسم أبيهم الذي من المفترض أن يكون أبي؟ وهل لديّ إخوة أشقاء؟ وأمهم هل هي الزوجة الثانية بعد وفاة أمي؟

لكنه لم يمكّنك من طرح تلك الأسئلة، بل قال: "حتى الآن لم يعرفوا أنك على قيد الحياة! أعرف أنك غير مستعجل لمعرفتهم خوفاً من صدمة اللقاء، فربما يرفضون مقابلتك، أو يطالبون بتحليل الحمض النووي".

ذلك الرجل الذي عرفت أن اسمه عبد العزيز قال لك: "الأمر يتطلّب كثيراً من الهدوء، وتحديد موعد لمقابلة أكبرهم سناً وأخذ المعلومات كاملة عن والدك والزوجة الأولى التي يفترض أن تكون والدتك، هذا سيأخذ قرابة الشهر لمعرفتي بسفر الأخ الكبير الذي سيعود بعد ثلاثة أسابيع".

لا تدري هل تفكر في قصتك، سيرتك الخاصة، أم تتخيّل سيرة لتلك الأسرة؟ ولكن التخيّل لا يضيف شيئاً إلى العمل، فمن بدأ قراءة سيرتك، يريد سيرتك الحقيقية لا سيرة متخيّلة لأسرة قد تكون أسرتك. عاود النوم لتأخذ قسطاً جيداً من الراحة، وغداً ثمة أحداث مختلفة ستتذكرها وتدوّنها... تصبح على خير.

٢٦

"منير أرض سبخة"، قال ذلك سليمان تعبيراً عن أمر يعتلج داخله منذ سنوات. لقد قرّبه منه وحرص عليه أملاً في أن يلتزم شكلاً ومضموناً، لكن منير لم يتغيّر. انتهت حرب أفغانستان، وانتقل الجهاد إلى البوسنة والهرسك والشيشان. كان هنالك أكثر من فرصة للمشاركة في الجهاد أو تبني أفكار الجهاديين، وكانت لسليمان محاولات أخيرة عبر بعض أصدقائه الذين عرفوا خبر انفصال منير عن زوجته وبقائه وحيداً. لا يزال هذا الرجل مهيأ للجهاد، دَعَوْهُ لأكثر من مناسبة أقيمت في استراحات شرق الرياض، وفوجئ بتداول بعض الرجال محاضرات جهيمان بصورة سرية، وحديث بعض العائدين من أفغانستان عن مغامراتهم. أحس بالخوف ولاسيما أن الدولة كانت حازمة تجاه من يتّخذ موقفاً ضد سياسة البلد.

لا أدب أبداً يتداوله أولئك الرجال، لا وجود للغة مشتركة معهم، ثمة شحن نفسيّ ودينيّ. كان هنالك خوف من الغزو الخارجي وخوف من البث المباشر، ولاسيما أن أطباق البث الفضائي بدأت تنتشر بسرعة رغم صدور قرار بمنع بيعها، ولكن الفضائيات بدأت تجتاح كل البيوت.

من جانب آخر، ومن حرب الخليج، بدأ تداول الخطابات الموجهة للدولة والموقعة من عدد من رجال الدين. كان هناك أكثر من مذكرة، من ضمنها مذكرة النصيحة، لرسم صورة لإصلاحات يفترض أن تنفذها الدولة، ومن جانب آخر، كان ذلك محاولة لأخذ زمام القرار في الدولة التي وعت خطورة ذلك، وكانت لها

إجراءاتها الخاصة. إضافة إلى ذلك كانت هناك بعض الممارسات من بعض المنتسبين إلى التيار الديني لتجاوز الأمر الشفوي إلى الفعل، ومن ذلك تفجيرهم محلاً خاصاً بالفيديو. وضع متغير وأحداث متلاحقة، نجوم تصعد ونجوم تختفي، و"شخصيات مهمّة" تقاد إلى سجن الحاير.

الأحداث المختلفة التي يراها منير مزعجة جعلته يحاول الابتعاد عن دائرة سليمان، وتكريس صداقته لأناس يرى أنهم لا في العير ولا في النفير. أصدقاء تعرّف إليهم خلال السنوات الأخيرة، وكسب ودّهم، وبحث عن المتعة معهم.

بقي منير في شقته التي غادرها مدة مؤقتة ليعود إليها بعد أن عاش عدة سنوات مع امرأة لكنه لم يعش فعلاً مع زوجة. قدّر الجميع وضعه، وعلى رأسهم مدير الشركة عبد القادر، الذي طلب منه أن يأخذ إجازة لمدة شهر يغادر فيها الرياض. ولزيادة المساعدة منحه انتداباً لمدة عشرة أيام دُفعت له قيمتها قبل سفره، مع تأمين حجز له من الرياض إلى جدة مرجعاً. كان المدير يحتسب الأجر، ولاسيما أنه يحزن على وضع منير الذي كان تعيساً.

لم يفكّر منير أبداً في الطائف، ولكن في المدينة التي يُطلق عليها "أُم الرخا والِشدّة". لذا، كان قراره الذهاب إلى جدة للبقاء فيها لمدة شهر ولقاء صديقه العزيز أحمد الذي قال له "إن إقامتك ستكون عندي"، لكن منير فضل أن يبحث له عن شقة مفروشة قريبة من سكنه.

أحمد جدة يختلف كثيراً عن أحمد الطائف، الهمّ الوطني والعروبي تضاءل، لم يعد يستمع لمحمود درويش، وما كتبه من قصائد أصبح محدوداً، ولم يفكر في العمل الصحافي، أو حتى ينشر في الصحف بعد لعنة الكتاب الذي ورد فيه اسمه عند سرد الموقف من الحداثة.

ولكن بقيت فيه روح المحبّ للقراءة وإن قلّت، ومراقبة المشهد الثقافي عن بعد، وإبقاء علاقة الصداقة مع بعض الأدباء والفنانين.

زيارة منير وبقاؤه لمدة شهر تقريباً في وقت الإجازة المدرسية أشبه برحلة النقاهة التي كان ينتظرها أحمد، فهما لم يلتقيا منذ سنوات لظروف منير مع زوجته التي خلعته ووالدها المريض، وقبل ذلك انشغاله بالبحث عن زوجة.

استقبل أحمد صديقه منير في مطار جدة. لقاء فجّر كل الأحاسيس داخلهما، منير لم يتغيّر، أما أحمد، فبدا بذقن صغيرة وجسم ممتلئ وكرش ناتئ قليلاً.

أقلّه إلى مبنى للشقق المفروشة بالقرب من بيته في حي الصفا، حيث اختار له شقة صغيرة تتكوّن من غرفة نوم وصالة جلوس مع دورة مياه.

يعلم منير أن أحمد أصبح أباً لبنت حملت اسم مروة وولدين سمى أكبرهما مساعد على اسم والده، والثاني زيد على اسم والد زوجته. نظرية أحمد القديمة بتشكيل النساء للرجال اتضحت عليه تماماً، فقد شكلته زوجته بصورة جديدة ومختلفة عما ألفه منير. لذا، على منير أن يتكيّف مع شخصية أحمد الجديدة، فلا يغضب إذا لم يذهب معه إلى مشوار ما، أو تأخر عليه.

***

لا أدري لماذا لم أختر جدة عندما قررت مغادرة الطائف؟ هل كانت محاولة للابتعاد عن ذكريات حزينة، لكن لديّ كثير من الذكريات الجميلة أثناء زياراتي المتعددة إليها، وخاصة عندما كبرت وأصبح لديّ سيارة خاصة، فقد كنت أفضل البقاء في جدة لمدة يوم أو يومين في وقت وجود أبي مسعود في مكة. كنت حينما أشعر بالاكتئاب أستأذن أبي مسعوداً إذا كان في الطائف وأذهب إلى جدة، أذهب

مباشرة إلى شاطئ البحر وأجلس على الكورنيش متأملاً هدير البحر كأنه يخاطبني، أنصت إليه وهو يقول: لست وحيداً! هناك في تلك اللحظة وعلى شواطئ العالم رجال مثلك يتأملونني، هي كلمات أنقلها إليك، قد لا تستوعبها ولكن بكل تأكيد تعيها. كلمات لم تبح بها مباشرة للبحر ولا لنفسك، بل جعلت جلوسك على الشاطئ وتأملك الأمواج الصغيرة وهي تتّجه إليك، تعبّر عنك: لست وحيداً، وإلّا لأصبح البحر بلا شواطئ.

ها أنا الآن في هذه الغرفة الصغيرة، ولكن بلا بحر، أنتظر أحمد الذي طلب مني أن أرتاح قليلاً، وسيمر عليّ بعد قرابة الساعتين قبل صلاة المغرب، أعيش إحساس المسافر الذي ينتظر رحلة بعد ساعات محدودة، لا يستطيع أن ينام ويستغرق في النوم، ولا أن يغادر مكانه فيبتعد وتطول المسافة. أخذت ورقة بيضاء وُضِعت على طاولة في ركن غرفة النوم، وحاولت أن أكتب خاطرة، لم تكن لديّ الرغبة في الكتابة، حاولت أن أرسم، أردت أن أتخيّل ملامح الشيماء لأرسمها، لم أستطع. اتجهت إلى جهاز التلفزيون وحاولت أن أبحث عن فيلم أتابعه حتى يحين موعد مجيء أحمد، لم أجد. شعرت أنها بداية غير موفقة لي.

أشعر أنني تشوّهت كثيراً من الداخل، وخاصة حين أتابع الأخبار والأحداث. أنا لست ذلك الشاب الذي كان يقيم مع والده بالتبني في مدينة الطائف والذي يشعر بشيء من الطمأنينة، يقرأ ويكتب وينام ويعمل؛ ها أنا أتمنى تلك الطاولة التي شهدت كتابة مجموعة من النصوص القصصية والخواطر، أتمنى العودة إلى تلك الغرفة الصغيرة التي لم يكن لها نافذة صغيرة تطلّ على الشارع، بل على منور صغير، ولكن عبر ذلك المنور كنت أشعر أن الشمس ترسل خيطاً من أشعتها كل صباح ليهب لي كثيراً من الضوء والدفء.

لأكن صارماً مع نفسي، لن أفكر في الأيام السابقة، وخاصة سكني مع يسرى ووالدها، إذا قدرت على ذلك، فسأكون قد نزعت قناعاً أرادت أن تلبسني إياه لأكون تابعاً لها، تابعاً مسخاً. فكرت أن أتصل ببعض الأصدقاء القدامى الذين التقيتهم في جدة أو الطائف ويقيمون في جدة قبل سنوات، ولكنني أرجأت ذلك حتى يأتي أحمد. تذكرت الهدية التي أحضرتها لأحمد وأطفاله. كانت داخل حقيبتي: ثوب بيت رجالي لأحمد وبدل لابنته وطفليه، وتولة من دهن العود الأصلي اشتريتها من سوق الديرة في الرياض.

أخرجت تلك الهدايا من حقيبتي، وهيأت نفسي لمغادرة الغرفة متجهين إلى مكان يختاره أحمد.

***

الآن ارتحت قليلاً، عرفت أن اسم الرجل الذي اتصل عليك عبد العزيز. تسترجع كل الأشخاص الذين اسمهم عبد العزيز، وتحاول أن تتذكر أصواتهم، وهذا أحياناً أمر صعب، ولكن صوت عبد العزيز لا يزال صداه في أذنك، قد يتغير قليلاً عند التحدّث بالهاتف، ولكن صوته مختلف، ليس حاداً أبداً، يتسم بالهدوء وتشعر بثقته وهو يتكلم.

عشرات الأشخاص تعرفهم اسمهم عبد العزيز.

ولكن لماذا الاسم الأول فقط، ما اسم الأب؟ ما اسم العائلة؟ هل كان مهذباً معك؟ لم يرد أن يحرجك لجهلك اسم والدك وعائلتك، ولكن هو يعرف وفق قوله. لذا، لو قال أنت يا منير اسمك كما حصلت عليه من معلومات موثقة هو... وذكر اسمك الثلاثي أو الرباعي، لبدأ خطوة جادة معك، ولكن يقول أعرف، ولا يذكر

اسم والدك على الأقل، فهذا غير مشجّع على تصديقه. لكن لنلتمس له العذر؛ أنت عاقل ومتزن، أعرف ذلك وكلهم يعرفون ذلك أيضاً، ولكن ربما تُفاجأ بالاسم، تفرح به وتعلنه للجميع وتنشر اسمك الثلاثي، ثم تفاجأ أن أبناء ذلك الرجل الذي من المفترض أن يكون أبوك وهم إخوانك، يقدمون شكوى لانتحالك اسمهم، ويعلنون للجميع أن ليس لهم علاقة بك، أليس هذا مؤلماً؟ إذاً، من الأفضل أن يتأكد، ويأخذ موافقتهم على اللقاء بك، وحينئذ يكون بإمكانك أن تعلن للجميع معرفتك باسم والدك، وبالتأكيد والدتك والعائلة التي تنتمي إليها.

وماذا بعد؟ ألم تسأل نفسك: ماذا بعد أن أعرف عائلتي؟ أنت رجل تعيش في بداية خريف العمر، لن أقول إنك كبرت، ولكن الأحداث التي مرّت عليك أثّرت فيك كثيراً. لم تعد شاباً، لم تعد مرغوباً عند النساء، وأنت تعرف أنك لست ثرياً لتشتري من تريد بنقودك. لقد حاول مسعود أن يدلك على طريق الثراء، طلب منك أن تشاركه في بيع العقار وشرائه، ولكنك كنت مطمئناً إلى أن ذلك الشيخ الوقور سيخلّد وستعيش معه طوال عمرك. لذا، لا تحتاج إلى ثروة أو مال، تحتاج إلى ممارسة متعة القراءة والكتابة بعيداً عن عالم العقار والتجارة. ربما لو كانت عندك ثروة، ما عشت تعيساً، ولتشبثت بك يسرى، بل ستجد أجمل وأفضل منها، ولكن أنت منير، أنت مختلف!

٢٧

تحدثا كثيراً، وأخبر أحمد منير بقصص مختلفة، بعضها لم يصدقه في البدء، لأصدقاء لهما في الطائف ومكة وجدة سحبهم المدّ الصحوي، ومن ضمنهم فنان دوماً أُعجب منير بصوته، أعلن توبته وحطّم العود الذي كان يعزف عليه أمام جمع من الناس.

يقول أحمد: "أنا كنت من ضمن الحضور، كان المشهد حزيناً، كان يبكي، وهو يعلن توبته".

علّق منير: "إن ذلك الفنان لم يكن فاسقاً، ربما كان يدخّن، ولكن ليس أكثر من ذلك، وكان يصلي".

تحدثا في تعليقهما على ذلك عن توجّه بعض الفنانين الشعبيين إلى الاعتزال بصورة علنية، وإعلان توبتهم، مع وعود بعض الرجال المهمّين بتحسين حالتهم المعيشية.

لم ينتبه منير إلى أن أحمد ترك التدخين، لم يتركه تماماً، ولكن كما أخبره أحمد، فإنه لا يريد أن تكون رائحته مشبعة بالدخان عندما يدخل منزله ويجلس مع أبنائه، فكان من النادر أن يدخّن.

أخيراً رأى منير البحر! طلب من أحمد أن يبقيه على الكورنيش لمدة نصف ساعة ليستمتع بالغروب.

لقد تغيرا، كل واحد خلع رداء الطائف واكتسى بحلّة جديدة، حلة مختلفة عن كل ما هو قديم ويرتبط بالماضي: منير مملوء بالسواد، بالاكتئاب، بفقدان الرؤية

الواضحة للمستقبل، وأحمد مهموم بأكل العيش وطلبات الزوجة والأبناء. حديثهما عام وعابر، وقد تحدّث أحمد كثيراً عن الزواج والاستقرار.

- خبرني عن سلوك زوجتك التي طلبت الخلع أثناء زواجكما؟

- كان عادياً وفيه كثير من البرود، ولكن كنت أتوقع أن ذلك بسبب الظروف التي مرت بها... يكفي بقاؤها وحيدة مع والدها وإحساسها بالغربة في وطنها.

- كأنك تدافع عنها؟

ضحك منير وقال: "ليس تماماً".

- إن وطن المرأة زوجها، لا بد أنها...

قاطعه منير: "هي الآن اختارت وطناً آخر، مكاناً وزوجاً، لا أشعر أنني فقدتها بقدر ما وجدت نفسي بعدها"، ليغلق منير الحديث عن زواجه السابق.

توجها إلى مقهى في سوق المحمل، وطلب منير قهوة أميركية فيما طلب أحمد شاياً. واصل الصديقان أحاديثهما العامة، ليتذكر أحمد رحلة القاهرة والأديبة الكبيرة وتلك المرأة التي توقعت أن هنالك شبيهاً لمنير في المنصورة، ليسأله منير عن سيد إبراهيم، ويخبره أحمد أنه – مع الأسف! – لم يتصل به منذ تلك الرحلة، ولكنه متواصل مع صديقه الذي كان يعمل في المركز الصحي في الطائف. في سياق الحديث، اقترح أحمد أن يسافرا إلى القاهرة ويقابلا سيد، وتكون لمنير فرصة الزواج بابنته فاطمة التي من المتوقّع أنها حصلت على الشهادة الجامعية. كان أحمد متحمساً لهذا المشروع، قائلاً: "لن ترفض زوجتي أن أذهب معك إلى القاهرة، هي تعرف وضعك، وحزنت كثيراً لما أصابك".

لم يعلّق منير على تلك الرغبة بسبب وصولهما إلى حفل عشاء أقامه أحد أصدقاء أحمد على شرف رجل أعمال عاد من رحلة علاجية، وقد رحّب ذلك

الصديق بمنير وأحمد وعرّفهما إلى ضيوفه الذين كان من ضمنهم بعض الفنانين والأدباء.

منذ زمن لم يحضر منير سهرة فيها غناء وطرب، وخاصة بعد انتقاله إلى الرياض. هو يعرف أن هناك جلسات خاصة لبعض الفنانين والأدباء، وبعض الذين يصنفون أنفسهم من الليبراليين يشارك في بعضها عدد من النساء. تلك الجلسات سرية خوفاً من معرفة "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" التي طاول نفوذها كل مكان خاصة في السنوات الأخيرة. لذا، لم تكن المرأة حاضرة في تلك الحفلة، ولكن كان هناك عشاء فاخر وسهرة امتدت إلى وقت متأخر من الليل، وقد أخبره أحمد أن طلال مداح كان سيحضر تلك السهرة، ولكن لم يتمكّن لحدوث ظرف خاص.

كان حلم منير أن يلتقي طلال، الفنان الذي أحبّه كثيراً، ولكنه استمتع ذلك المساء بسماع بعض أغنياته التي أداها بعض الفنانين الشباب. تمنّى لو كان صوته جميلاً، لغنّى:

أنا راجع أشوفك
سيرني حنيني إليك
أسأل عن ظروفك
وتأثير الليالي عليك

ولكن لن يستطيع أي فنان أن يغنيها بإحساس طلال، هذا ما قاله منير لأحمد وهما في طريقهما إلى مبنى الشقق المفروشة.

سأله أحمد: "هل أنت مستعد للذهاب إلى مصر لمدة يومين أو ثلاثة أيام، نبحث عن سيد، وأتمنى أن تكون ابنته لم تتزوج بعد".

- كنت أفكر في السفر إلى القاهرة، لذا أحضرت بعض البدل وإن كانت قديمة قليلاً، وجواز سفري، ربما أحتاج إلى أن أتسوق غداً.

- المهم أن نجد حجز ذهاب وعودة بسعر مناسب.

توجه منير إلى شقته المفروشة وهو يترنم: "أنا راجع أشوفك".

***

فرصة الإجازة ومغادرة الرياض لمدة شهر جعلتني أفكر في القاهرة، مجرد رحلة استجمام، ومشاهدة بعض أفلام السينما، وحضور عرض مسرحي، والمرور ببعض المكتبات... هذه متعتي الخاصة. لم أفكر أبداً في البحث عن بديلة عن الزوجة التي انفصلت عنها، ربما كنت أرغب ألا أستعجل بقرار الزواج. تجربتي مع يسرى مريرة، ولكن ثمة أمر كنت أحاول إبعاده عن ذهني: لقد كنت الزوج البديل، هذا ما كنت أشعر به وأحاول أن أتناساه، لست البطل بل بديلاً يقوم بدور البطل لدور معين قد يكون خطراً، وفعلاً كنت البديل في أصعب وقت، حين كانت يسرى ملزمة البقاء مع والدها ورعايته. حضر البطل وانتهت مهمة البديل، حضر ابن خالها مع أخيها وانتهت مهمتي. لو كانت معه زوجته، لبقيت مع يسرى، وربما غادرتُ معها مجبراً إلى أستراليا، ولا أعرف أي مدينة، ربما سيدني، لأكون تابعاً لها ولأخويها. لن يتوقّف الأمر على هذا، ولكن حين ينفصل ذلك الرجل عن زوجته ويقرر العودة إلى ابنة عمته، فستنفصل عني بكل سهولة، لأنها حرصت ألّا يربطني بها أي ولد. أنا فعلاً البديل وذلك هو البطل! ولكن لماذا لا أحول حالة انفصالي عن يسرى إلى أمر إيجابي قد يسعدني؟

فعلاً، لقد نسيت فاطمة ابنة سيد إبراهيم، كان والدها يأمل أن تكون زوجة لي. في ذلك الوقت، كانت صغيرة، الآن تجاوزت العشرين، حين أقابل سيد سأقول له: ''جئت كما وعدتك''.

سنوات قاربت العشر منذ غادرت مصر، هل سيتذكرني سيد؟ هل سيرضى، أو بصورة أدقّ، هل سترضى فاطمة أن أتزوجها؟ أسئلة تتأجل أجوبتها حتى لقائنا بهم.

لقد قال لي أحمد بعد عودتنا ذلك العام عن رغبة والدي مسعود أن أوفق بزوجة من مصر. في ذلك الوقت، لم أكن أفكر إلا بالبقاء معه، ربما لو قررت الزواج وبحثت بصورة جادة، سأجد الزوجة المناسبة. قد تتغيّر حكايتي، ربما أبقى في الطائف، لن تتوطّد علاقتي بسليمان، وسأكون بمنأى عن أصدقاء الصحوة... أمر مهم: لن أتعرف على والدين جديدين بالرضاع، والأهم لن ألتقي الشيماء وأضيف جرحاً إلى جروحي التي لن تندمل، وبالطبع لن يكون هنالك سفر إلى الرياض، ولا صداقات جديدة، ولا زوجة مع والدها المصاب بالزهايمر. في المقابل، سأستقر، سيكون لديَّ بأمر الله أطفال، قد أتغيّر، يمتلئ جسمي وأتحوّل إلى رب أسرة كادح.

لم يحدث هذا، والآن على موعد للسفر إلى أرض الكنانة، الذي تقرر أن يكون بعد أسبوع لتعذّر وجود مقاعد، لا بأس، لا ملل أبداً في جدة.

***

لا تتوقع أنك أنت الوحيد الذي تغيّر، فقد لاحظت مدى التغيّر الذي طرأ على أحمد، حتى الناس جميعهم تغيّروا، فلا تستغرب البرود الذي قابلكما به سيد

إبراهيم في القاهرة بعد مشوار طويل بدأه أحمد بالاتصال بصديقه الذي كان يعمل في أحد المستوصفات في الطائف، ثم أخذ رقم سيد والاتصال به، ثم مقابلته في مقهى مطلّ على النيل. لم يتذكركما مباشرة. حتى عندما سألتماه عن أخبار ابنه فتحي، أجاب باقتضاب أنه بخير، وحين عرضتما عليه رغبتك في الاقتران بابنته فاطمة، قال لك: "دي اتجوّزت وعندها عيّل". انتهى اللقاء، وانتهى مشروع الزواج بفاطمة. كنت تتمنى لو كان أشرف في القاهرة، لكانت فرصة للتعرف إلى بعض الأدباء والمثقفين، ولكنك تعلم أنه غادر الرياض إلى دبي ليعمل في وكالة إعلامية.

ليست لديك الرغبة في البحث عن امرأة، والأمر ليس بالصعب لوجود عدد من سماسرة الزواج الذين امتهنوا تزويج بعض الخليجيين لقاء مبلغ معين، وأنت لا تريد أن تكون المرأة سلعة.

لحسن حظكما أن مدة بقائكما في مصر قصيرة. لم تسكنا في شقة مفروشة بل في فندق صغير. شاهدتما فيلماً سينمائياً وعرضاً مسرحياً في المسرح القومي، واشتريت مجموعة من الإصدارات الأدبية الجديدة، وعدتما إلى جدة.

مشروع زواج لم ينجح ولكنك شعرت كثيراً بالراحة وأنت مهيأ لتجاوز الأزمة. ربما شعرت أنك أصبحت عبئاً على صديقك أحمد المثقل بهموم الأسرة، ولكن انتهت الأيام التي قضيتَها جميعها في جدة ومكة، سوى عدة أيام سلَبَتها القاهرة من الرحلة.

جميع هذه الأحداث التي رصدتَها في جهاز الحاسب بسيطة ولا تمثل نقطة تحوّل في حياتك، ربما لو لم تتزوج فاطمة وتزوجتها، لتغيّر الأمر، لأنك سترصد

بعد ذلك بقية سيرتك التي ستتّسم بالرتابة، ولكن الأمر لم يتغيّر. لا تزال ذلك الرجل الذي انفصلت عنه زوجته، لا أريد أن أقول خلعته، لبشاعة الكلمة!

قبل يومين تحدثتَ مع عبد العزيز وأخبرك عن الأسرة التي من المفترض أن تكون أسرتك، وطلب منك الانتظار لمدة ثلاثة أسابيع حتى يعود الأخ الأكبر والأعرف بوضعك.

ربما كانت لديك رغبة في الذهاب إلى جدة لمدة ثلاثة أسابيع حتى يأتي هذا الأخ الأكبر، ولكن أليس من الأفضل أن تواصل الكتابة؟ أنت محتاج إلى وقت طويل حتى تنتهي من سيرتك التي تحتاج إلى قراءة عدد كبير من الأوراق والقصاصات، والإبحار في الذاكرة حتى تكتب مئة كلمة. لا تفكر أبداً في أمر عبد العزيز وسرّ عائلتك، فكّر فقط في سيرتك التي عندما تنتهي منها، ستكافئ نفسك برحلة إلى أي مكان ترغب فيه. ليكن مصر ولتبحث عن سيد، ربما مات، ولكن لماذا تبحث عن سيد وأحمد يدعوك إلى حضور زواج ابنه بعد أن زوّج ابنته قبل خمس سنوات. لقد أصبح أحمد جَداً، وأنت تبحث عن وهم، ولكن هذا قدرك. بقي في سيرتك سنوات لم ترصدها. تحتاج إلى كثير من الهدوء، تقرأ وتتذكر، وبعد ذلك يستقبلك جهاز الحاسب ليلتقف ما لديك من كلمات.

موعد سفرك إلى جدة لحضور حفل زفاف مساعد بن أحمد غداً صباحاً؛ هل تواصل الكتابة أم تتوقف حتى عودتك؟ ثمة أمر مهم، لا بدّ أن تأخذ معك مفكرة صغيرة لترصد عليها بعض الأحداث التي مرّت بك، والتي نسيتها ويتذكرها أحمد، ولكن لا تخبره عن عبد العزيز ومعرفة أسرتك، لتكن مفاجأة للجميع عندما يصبح الأمر حقيقة واقعة.

٢٨

خمسة رجال: اثنان يعملان مع منير في الشركة، وثلاثة أصدقاء للاثنين، ومنير سادسهم، مجموعة قررت أن تلتقي كل مساء في استراحة في السليّ، كلٌّ وفق ظروفه، يشاهدون مباريات كرة قدم، يلعبون بلوت، كنكان، دومينو. أحدهم أحضر شطرنج، وكان مصدر حماسة ومتعة لمنير لأنه لا يميل كثيراً إلى لعب الورق، وهذه تحتاج إلى تفكير.

أجمل ما في الأصدقاء الخمسة أنهم لا علاقة لهم بالحداثة والصحوة، يستمتعون بمتابعة القنوات الغنائية حين لا يكون هنالك مباراة في كرة القدم. منير حالة شاذة بينهم، فهو إضافة إلى أنه لا يحب ولا يلعب البلوت، أيضاً لا يميل إلى أي فريق كروي، يستمتع قليلاً بالدوريّات العالمية وتحديداً الأوربي. لذا، يبقى متفرجاً على أصدقاء الاستراحة حين تقام مباراة بين فريقين محليين مثل ''الهلال'' و''النصر''، و''الأهلي'' و''الإتحاد''، والجميل أنهم لم يتفقّوا على تشجيع فريق واحد ليخلق ذلك حالة من الجدل.

بادي صديقه في العمل وهو أكبر منه قليلاً دلّه على هذه الاستراحة التي أصبحت مثل المخدّر الذي يتعاطاه منير كل يوم حتى لا يشعر بالوحدة. لقاء يومي وأحاديث وأخبار وتعليقات عامة، وجدل، خاصة عند حضور راشد الناقم على كل شيء حتى هيئته، وخصوصاً أنفه الكبير قليلاً، على أنه أبيض البشرة. ناقم على كل مرافق الدولة، سكنه، سلوك الناس، كل الناس يراهم على خطأ وهو على

صواب. راشد صديق قديم لبادي منذ الطفولة كما يقول دائماً، رغم حدّته ونقمته على الجميع لكن داخله قلب أبيض بسيط.

هو يتابع مباريات كرة القدم، وعندما ينهزم فريقه، يقول إن دعم كرة القدم من الحكومة لكي ينسى الناس مشكلاتهم، ويرى أنها لتنفيس حيوية الشباب ونشاطهم، لكن هذا الكلام يتغيّر عند فوز فريقه.

سنوات تمر رتيبة ليقبل العالم على ألفية جديدة. خلال تلك المدة التي مضت على منير كانت هنالك ثلاث محاولات للزواج: اثنتان عن طريق زملاء العمل، والثالثة عن طريق أبي حسين الذي دعاه منير بعد موافقة الأصدقاء الخمسة لزيارة الاستراحة، ليأتي بعد ذلك في زيارات متباعدة ومتقطعة.

مشروع الزواج الأول كان بمبادرة من صديق يعمل في الشركة يدعى عبد الله، له أخت طلّقها زوجها حين علم أنها لا تنجب، لم يكن يعرف وضع منير ويتوقّع أن أسرته تعيش في الطائف، ولاسيما أنه ذات يوم زار منصور الشركة فقابله عبد الله ليعرف منير بمنصور أنه نسيبنا زوج أختي، وهذا ما جعل عبد الله يفكر أن يزوج أخته بمنير. الجميل في الأمر قرار كل من منير وعبد الله أن يلتزما كتم الأمر حتى يُحدَّد موعد الزفاف، واستأذن منير أن يرى زوجة المستقبل، فوافق أخوها، لتأتي هَيا، هذا اسمها، وتطلّ على منير في مجلس بيت صديقه في العمل عبد الله. كانت تشعر بالخجل، فلم تجد سؤالاً غير: "هل والدتك على قيد الحياة؟"، ومن خبرته، قرّر أن يكون صريحاً مع عبد الله وأخته هيا، فأخبرهم بوضعه الحقيقي، موضحاً أن زوجة منصور أخته في الرضاع. غادرت هيا المجلس بعد انتهاء حديثه لتكون المرة الأولى والأخيرة لمقابلتها.

تمنّى عبد الله أنه عرف هوية منير قبل مبادرته حتى لا تتخذ أخته موقفاً ضده، فتعتقد أنه يرغب في التخلّص منها ليزوّجها برجل لا أصل له. قال عبد الله لمنير: "يعلم الله أن أختي لن تجد أفضل منك، ولكن الزواج قسمة ونصيب".

مشروع الزواج الثاني جاء بعد أكثر من سنة، حينما اتصل أبو حسين طالباً منه أن يحضر إلى مكتب العقار بعد صلاة المغرب. توجّه منير إلى المكتب ليقابل أبا حسين الذي أخبره أن هناك امرأة تصلح له، وقد أشادت بها أكثر من خطّابة، وقد أخذ من أسرتها موعداً بعد صلاة العشاء، ليتجها إلى بيتهم في الروابي، وليقابلهم أخو تلك المرأة، وقد شعر منير بقلة الارتياح، ليس لأن كل مظاهرهم تدل على الالتزام الديني، ولكن ذلك الإيحاء بأن هنالك شيئاً من التطرّف، فتقبل شريفة على منير وأخيها مجللة بالسواد، لا يظهر منها إلا وجهها ويداها، قائلة: "السلام عليكم"، فرد منير مباشرة: "وعليكم السلام". كان قد عرف منير أنها سبق أن تزوّجت رجلاً استشهد في أفغانستان، وهي من الداعيات حالياً. بعد جلوسها على مسافة بعيدة قليلاً، سألها أخوها إذا كان لديها سؤال أو لدى منير سؤال، لتجيب: "أنت تعرف شروطي"، لتغادر بعد ذلك المجلس.

قال أخوها: "شريفة تريد زوجاً تقياً صالحاً، لا يدخن، ولا يسمع المعازف، ولا يسعى وراء الأفكار المنحرفة".

أجاب منير: "أنا ولله الحمد لا أدخن، وأحافظ على أداء الفروض والواجبات".

ختم أخوها حديثه قائلاً: "الله يختار ما هو صالح".

غادر منير البيت متجهاً إلى سيارة أبي حسين الذي كان ينتظره، ليبادره أبو حسين قائلاً: "ها، ما رأيك؟ يقال إنها جميلة، بس مطوعة قليلاً؟"، ليجيبه منير:

"بل مطوعة كثيراً، لديها موقف من الحياة، أنا لا أستطيع أن أجاريها، أخاف لو تزوجتها أن ألحق بزوجها السابق، الشهيد".

مشروع الخطبة الفاشلة الثالث كان بواسطة زميل آخر في العمل يدعى محمد. كانت الفتاة التي قرر منير أن يتزوّجها وتدعى منى تعيش مع أمها التي انفصلت عن والدها بعد ولادتها بسنة لتتزوج رجلاً آخر وتنجب منه ولداً، ليموت ذلك الرجل بعد أن أورث الأم أموالاً طائلة، ولتعيش تلك الأم مع ابنها وابنتها في رغد، ولتعيش صراعاً مع والد ابنتها الذي يفسد كل مشروع خطبة لا يأتي عن طريقه، ومن ضمنها مشروع خطبة منير رغم موافقة الأم والبنت وأخيها الذي كانت له علاقة بمحمد، صديق منير.

إضافة إلى أن الاستراحة أشبه بالمخدّر لمنير، فقد كانت البلسم الشافي ليتجاوز تلك الأزمات ومن ضمنها تلك المشروعات الفاشلة للزواج.

***

كنت أفكر ذات يوم: ماذا لو أن الذي تبناني منذ حادثة حريق المنزل امرأة وليس والدي مسعود؟ حتماً ستكون تلك المرأة أمي بالتبني، بكل تأكيد ستسعى جاهدة للبحث عن قريبة لها ترضعني حتى تخرج من مأزق المحرم. ربما هذا أمر محسوم، لكن هل سأبقى منير ابن الرجل الذي اعتزل النساء؟ أتوقع أن الأمر سيكون مختلفاً لأنني سأعيش في عالم من النساء، قد يؤثر ذلك في سلوكي وتصرفاتي، ولكن وأنا أعرف كثيراً من الرجال حققوا النجاح والتميّز، لأن أمهاتهم ربينهم أحسن تربية.

ما سيختلف، وأنا أتوقع ذلك، أنه لن يكون هنالك مشكلة في اختيار الزوجة، إذ ستسعى تلك الأم بالتبني إلى البحث عن أفضل النساء لابنها. لن تكون هنالك تجارب خطبة فاشلة، ولن يكون هنالك وسطاء لا يعرفونني تماماً. ربما حكايتي ستنتهي حين أتزوج في سنواتي الأولى. الأمر الآخر: علاقاتي ستكون محدودة إذا كانت تلك الأم صارمة.

أنا لم أذق طعم حنان الأم الحقيقي. أمي مريم أحبتني وعطفت عليّ كطفل يتيم، وأم أنس لم أعرفها إلّا بعد أن كنت شاباً يافعاً يرغب في أن يقترن بابنتها الشيماء، وبكل تأكيد، لم تتّضح عاطفتها نحوي، وأعتقد أنه من الصعوبة تحويل النظرة من زوج البنت إلى ابن الرضاع.

كنت أحتاج إلى أمٍّ تنام بجانبي حين مرضي، وتضحك لفرحي، أريد أماً تذرف دمع عينيها حين أحقق نجاحاً، أريد أماً تعاقبني إذا أخطأت، أريد أماً ترتق جوربي وتختار لي قميصاً ألبسه، أريد أماً تأمرني بأداء الصلاة والواجبات المدرسية، أريد أماً تضع يدها على جبهتي لتتحسس حرارتي، أريد أماً تبكي حين أبكي وتغضب إذا ما اعتدى عليّ طفل في الحي، أريد أماً تقول لي: يا ولدي، يا عيوني، يا كبدي، يا بعَدي، و"يا كل طوايفي"، أريد أمّاً تقول: الله يفرحني فيك، أريد أماً تقول: عسى يومي قبل يومك، أريد أماً تحملني وأنا صغير وأحملها إذا كبرت، أريد أماً توجهني نظرتها، وتسعدني بسمتها، أريد أماً لأقبل رأسها ويديها وقدميها، أريد أماً لأكون إنساناً سويّاً... فهل سيكون لي نصيب من الجنة وأنا لم أتمرّغ تحت قدميها؟

فقدت الأم ولكن لم أفقد الأب، والدي مسعود – رحمه الله – قدّم الكثير إلي، ووالدتي مريم – رحمها الله – لم تبخل عليَّ ببعض الحنان، فهل ستأتي زوجة

تعوّضني ما فقدته في حياتي؟

خمس نساء كان من المفترض أن تكون إحداهن زوجتي حقيقة، كنت أتمنّى لو كانت الزوجة هي الشيماء التي أشعرتني بالحب لعدة أيام، ثم فقدتها للأبد. فاجعة أن تحبّ امرأة، وتحبك، ويصبح ذلك الحب حراماً! لا أحب الأفلام الهندية ولا المصرية التي تبالغ بفقد الأبناء وعودتهم، وفشل الزواج، ولكن ما حدث لي مع الشيماء التي سمّيت على اسم أخت الرسول – عليه الصلاة والسلام – بالرضاع لتصبح أختاً لي بالرضاع أكبر من كل القصص والأفلام والمسلسلات، فقدتها للأبد كما فقدت أمي التي لم أرها ولم أعرفها.

العم عكيل كان واسطة زواجي واستمراري مع ابنته يسرى التي لم أشعر معها أن هنالك امرأة ستشاركني الحياة، كنت أشعر أن العم عكيل مثلي، فقد جميع عوالمه وتشبّث بمن حوله الذين قد لا يتذكر بعضهم إلّا لحظات.

أنا لم أعرف صراع الآباء مع الأمهات حتى تقدّمت لخطبة منى، كان الصراع شرساً، لا يهمّ الأب أو الأم مستقبل الأبناء عند ساعات الغضب قبل الانفصال وبعده. لذا، يكون الولد أو البنت ضحية. تمنّيت منى كثيراً رغم أن وضعها الاجتماعي والمعيشي يصعب عليَّ قليلاً، ولكن بما أن الزوجة السابقة هي التي أرادت أن تزوّج ابنتها بذلك الرجل، فسيبحث الزوج السابق عن أي عيب في زوج المستقبل ليفسد مشروعه، وأنا أحمل كل مسبّبات إفشال أيّ مشروع زواج، والدليل رفض هيا أخت صديقي في العمل عبد الله الزواج بي بعد أن عرفت أصلي.

وحقيقةً تمنيت كثيراً لو كانت شريفة زوجتي، هي امرأة صالحة، ولكنها تحتاج إلى بعض التنازل، ليس في الدين ولكن في ممارسات الحياة، لتؤمن وتصبح

لديها قناعة أولاً أن الإسلام بخير، وما يحدث غالباً في بعض الدول هو صراعات سياسية، فكان من الأولى ألّا تترك زوجها يذهب إلى أفغانستان ليموت ويكون ضمن الشهداء. تمنّيت أن تكون بعيدة عن السلفية الجهادية، فالناس هنا مؤمنون بالله، وغالبيتهم محافظة على جميع الشعائر الدينية، وأولاً وليس آخراً يقول الله: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} من سورة النساء في الآية ٤٨ ويقول الله – تعالى – أيضاً في السورة نفسها: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} (الآية ١١٦). كنت أتمنى لو جلستُ معها وناقشتها، ولكن كنت مقتنعاً أنها لن تكون زوجة لي لأنني تتلمذت على يدي رجل عرّفني سماحة الإسلام وعظمته، والدي مسعود الذي منع ولد أخيه من دخول بيته عندما مزق الصور المعلقة في غرفتي ومجموعة من المجلات.

هل أعلن استسلامي وأتحوّل إلى نسخة ثانية من مسعود؟ تذكرت حلمي عندما رأيته لابساً بشتاً ليختفي وسط دخان البخور.

***

"لقد هرمنا"، هل تتذكر هذه الكلمة في بدايات الخريف، عفواً الربيع العربي، ربما لم تتذكرها تماماً، ولكن هيأتُك مع أحمد في حفل زواج ابنه مساعد يوحي بذلك. تغيّرت ملامح كثير من الناس الذين كنت تعرفهم، وفقدت أناساً كنت تراهم في كل مناسبة. حفل الزواج في جدة ممتع ويستحقّ عناء السفر، سكنت في فندق قريب من مقرّ الحفل، لبست بشتاً وذهبت إليه.

استقبلك أحمد مع بعض إخوته بفرح، رقصت، غنيت مع الجميع، وبعد العشاء ومغادرة العريس الحفل جلست مع أحمد، لقد تقاعد وزوجته، عاتبته على وأد موهبته الشعرية، ليقول لك: "حين ورد اسمي ضمن المنشورات التي هاجمت الحداثة رأيت أنني تدثرت بوشاح الكراهية، حتى إن بعضهم رأى أنني خارج عن الملّة، الناس يكرهون من يشاع عنه أن له علاقة بالملحدين".

- لكن كثيراً من الأسماء التي وردت في المنشور واصلت عطاءاتها وازدادت تألقاً.

- لم أرتكب خطيئة ولم ألحد، كل ما في الأمر ورود اسم أديب غربي في كتابتي، وهذا غرس الخوف داخلي، خوف من التأويل، خوف من اجتزاء مقطع من النص ليقدم صورة سلبية، عشت رعباً من عامة الناس الذين لا يقرؤون ويؤمنون بما يقوله أولئك الذي جعلوا أنفسهم سدنة للدين والفضيلة.

لم ترغب في أن تثير جراحه بحوارك معه، ولم تقدر أن تنبش ذكريات كثيرة بعضها جميل ولكن كثيراً منها مزعج، هو يعيش فرح ابنه، لتفرح معه، ولا تفكر أبداً في سيرتك، كل من هو في عمرك لديه رفيقة عمر، ومنهم من أنعم الله عليه بأولاد ثم أحفاد، وأنت حتى رفيقة العمر غير موجودة لديك، هذا قدرك وأحمد شاهد على ذلك.

في طريق عودتك إلى الرياض، تذكّرت حديثاً دار بينك وبين أحمد قبل سنوات حين جئت لتشارك أحمد وإخوته الصلاة على والده الذي انتقل إلى الرفيق الأعلى ودفن في مقبرة القيم في الطائف. في ثالث يوم للعزاء، سألك أحمد هل تعرف ذلك الرجل الذي نَشر سيرته في أحد المنتديات الإلكترونية، فأجبت بأنك لا تعرفه، هي حكاية غريبة عن شاب من الطائف التزم وهرب من أسرته، وخاصة

والده الذي خاف عليه من التطرف في الدين ليهرب ويتجه إلى الرياض، ثم يرافق رجلاً إلى حائل، ومنحه ذلك الرجل اسم قبيلته ليبتعد عن دائرة الشك، ثم يتّجه إلى عنيزة ليكون ضمن طلبة الشيخ ابن عثيمين، وقد كان يكتب في منتدىً مشهور أصبح منبراً للجميع، ساحة اجتمع فيها الإخواني والسروري والجامي والسلفي إضافة إلى الليبرالي، جميعهم يكتبون تحت أسماء رمزية إلا ما ندر. لقد كنت تبتعد عن المنتديات السياسية والفكرية، ونشاطك كان حاضراً في المنتديات الأدبية. في تلك السنة، طلب منك أحمد كتابة سيرتك ونشرها مجزأة في أحد المنتديات، وقد أعجبتني صراحتك حين رأيت أن المنتديات الأدبية ليست بمستوى السياسية أو الاقتصادية أو الرياضية.

ربما لو بدأت تلك السنوات في كتابة سيرتك، سيكون لك قراء، وسيسهل الأمر لدى عبد العزيز، الرجل الذي اتصل بك ليخبرك أنه يعرف كل شيء عنك، ويعرف عائلتك. سيقول لهم إذا أردتم معلومات عن منير تجدونها في منتدى على الإنترنت.

عموماً لا يزال لحكايتك بقية، ارجع إلى الأوراق التي لديك ثم واصل الكتابة.

٢٩

العالم يتغيّر ويتشكّل جراء الأحداث التي تمر به، ومنير وأصدقاء الاستراحة الخمسة الذين يزداد عددهم أحياناً ويقلّ أحياناً أخرى يمارسون حياتهم برتابة، هم مجرد متفرجين على أحداث ومتغيّرات، هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢، حريق مدرسة البنات، تفجيرات الرياض، قوائم المطلوبين... كان منير متخوفاً من أن يكون رقم هاتفه لدى أحد الذين قبض عليهم، مجرد وجود اسمه ولقاءاته القديمة مع بعض الذين غادروا إلى أفغانستان وأصدقائهم يجعله في دائرة الشك، فماذا لو رضخ لطلب أصدقاء سليمان ودفعته الحماسة إلى أن يجرب ويذهب إلى أفغانستان أو الشيشان أو البوسنة أو أي مكان فيه صراع ويقصده راغبو الجهاد؟

قراره كان جيداً بصداقة هؤلاء البسطاء الذين يبحثون عن لقمة العيش، ويسعدون بفوز فريق، ويعجبهم تمايل راقصة في محطة فضائية. راشد خفّت حدة نقمته وخفّف انتقاداته، ولكنه كان أشد نقمة على الإرهابيين، ولاسيما أنه كان هنالك تبادل إطلاق نار بين الشرطة وعدد من الإرهابيين قريباً من بيته في حي السويدي، حيث أصيبت أسرته بالرعب.

لم يحرص منير في الأيام الأخيرة على مقابلة سليمان، حتى حين توفّي جابر والده بالرضاعة، ذهب إلى الطائف وحضر الدفن والصلاة على الميت في مسجد ابن عباس، وغادر مباشرة إلى الرياض بعد تعزية الجميع ومن ضمنهم أخواته بالرضاع. لم يمكث في الطائف ولم يقابل أحداً سوى من قابلهم في المسجد

والمقبرة وبيتهم في الفيصلية، حتى إن أحمد توقّع وجوده عندما قدم إلى العزاء في اليوم الثاني فأخبروه بسفره مباشرة.

ذات مساء تلقى منير اتصالاً من منصور الذي دعاه لزيارته، وافق مباشرة رغم أنه لم يعرف سبب الدعوة، توقع زيارة إلى أحد إخوة عبير أو أخواتها، ولكن لو كان الزائر سليمان، لاتصل به مباشرة، ربما لأنه منقطع عنهم منذ زمن.

كان الموعد في مساء اليوم الثاني، استعد للدعوة وتوجه إلى فيلّا منصور الجديدة التي بناها في حي النفل، ليستقبله عند المدخل ابن منصور الكبير. اتّجه إلى داخل البيت وجلس في مجلس الرجال وحيداً، فجاءت بعد دقائق عبير لترحب به وتخبره أن منصور سيأتي بعد قليل. دار بينهما حوار تقليدي عن أحواله وأحوال أسرتها والجديد من أخبار. كان أكثرها أخبار مواليد جدد ونقل وترقيات وبيوت جديدة، وقد عتبت عليه لانقطاعه عن الجميع، ليعتذر إليها بظروف العمل وصعوبة التنقل في الرياض وبعد المسافات.

حضر منصور الذي قال له وهو يسلم عليه: "لا بدّ من اتصال لكي نراك، هذه أختك، وأنا بمنزلة الأخ"، وكرر منير اعتذاره بسبب العمل والزحام. لم تكن الدعوة لمجرد السؤال عن الأخبار، بل كان لدى عبير صديقة قديمة دلّتها على امرأة تصلح زوجة لمنير.

قرابة عشر سنوات على خلع يسرى له ومحاولات زواجه الفاشلة أطفأت كل شعلة أو رغبة للزواج لدى منير، شعر أنه سيكون مثل مسعود لا يرتبط أبداً بامرأة، ولكن ها هي أخته بالرضاع تخبره بوجود امرأة تصلح له، وليست لديها مشكلة في الأصل والحسب، كل ما يهمها أن يكون رجلاً عاقلاً.

أخبرته عبير أن تلك المرأة تدعى سارة، وهي أصغر من منير بخمس سنوات تقريباً. كانت لها تجربتا زواج: الأولى بابن عمها الذي توفّي بحادث سيارة، والآخر لم يمكث معها أكثر من سنة إذ طلبت الطلاق لخياناته العلنية التي جعلتها تكره الاقتران بالرجال، فقد رأت أنهم "كلهم خونة!"، وقد سعت أسرتها لعلاجها لدى طبيب نفسي، وقد تحسّنت حالتها، وهي راغبة الآن في الزواج.

طلب منير أن تمهله قليلاً ليتخذ القرار بهدوء، ليعلّق منصور على طلبه، إن الأمر الآن في البداية، وليكن القرار بعد رؤيتها، فربما لدى المرأة التي يرغب في الاقتران بها رأي آخر. وافق منير على ذلك وقررت عبير أن تتصل بصديقتها لتحديد موعد الرؤية الذي تحدد بعد أسبوع من تلك الزيارة.

طلبت عبير من ابنها أن يقلّها مع خاله منير إلى حي العزيزية حيث تسكن أسرة سارة، فوجئ منير بأنه لا رجال في البيت ليستقبلوه، حيث بقي في السيارة مع ابن اخته، وبعد قرابة خمس عشرة دقيقة اتصلت عبير بهاتفه المحمول طالبة منه الدخول، لتفتح له الباب خادمة سيلانية تبعها إلى مجلس كبير وجد أخته عبير وحيدة فيه. بعد قليل دخلت امرأة ممتلئة الجسم قليلاً في العقد الرابع من عمرها، تميل بشرتها إلى السمرة. جلست بحياء بعيداً قليلاً من منير وقريباً من عبير، لتبادر عبير بالحديث قائلة: "هذه سارة يا منير، إذا كنت ترغب أن تسألها أي سؤال".

التزم قليلاً الصمت رغبة في أن تبادر بالحديث، لكنه قرر أن يكسر حاجز الصمت والوجل بسؤالها هل تعمل؟ لتجيبه أنها كانت تعمل منذ سنوات واستقالت، ثم قالت: "أعتذر لأنه لا أحد يستقبلك، والدي توفّي منذ سنتين، وبقيت

أنا وأمي في هذا البيت، وكان من المفترض أن يحضر أخي الكبير، ولكن جاءه بعض الضيوف، بإذن الله، ستقابله".

أنهى منير اللقاء بقوله: "الله يكتب ما فيه الخير". غادر المكان وتبعته عبير بعد أن قالت لسارة: "سأتصل بكِ لاحقاً".

طول المسافة بين حي العزيزية حيث تسكن سارة وفيلّا منصور في النفل أوجد فرصة للحديث بين منير وعبير، لتقول له إن أمها ستسكن مع أخيها الكبير، وهذا البيت سوف يباع بعد زواجها، لتضيف أن المرأة عاقلة، قنوعة، لا تطلب غير الاستقرار مع زوج يحميها ويرعاها.

حين وصلوا إلى فيلّا منصور اتّجه منير إلى سيارته ليغادر المكان متجهاً إلى استراحة السلي منتظراً اتصالاً من أخته.

***

تذكرتُ العقاد وكتابه **سارة**، ذلك الكتاب الذي جمعتُ صفحاته الممزقة قبل قرابة ربع قرن، في حادثة تمزيق الصور وبعض الكتب والمجلات التي فعلها ابن أخ والدي مسعود المنتمي إلى مقتحمي الحرم الشريف. يقول العقاد عن سارة: "هي شيء يُعرَف ولا يُعرَف"، استوقفتني حينذاك هذه المقولة، أهو الغموض؟ كتاب العقاد (**سارة**) قد يكون رواية، تذكرت قصاصة كتبتُها ووضعتُها داخل الكتاب، لتسقط وتنجو بنفسها قبل أن تنالها يد ذلك الرجل ويمزقها، أقول فيها:

> يقال أنها رواية، وهي الرواية الوحيدة للعقاد، لا أشعر أنها رواية، هي مجموعة مقالات يربط بينها رابط هو علاقة الرجل بالمرأة، علاقة همام بسارة، وقبل ذلك بهند، يحتوي الكتاب على كثير من المعلومات والنسق العقّادي في سبر النفس البشرية ورؤيته المرأة، ربما هنالك حكاية، وهي لقاء

همام بسارة عند امرأة فرنسية في بيت صديق له، وعلاقاتهما التي تطورت إلى مواعيد في السينما مع رصد لبعض أسماء الأفلام، أو مختصر حكاياتها، وبيت همام الرجل المثقف... يبقى الكتاب ممتعاً.

العقاد لم يتزوّج، وإن قيل أنه تزوّج وطلّق، فإن هذا غير مؤكد، ولكن هنالك من يتحدث عن علاقته بالأديبة مي زيادة والفنانة مديحة يسري، وربما أيضاً امرأة تدعى سارة. ربما هو همام الشخصية التي كوّنت علاقة بسارة، ولكن سارةَ العقاد بكل تأكيد تختلف عن سارة التي أردتها زوجة لي. وهنالك سارة ثالثة كنت متردداً في الحديث عنها، ولكن أشعر أن سيرتي تحتاج إلى الوضوح والشفافية، وهي حكاية من ضمن حكايات كثيرة. فذات مساء كنت جالساً مع أصدقاء الاستراحة كعادتنا اليومية نشاهد التلفزيون الذي كان يعرض حواراً مع أحد الأدباء، ليعلّق أحد الزملاء طالباً تغيير القناة لأنه لا يريد أن يسمع حديث ذلك الحداثي الملحد. أزعجني كثيراً قوله لأنني أعرف ذلك الأديب وأعرف أنه يؤم الناس في الصلاة أوقاتاً كثيرة، فكيف يكون ملحداً؟ حاولت أن أغيّر نظرتهم عن الحداثة، ولحسن الحظ كان من ضمن الأصدقاء رجل يدعى رمزي، أتفقُ معه في كثير من الآراء. له اهتمام بالثقافة عامة. بحديثي مع أصدقاء الاستراحة وبمساعدة رمزي، بدأت نظرتهم تتغيّر إلى الأدب الحديث والأدباء، ليستغرب ذلك الرجل عما بثّه ذلك الكتاب عن الأدباء في المملكة العربية السعودية. تذكرت مقولة ذلك المفكر في بيت الفنان المصري أشرف، وقلت: هؤلاء يكتبون وفق أجندة معينة لا علاقة لها بالإسلام.

بقينا، أنا ورمزي، في الاستراحة ليقول لي: ''أنا مدعوّ غداً مساءً لجلسة خاصة، هل ترافقني؟''، فقلت له: ''لا مانع لديّ إذا قبلوا حضوري''، وقرر أن يمر

عليَّ في شقتي، ونتوجّه إلى فيلّا الأستاذ حامد في حي العليا.

أنا أعرف الأستاذ حامد، هو من الأسماء الصحافية البارزة، له كتابات جريئة، وقد أوقف عن الكتابة أكثر من مرة، ولكنه يعود أحياناً مهادناً، وأحياناً أكثر حدّة، لكن الدولة تثق فيه وترشّحه لحضور كثير من اللقاءات والمؤتمرات. استقبلنا حامد عند الباب مرحباً برمزي الذي عرّفني إليه قائلاً: "منير العبد الله، من الحداثيين الصامتين، مثقف وقارئ، ويكتب أحياناً قصصاً". رحّب بنا لندخل فيلّا صغيرة منظّمة، ونتّجه إلى درج جانبي أوصلنا إلى قبو، لأسمع موسيقا هادئة، وإضاءة خافتة تقريباً، وألمح مباشرة جلسة مكوّنة من طقمي كنب، وفي الوسط كان يجلس ثلاثة رجال وامرأتان. اكتشفت أن اثنين من الرجال الثلاثة إضافة إلى المرأتين يعرفون رمزي، الذي عرفني إليهم، أما الثالث، فكان أحد الشعراء القادمين من جدة. بعد دقائق جاء حامد قادماً من الأعلى ومعه امرأة اكتشفت أنها زوجته، فرحّبت بالضيوف وتوجّهت إلى طاولة الطعام التي كانت على الجانب الأيسر من الجلسة لتشرف على تنظيم الطاولة الذي تقوم عليه خادمتان فليبينيتان. كانت هنالك طاولة كبيرة وسط الجلسة عليها إناء فيه ثلج ومجموعة من المشروبات الروحية إضافة إلى مجموعة من علب البيرة والكولا والسفن. كان أغلبهم يدخن بمن فيهم النساء. ربما لأنني عشت في مجتمع مختلف في الطائف ثم في الرياض، مجتمع بسيط وأقرب إلى التقليدي، لم يكن لي علاقة بالمجتمعات المخملية، ولا بأولئك الذين يرون أنفسهم ليبراليين متفتحين. ربما كنت متفتح الذهن منغلقاً سلوكياً. لذا تكيّفي مع تلك الأجواء يحتاج إلى وقت رغم أنني لا أرفضها، هي حرية شخصية: الشراب، التدخين...

أنا الآن وسط هذه المجموعة المختلفة عن شلّتي في الاستراحة، وشلّتي في الطائف، وشلل كثيرة كنت من ضمنها. بالطبع على النقيض من شلل الصحويين، تمنّيت لو كانت لديّ حافظة أحمد لترنّمت ببعض قصائد درويش، ولكن لكسر حاجز الريبة أخذت علبة بيرة، وبدأت أدخل معهم في النقاش بتحفّظ، وكان عن قصيدة النثر. اكتشفت أن بعضهم لم يقرأ قصيدة نثر أبداً، وخاصة الاثنين وأيضاً رمزي، واكتشفت أن أحد هذين الاثنين يدعى عبد المجيد وهو فنان تشكيلي، والآخر اسمه زياد وهو كاتب عمود صحافي أسبوعي في الصفحة الاقتصادية. أما المرأتان، فإحداهما تجمع بين الأدب والفن التشكيلي وتدعى عفاف، والثانية من الصحافيات وتدعى فرح، ولا بأس بثقافة المرأتين، ولكنها ثقافة بسيطة. كنت في البدء أصحح معلومة بعضهم عن الفرق بين قصيدة النثر وقصيدة التفعيلة، فقال لي حامد: ''انتظر! بكل تأكيد السهرة هذه الليلة ستكون مفيدة وممتعة، سارة وشادي عند الباب، لننتظر حتى تكتمل الجلسة ثم نكمل النقاش''، لتقول زوجة حامد: ''بعيداً عن الرسميات، هذه طاولة الطعام، لكل واحد الحرية أن يأكل في أي وقت''. كنت جائعاً قليلاً، ولكنني أرجأت الأكل حتى وقت لاحق منتظراً القادمَين. أطلت سارة، وبعدها بقليل جاء شادي ويحمل معه عوده. بعد أن جلس الجميع، وخفتت أصواتهم بعد التعارف والسلام، بدأ حامد حديثه قائلاً: ''في البدء، نرحب بصديقنا الشاعر الغنائي عصام، بالطبع لديه كثير من القصائد الجميلة التي سيمتعنا بها هذا المساء، ومعنا ضيف جديد اكتشفت قبل قليل من الحوار ثقافته الجيدة في الأدب، التي ستثرينا بكل تأكيد هذا المساء، الأستاذ منير العبد الله، واسمحوا لي أن أدير الجلسة ضماناً بالتنظيم. قبل ذلك إذا أراد أحدكم أن يحضر طعاماً أو يأخذ شراباً فرجاء الآن قبل أن نبدأ''. قام رمزي وتبعته إلى

مائدة الطعام، ولحقتنا فرح التي بادرت بقولها: "لدي تحقيق عن المشكلات الزوجية والوسيلة المثلى لتجنبها".

ضحك رمزي، وقال لي: "عذراً يا منير"، موجهاً كلامه إلى فرح قائلاً: "منير لا يزال عازباً".

فقالت: "عذراً، ولكن لا بد أن لكل واحد رأياً، ربما شاهد خلافاً بين والديه، أو أقارب له".

قلت لها: "بالطبع، لكن ليس الآن أتحدّث".

فقالت: "بالطبع، لك يومان، أعتقد أن هذا يكفي".

أعطتني عنوان بريدها الإلكتروني، تناولت على عجالة بعض الفطائر، وورق العنب، وقطعة كيك، وعدت مع رمزي وفرح إلى أماكننا، لتعلق سارة مباشرة: "أكيد تحقيق جديد، الرجل أول مرة يحضر، أعطيه فرصة للتعارف"، فضحكتُ مجاملة، وقلت: "الصحافي يبحث عن الفرص ويستفيد منها".

سارة لها جاذبية غريبة، النساء الثلاث أعمارهن بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، وفرح غالباً أصغرهن، أما زوجة حامد، فأتوقع أنها تجاوزت الأربعين، وحامد بكل تأكيد في الخمسين. أعجبني التنوّع في تلك الجلسة. لم أشغل ذهني بعلاقة النساء بالرجال، ولم أعطِ فرصة للرجل المحافظ داخلي أن يحدّد تصرفاتي. أعرف أن الهيئة لو جاءت هنا، لكان التقرير خلوة غير شرعية وشرب المنكر، ولكن لتكن ساعات متعة، هي متعة خاصة لا تتجاوز مكاناً يجتمعون فيه، كلٌّ مسؤول عن نفسه، حتى النساء.

استمعت لبعض القصائد التي ألقاها عصام، اثنتان من القصائد في طور التلحين والغناء سيغنيهما فنان مشهور. لم تعجبني هاتان القصيدتان، ربما هنالك

قصائد أخرى قالها أفضل، ولكن أردت أن أعلق وأقول: لقد رحمكم الله أيها الشعراء بحسن تلحين بعض الفنانين وجمال صوتهم لتتحول الكلمات الرديئة أو العادية إلى أغنية جميلة، ولكن ليس دائماً، فلا يبقى إلّا الأغنية التي يكتمل فيها الكلمات واللحن والأداء، لكنني تذكرت أنني ضيف، وهو أيضاً ضيف محتفىً به. لذا، لو قلت ذلك الكلام لتضايق الجميع من وقاحتي، ولاسيما أن بعضهم بدأ يتجلّى مع الكأس والليل، وصوت شادي الذي كان مجلّلاً بالحزن وهو يغني لناظم الغزالي: "حياك بابا حياك"، وبناء على رغبة رمزي غنى لطلال "أغراب"، صوته جميل وممتع، ووجه سارة آسر: بياض مع حمرة خفيفة، كانت تشرب، لتنظر إليّ وتنتبه أنني أتأملها وتقول لي اشرب، وأريها علبة البيرة التي أخذتها في أول الجلسة ولا تزال شبه مملوءة، لتبتسم، وتقول: "ملامحك مختلفة عن هؤلاء الرجال، فيك دم تركي".

سمعها حامد وقال: "هذا غزل، الرجل أعزب، لا تخافي".

فقالت: "وهل رأيتني مرة خائفة، هو جميل، ولكن أشعر أن داخله حزناً".

شعر حامد أن الحديث سينصبّ حولي ويُهمّش صاحبه الضيف ليقول: "ولكن تغزّلي بالشاعر، وهو سيقول قصيدة غزل بك، ربما تسمعينها في ما بعد من حنجرة عبد المجيد عبد الله أو راشد الماجد"، لتضحك سارة وتقول: "آه يا خبيث، عرفت نقطة ضعفي"، ليتدخّل زياد قائلاً: "رجاء لنعد إلى نقاشنا السابق حول قصيدة النثر، بالله عليكم كيف يجتمع شعر ونثر في وقت واحد؟"، شاركت عفاف قائلة: "في الفن التشكيلي مجموعة من الأشكال الفنية والمدارس مثل الكلاسيكية والواقعية والتكعيبية والسوريالية وغيرها، وهي تمثّل مراحل، وقصيدة النثر مرحلة من مراحل الشعر". تدخّل عبد المجيد بقوله: "أعتقد أن هنالك لوحة

تشكيلية ولوحة تصوير ضوئي، هل يمكن دمج التصوير مع التشكيل"، ثم تدخّل حامد: "لا مجال للمقارنة، لأن الشعر فن قائم بذاته، ووفق معلوماتي يستطيع الفنان المتمكّن أن يدمج بين التجريدية والواقعية".

تدخلت بالحديث قائلاً: "في البدء لكل شخص ذائقته الخاصة، وسأركّز كلامي على الشعر، فهناك من يحبّ الشعر العمودي الموزون المقفى، ولا يعترف بأي شعر غير ذلك، وبالطبع هنالك من لا يمتعه إلا شعر التفعيلة. في المقابل هناك من يهتمّ وتعجبه قصيدة النثر، أتمنى أن تقرؤوا بتجرّد إبداعات شعراء قصيدة النثر، من منكم قرأ لأنسي الحاج، ومحمد الماغوط، وسركون بولص، وأدونيس؟... هذا يدفعنا إلى قراءة الإبداع العالمي، لنقرأ لرامبو وبودلير. كنت أتمنى لو كانت لديّ قدرة على الحفظ لقرأت عليكم مقاطع جميلة من قصيدة النثر. بالطبع الآن هنالك أسماء هنا في المملكة بدأت تكتب قصيدة النثر بأسلوب جميل"...

قاطعني زياد قائلاً: "عذراً، ولكن ألا ترى أن هنالك تحفظاً على أدونيس؟".

فسألته: "وما هذا التحفظ؟".

قال: "هو باحث ومنظّر، أكثر منه شاعراً، وعليه بعض الملاحظات".

أجبته: "عموماً هو من الأسماء المطروحة الذين يكتبون قصيدة النثر، ربما أضيف أيضاً إلى تلك الأسماء جبرا إبراهيم جبرا، وسليم بركات، عموماً تبقى الذائقة هي الأهم".

تساءلت فرح قائلة: "ما رأيكم بقضية قصيدة النثر في السعودية، هل ستتشاركون؟".

أجبت: "اعذريني، أنا قد لا أشارك، ولكن لديّ أسماء ممن لهم تجارب قصيدة النثر، رجالاً ونساء، ربما قرأت لفوزية أبو خالد، وغيرها من المبدعين

والمبدعات". انتهى حديثي وأخذت أستمع لمداخلات وتعليقات البقية، ليشتد النقاش بين رمزي وزياد، وحين ضحك زياد من رأي أطلقه رمزي عن القصائد الغنائية، وأن أغلبها نثر، خاصة الشعر الشعبي الحديث، حينما قال رمزي: "قصائد رحت وجيت وسهرت الليل"، ردّ عليه زياد: "تقول هذا الكلام وضيفنا موجود". فتدخّل هشام وذكر أن هنالك اختلافاً بين الشعر الشعبي والشعر الغنائي، وانتقل الحديث إلى موضوع آخر، وعلّق أيضاً زياد على كلام رمزي، الذي غضب وقال: "لماذا أنت تصادرني منذ بداية جلستنا هذا المساء". حاول حامد تهدئة الوضع، وقال: "رجاء، لدينا هذا المساء ضيفان جميلان، لتبقَ الجلسة مفيدة وممتعة"، وطلبت سارة من شادي أن يغني لمحمد عبده "ليتك معي ساهر"، ويغني الجميع معه، وحين وصل مقطع "ترى السهر مع حبيبك يبري العلة، لي صرت شفق وهو عليك شفقان"، أخذت سارة تشير بإصبعها السبابة وهي تنظر إلي وتترنّم مع شادي بذلك المقطع، كأنها تعنيني بذلك الكلام، ولك أن تتخيّل أن واحدة جميلة وجذابة تترنّم بمقطع أغنية وتبتسم لك! رسالة لم أكن أعرفها، وليست لديّ تجربة سابقة مع امرأة أرسلت رسالة مضمرة عبر أغنية. حتى في تجربتي الزوجية الفاشلة مع يسرى، سمعنا معاً كثيراً من الأغاني، ربما من بينها أغنية محمد عبده هذه، لم أشعر بقشعريرة كما هذه اللحظة في هذه الجلسة. مع يسرى كنت أسمع الأغاني كأنني أسمع نشرة أخبار، وهنا للأغنية روح تجتاح كل من يستمع لها، صوت شادي جميل، ولكنه ليس بمطرب متمكّن، ولكن الصوت والكلمات واللحن بثّت داخلي متعة السماع، ومتعة الطرب. أنا لم أسكر مثل أغلبهم، ولكن شعرت برغبة أن أمسك بيد سارة لأغنّي معها، ونرقص، لأواصل متعتي معها، ربما لو كانت لديّ الخبرة لحدث ذلك. على الأقل أحسستها

برجولتي كما طوّقتني بأنوثتها، ولكن مزاج رمزي تعكّر بسبب تعليقات زياد. لذا، قرر أن يغادر، بالطبع أنا ملزم أن أذهب معه لأقود السيارة، لأنه بوضعه الذي وصل إليه خطر على الجميع. وصلت إلى شقتي وقررت أن أبقيه عندي بعد أن هيأت مكانا مناسباً لنومه، يا لهذا الرجل الذي دلّني على امرأة أرادت أن تأسرني ليبعدني فجأة عنها! لم تسنح لي فرصة أن أذهب إلى حامد بعد ذلك المساء، وبالطبع ابتعدت كثيراً عن سارة، وها هي سارة ثالثة بعد سارة العقاد، وسارة جلسة حامد ورمزي، فهل تكون سارة التي قررت أن أتزوجها ووافقت وأسرتها على ذلك تهبني بعض ألق سارة الثانية أم ستصبح شيئاً يُعرَف ولا يُعرَف؟

***

هل سمعت بشاعر شعبي يدعى محمد القحطاني واشتهر بلقب "ابن حصيّص"، شاعر توفي قبل أكثر من ثمانين سنة، غالباً لم تعرفه، ولكن له قصة متداولة بصيغ مختلفة، من ضمنها أنه ولد في بلدة الوقف في القرائن، وتوفي في عنيزة. عاش ظروفاً صعبة بعدما توفي والده وهو صغير، يقال أنه كفيف البصر، حفظ القرآن وأجاد العربية، واشتهرت له قصيدة عن فتاة تدعى سارة. المفارقة أن الشاعر تغزّل بها وهو أعمى، وقصة هذا الغزل وفق ما يقوله بعض الرواة أن فتاة لم تكن بذلك الجمال الذي يغري أن تتزوج، فخاف عليها والدها من العنوسة، ليشتكي ذلك للشاعر القحطاني الذي قال له: "وش لي إذا زوجتها؟".

قال أبوها: "لك نخلتين طول حياتك". فأعدّ قصيدة وقالها في مجلس مملوء بالرجال، ليتسابق عليها الخطاب ويتزوّجها أحد وجهاء البلد. من أبيات القصيدة يقول ابن حصيص أو ابن فهاد وفق بعض الروايات:

ولعتني بالهوى والحب سارة
دلهتني عن عنادير البنات

ريق سارة مثل سكر في غضارة
أو حليب ابكار عُرْبٍ مسمناتي

راس سارة ذيل شقرا وسط غارة
والجدايل بالرشوش مجدّلاتي

المطوّع لو شاف خديد سارة
طبّق المصحف وعجّل بالصلاة

أعتقد أنك تتذكر البيت الأخير، حيث كان يردده أحياناً أبو حسين، خاصة إذا كان فَرِحاً، أو يرغب أن يترنّم بأبيات غزل. عذراً هذه إضافة بسيطة والشيء بالشيء يذكر.

أعرف أنك تعيش صراعاً حول ما ترغب في أن تكتبه، وما تخاف من كتابته، ولكنك تعرف أن الكتابة دواء. انظر إلى حالتك النفسية "كمثال"، حين غادرت عملك، وبالتأكيد قبل أن تغادره، ووضعك الآن، كأنك أزحت عن كاهلك كثيراً من الهموم.

واصل مراجعة الأوراق التي لديك، وواصل القراءة، وبعد ذلك اكتب؛ ستَتداعى الذكريات تباعاً، وستُفاجأ بأشخاص ومواقف ربما فرضت على نفسك نسيانها، ولكنها عادت إلى الحياة من جديد خلال رصدك سيرتك.

٣٠

لسارة أخوان: مقبل وسيف، والدها توفّي منذ سنتين بعد مرض ألم به جعله طريح الفراش لعدة سنوات حتى وصل مرحلة غياب الوعي، مقبل امتهن تجارة بيع وشراء السيارات وهو شريك في معرض للسيارات في حي الشفا قريباً من منزله، وسيف موظف متقاعد يسكن في الخرج حيث كان يعمل. سارة هي الصغرى، تسكن مع والدتها في بيت أبيها، تجربتها في الزواج مزعجة، فقد تزوّجت ابن عمها وهي في الخامسة والعشرين، إذ تأخر زواجها لسفر ابن عمها للدراسة في الخارج. وبعد عودته حاملاً شهادة دراسية عليا تزوجها لتعيش معه سبع سنوات، حملت مرتين، سقط الجنين في المرة الأولى حيث كان الحمل خارج الرحم، وكاد أن يؤثر فيها صحياً، والثاني فقدته وهي حامل به في الشهر الثامن بعد سنوات من العلاج والرغبة من الزوج في أن يرزق بمولود يحمل اسمه، فكان قدرها أن تفقد عزيزين لديها في حادث مروري في طريق الرياض – الطائف، وقد كانت صدمتها كبيرة عندما أفاقت من المستشفى ولم تجد لا زوجها ولا جنينها.

أثر فيها ذلك الحادث كثيراً، وكان والدها قبل أن يمرض ووالدتها عوناً لها للخروج من تلك الأزمة التي دامت أشهراً. سارة لا تحبّ أبداً أن تتذكر ابن العم زوجها الأول الذي منحها سبع سنوات سعادة لتفقدها بعد ذلك؛ فهل يملك منير مفتاح باب السعادة، ولاسيما أنها بعد ثلاث سنوات تزوجت أحد أقرباء زوجة أخيها سيف؟ لم يكن ذلك الرجل سوياً، لم تكتشف سارة أن زوجها مدمن مخدرات

إلّا بعد قرابة العامين من زواجها، إذ كانت تستغرب منذ زواجها سفراته المتعددة والنقود التي يستهلكها والتي يدّعي أنها للتجارة. كان لدى ذلك الزوج القدرة على أداء دور الزوج المحب والشخص التقي، وكانت هيئته توحي بذلك، وهو يعي أن الشكل له تأثير كبير في الناس، فبذقنه الطويلة قليلاً وثوبه القصير والسواك الذي لا يغادر فمه عندما يخرج من البيت، إضافة إلى لبسه الشماغ دون عقال، نال احترام الجميع وعلى رأسهم أبو مقبل وسارة. كانت حجته عندما يغيب أنه ذاهب للدعوة ولقاء أهل الخير، وأهل الخير والدعوة منه براء.

لم يتوقف الأمر عند ذلك بل تجاوزه إلى معرفة نقطة الضعف لدى سارة، وهي ذكرى زوجها الأول، ليخبرها أنه عازم على بناء مسجد باسمه في أحد أحياء الرياض الجنوبية الجديدة، ليبدأ بأخذ مبالغ مالية تزداد تباعاً، وحين رأى أن الأمر سيستنفد جميع ما لديها من أموال ورثتها من زوجها السابق، قرر أن يخبرها بأن الأموال التي سيأخذها في ما بعد تكون ديناً عليه وسيرده حين تأتيه أموال من أهل الخير، أو يحصل على أموال من تجارته، وسيرصد ذلك بأوراق للأمانة.

ما زاد حماسة سارة لمشروع المسجد أنه سيصبح باسم زوجها وابنه، جنينها الذي مات معه، أملاً أن يكون شافعاً لها يوم القيامة، ويعوضها الله خيراً منه. لذا، اكتشفت بعد أكثر من سنة أنها استنزفت جميع أموالها لتستدين من أخويها دون أن تخبرهما بمشروع المسجد، لأنها تريد ألّا يشاركها أحد سوى زوجها في بناء هذا المسجد.

كان المسجد وهماً، وكان تقوى ذلك الرجل زيفاً، ليقابلها ذلك الزوج بوجهه الحقيقي، الذي لم يكن فقط تصنّع الدين وتعاطي المخدر، بل خيانات متعددة مع

عدة نساء، تزوّج بعضهن وطلّقهن، وجمعه مع أخريات المخدر والبحث عن متعة. كانت صدمة سارة كبيرة، لم تبحْ لأحد بذلك، ولاسيما أن والدها أصيب بجلطة جعلته طريح الفراش، ليأتي زوجها ويتصنّع رقيته بحضور أخويها وأمها. تعرف مدى كذبه، ولن يصدقها أحد، أموال كثيرة أخذتها من أخويها بحجة مشاركة زوجها في مشروع تجاري، فقدت عملها عند زواجها بالزوج الثاني مباشرة، إذ كانت تعمل لدى أحد البنوك، وكان قراره أنه يربأ بزوجته أن تعمل في بنك ربوي، لتتنازل وتستقيل من عملها. وطأة مرض والدها تزداد، ووطأة تعبها من زوجها تزداد، وأمها تحمل همّ والدها، فلا ترغب أن تحملها همّها. أرادت أن تستعين بأخيها سيف ولاسيما أن الرجل قريب لزوجته، فأخبرته بأن زوجها يتصنّع الدين، ولم تخبره بتعاطيه المخدر أو خياناته مع النساء، ليردّ عليها أن زوجها رجل فاضل وما تقوله وهم. لم يتوقف عند ذلك بل أخبر زوجته بشكّ أخته ليتحول الأمر إلى موضوع شخصي يمسّ عائلتها، ولاسيما أنها وسيط الزواج، فتبالغ وتقول إن لدى سارة علاقات خاصة وتريد أن تتخلّص من زوجها، لتصدّق ذلك المرأة عديمة الشخصية التي تتبعها دائماً زوجة مقبل الأخ الكبير، الذي وصله خبر أن أخته لم تقدر ذلك الرجل التقي، وتريد أن تمارس حريتها، وهذا تشويه لأسرتهم.

حين تم تصعيد الخبر، وجد زوج سارة أن هنالك فرصة قدمت إليه على طبق من ذهب: أن يقايض سارة على الطلاق، لكن لم يكن لديها أي مبلغ سوى إرثها من والدها الذي توفّي منذ أشهر، الذي كان فقده موجعاً لسارة ووالدتها. لذا، طلبت من أخويها أن يمنحاها مبلغاً من المال يؤخذ في ما بعد من المال الذي سترثه من والدها. حصلت على ذلك المال، وتخلّصت من ذلك الرجل، الذي بكى

عند أخويها وهو يستلم المال بأنه لا يريد فراقها، ويسعى أن تكون من النساء الصالحات، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله!

إعصار مرّ على سارة جعلها في العراء، لا مال ولا إخوة يقدرونها، وأم كبيرة السنّ ومريضة، تحتاج إلى رعاية، وبيت تسكنه ليس لها إلّا جزء بسيط منه وربما لن يكون لها شيء حين يطالب الأخوان بالأموال التي اقترضتها منهم لمشروع التجارة. هي تعرف: لم يكن هنالك مشروع للتجارة، بل كان وهماً، وتوقعت أن هنالك أمثال زوجها من يبنون عمائر كبيرة باسم الدين. بعد تركها ذلك الزوج، كرهت الرجال، وأصابتها حالة نفسية جعلتها تشكّ في الجميع، فلم ترغب في أن يأتي أي مقرئ لينفث عليها خوفاً من أن يكون مثل ذلك الزوج السابق الذي حتماً سيرى ما أصابها وسيضحك ويهزأ بها.

بعد عدة أشهر وقع ذلك الزوج في يد الدولة في كمين للمخدرات؛ أحسّ مقبل أنه أخطأ بحق أخته، فأخبرها واعتذر منها، ولكن بقي سيف تحت تأثير زوجته التي أشاعت أن سارة بعلاقاتها ببعض الرجال ورطت قريبها ليقع في ذلك الكمين. أثر كلامها في زوجة مقبل بأن الرجل من الأتقياء شكلاً ومضموناً. لذا، بقي الموقف من سارة كما هو ولم يتغيّر، وأصبحت غير مرحّب بها في بيتي أخويها.

القبض على ذلك الزوج وسعي أخيها مقبل إلى علاجها عند أحد الأطباء النفسيين هيأ كل منهما سارة لحياة جديدة، فلا بدّ أن ترضى بأي رجل يتقدّم إليها، وإلّا بعد موت أمها، ستكون وحيدة بلا أهل، فمقبل مشغول في تجارته، وسيف مع زوجته، وكذلك زوجة أخيه مقبل، لا يرغبون فيها وإن كانت أختاً.

جاء منير ليطلب يدها، جاء رجل لا يهمّ من يكون حتى لو لم يكن له أب أو أم، وهذا أفضل، المهم ما تناقله الجميع: إنه إنسان سويّ وعاقل.

لمنير حكاية، ولسارة حكاية أخرى، فهل ستكون نهاية حكايتيهما واحدة؟

***

هل أحببت تلك المرأة؟ ربما، بل حقيقةً أحببتها، أحببت سارة المرأة البسيطة التي حملت على ظهرها هموماً كبيرة، التي فقدت رجلاً أحبته وابناً لم ير الحياة كانت تأمل أن يملأها حباً. في المقابل، كرهت الرجل الثاني بعد أن بنى حولها سوراً من الكراهية. هل أقدر أن أزيل ذلك السور؟ هل أعيد إليها ذلك الحب؟ هذا كان هدفي، إضافة إلى ذلك سعيت أن أكوّن حياة جديدة. انتقلت من شقتي التي مكثت فيها قرابة عشرين سنة، وكان من المفترض أن انتقل من تلك الشقة قبل سنوات لو لم تشترط يسرى بقاءها مع والدها في بيته، والآن ها أنا أغادر تلك الشقة الصغيرة لأنتقل إلى حي السليمانية مستأجراً شقة من أربعة غرف وصالة مع مطبخ وحمامين، منظّمة لدرجة أن هنالك استقلالية لأماكن الرجال بوجود غرفة تكون مكتبة لي وأخرى لاستقبال الأصدقاء. لا يزال لديّ رصيد جيد من المال، وقطعة الأرض التي في الطائف سأبقيها للطوارئ، أو تكون نواة لشراء أو بناء بيت في الرياض.

أنا متفائل بأن حياتي ستتغيّر؛ المرأة – مهما كانت – تضيف إلى المكان الذي تقيم فيه كثيراً من الرونق والبهاء. ها أنا أستقبلها بعد شهر من لقائي الأول بها، هي لا تريد حفل زفاف، وكذلك إخوتها، غادرت هي وأمها بيت والدها في يوم واحد لتقيم الأم مع ولدها الكبير، وتأتي سارة بصحبتي إلى بيت الزوجية.

أخيراً أحسست أنني متزوّج، لديّ زوجة وبيت، امرأة تعتني بي، تعدّ لي الطعام، تغسل ملابسي وتكويها، لم أشعر بذلك مع زوجتي الأولى التي اعتمدت على خادمة منزلية لديها. أريد أن أنسى أنني كنت متزوجاً مع وقف التنفيذ، أنا الآن منير، زوج سارة. بعد زواجنا بشهر حاولت سارة أن تعود إلى عملها الذي استقالت منه، لم يكن هنالك مكان شاغر، بحثت معها عن عمل لها يشغلها في الصباح، استعانت ببعض صديقاتها حتى وجدت بعد بحث دام عدة أشهر وظيفة شاغرة في فرع لذلك البنك الذي كانت تعمل فيه من قبل أن يأمرها زوجها الثاني بتركه. موقع البنك كان في حي الشفا، شعرت بالراحة لأنه سيكون قريباً من بيت أخيها مقبل حتى تطمئن إلى أمها يومياً. لم أرفض، ولكن ثمة مشكلة هي بعد المسافة بين حي السليمانية حيث شقتنا وعمل سارة في حي الشفا، وقد حلّت المشكلة بالتعاقد مع إحدى شركات النقل.

***

بممارستك الكتابة، فقدت تلك الأوقات الميتة التي لا تعرف كيف تستفيد منها، خاصة عندما لا يكون لديك رغبة في القراءة أو مشاهدة التلفزيون. تجلس وأنت تراقب اللاشيء، تغمض عينيك، تحاول أن تنام ولكن لا تستطيع، جميل أن تتجدد بك الحماسة لتواصل الكتابة وترصد سيرتك. أنت هنا تحاول أن تشكل نفسك من جديد. لو لم تكن تكتب وتقرأ وتفكر، لعانيت من مشكلة الأفكار السلبية التي حتماً ستقضي عليك، والتي بكل صراحة كادت، ولكن كان مشروع السيرة طوق النجاة لك من الغرق في الوهم والمرض.

أنت الآن لا تشغل ذهنك بكلام عبد العزيز بأنه يعرف كل شيء عنك، وهو يعرف عائلتك. لنفترض أنك لم تكن تكتب أو تقرأ، ما الذي سيصيبك؟ الأفكار السلبية ستسيطر عليك، تتوقع أن اتصال عبد العزيز مقلب أو سخرية من بعض الناس، أصدقاء أو أعداء، وستتوقف عند كل كلمة قالها، وتتوقع كل كلمة سيقولها، وماذا بعد، ستعيش في دوامة من التفكير ربما توصلك إلى الجنون.

أنت الآن إنسان سويّ، قطعت مسافة طويلة من زمن سيرتك التي بدأت أشعر أنها مختلفة، فعلاً مختلفة، لقد بدأت أشك أنك "ابن الجنية"، هل هنالك من لا يزال ينعتك بتلك الصفة، لأنهم عندما تصلهم أخبارك والمصائب التي مرّت عليك، سيقولون لو كان إنساناً طبيعياً لانتهى أمره في مستشفى الأمراض العقلية، يتيم ولا يعرف والديه، وطفولة عند رجل بلا نساء، وحين يحتاج إلى أب وهو في ريعان الشباب يفقده فجأة. لا يتوقف الأمر عند ذلك، بل يجد نفسه وحيداً في الشارع لولا أهل الرضاع وطيبة بعض الناس وأخلاقهم. لا يتوقف الأمر عند ذلك: زواج فاشل وصراع مع الحياة... كل هذه المشكلات محوتها بكلمات كتبتها عن حياتك التي كانت، ورصدك كتباً ومجلات وأوراقاً تقرؤها فيدخلك أغلبها إلى عوالم جميلة. بكل تأكيد، ستواصل القراءة، وستتوسّع قراءتك بعد أن تنهي مشروعك الكتابي، الجميع ينتظر بقية حكايتك.

٣١

رغم عملها الصباحي، حرصَت على تنفيذ جميع طلبات منير، ومنها الأكل والملابس النظيفة وغير ذلك. علاقة منير بالاستراحة قلّت، إذ اكتفى بيومي الخميس والجمعة في حال رغبة زوجته في أحد اليومين في الذهاب إلى إحدى المناسبات. المزعج والمؤلم لها أن هنالك موقفاً موحداً تجاهها من أسرتي أخويها، فلم تكن تُدعى لأي مناسبة لهم، وحين تزور والدتها أو تمر عليها بعد خروجها من عملها، لا يستقبلها أحد سوى خادمة منزلية ترافقها إلى غرفة أمها.

كانت تخبر منير بذلك وهي تبكي، فوالدتها لكبر سنها لا تعي أحياناً سبب مواقف عائلتي أخويها منها، بل غالباً ما يُشعرون أمها أن ابنتها مقصّرة بحقها، فتستقبلها وهي غاضبة منها، لأنها رفضت المجيء إلى حفل عشاء حضره كل أفراد العائلة، وهي بالأصل لم تدعَ.

كانت خائفة على والدتها وتتمنّى أنها معها في شقتها مع منير الذي كان يتمنّى ذلك أيضاً ليشعر قليلاً بحنان الأم، فقد كان يسعى إلى التخفيف على سارة بسبب بعدها عن أمها، وكان يتذكّر ما يردده والده مسعود حين يتكلم عن وضع أناس تعساء، أو حال بعض الناس بعد فراق من يعولهم، حينما كان يقول له: ''الله لطيف بعباده''، تلك الكلمات كانت تريحه، وها هو يحاول بكل ما يقدر عليه أن تشعر سارة بالراحة، وأمها ستكون بخير، وهي الآن زوجته، وسيكون لهما أبناء وستتغيّر حياتهما.

زوجة سيف امتلأت حقداً على سارة بسبب ثبوت تهمة تعاطي وترويج المخدرات على قريبها زوج سارة الثاني، وسيقضي بموجبها في السجن مدة قد تتجاوز عشر سنوات. تلك الحادثة أساءت إلى أسرتها، ولاسيما أن قصة ذلك الرجل وتعاطيه المخدرات تحت ستار التدين عرفها جميع الناس، وعرفوا تصنّعه الدين، لدرجة أنهم أصبحوا لا يثقون ببقية رجال أسرتها المتدينين، وتسبب الأمر في رفض أحد أبناء أسرتها عندما تقدم إلى الزواج عند إحدى الأسر، ليغضب الجميع عليها، فتلك الزوجة هي السبب باقترانه بالمرأة التي دلّت الأمن للقبض عليه. والحقيقة أن سارة ليس لها علاقة بالقبض على ذلك الرجل، ولكن زوجة الأخ وجدتها مشجباً تعلّق سوء عمل قريبها عليه.

تأثر منير بمشكلات أسرة سارة، فتعب كثيراً وتمنّى لو انتقلا إلى بلد آخر، ولكن سارة لا تقدر على فراق أمها، وعملها جعلها تبني صداقات جديدة، وتكسب سمعة جيدة، فلا تريد تركه، وحقيقة كان منير سعيداً بأنها تعمل، لأن ذلك أثّر في حالتها النفسية وأصبحت أكثر حباً للحياة، ولكن هنالك من لم يكن سعيداً بعملها، ولا يريدها أن تكون سعيدة، تلك هي زوجة سيف، ولاسيما أنها عند زيارتها زوجة مقبل بحضور مجموعة من جاراتها ذات يوم سمعت من إحدى النساء إشادة بسارة، ودعوات لها بالتوفيق لأنها ساعدتها، فحينذاك قررت زوجة سيف أن تنهي حياة سارة العملية. أغرت سيدتين إحداهما من العاملات في البنك، بعدما عَرفت تلك الزوجة أن الموظفة لا تكنُّ وداً لسارة، والأخرى من خارج البنك، وتم تحديد موعد تحضر فيه المرأة إلى البنك وتتّجه إلى سارة لتطلب منها مساعدتها، فتغادر سارة مكانها لمساعدة المرأة وأثناء ذلك، تسحب الموظفة مجموعة من الأوراق الرسمية وتغير بعض الأرقام فيها. سارة كانت تعي أن هنالك حاجزاً بين

المراجعات وموظفات البنك. لذلك، كانت مطمئنة إلى الأوراق التي كانت على مكتبها، ولم تعلم أن تلك الأوراق التي جمعتها وقدمتها إلى رئيستها المباشرة ستكون وثيقة إدانة لها، وسيتسبب ذلك في فصلها.

نجحت خطة زوجة سيف، وأنهت حياة سارة العملية، فلم تتمكّن من الدفاع عن نفسها، لأن الأخطاء في الأوراق التي كانت لديها كارثية، وكادت تتسبب في تحمّل البنك مبالغ طائلة.

سارة كانت واثقة من عملها، ولكنها بدأت تفكر أن هنالك مؤامرة، وما حدث كان في يوم طلب تلك المرأة مساعدتها في تعبئة البيانات. والغريب أن تلك المرأة لم تكمل إجراءات تلك البيانات، بل غادرت البنك شاكرة سارة مساعدتها، وحين عادت سارة إلى مكتبها لم تلاحظ أي تغيير. لذا، لم تراجع الأوراق الرسمية التي لديها، وفعلت ما تفعله كل يوم بتسليم الأوراق لرئيستها.

حاولت سارة أن تتذكر اسم تلك المرأة فتذكرت الاسم، وطلبت من بعض صديقاتها اللواتي فوجئن بالحادثة أن يساعدنها للبحث عن تلك المرأة لأنها ربما كانت لها علاقة بما حدث.

خبر الاستغناء عنها انتشر حتى وصل أمها، ولم يتوقّف الأمر على الاستغناء، بل اقترن باختلاسات من البنك، الأمر الذي جعل مقبل، أخ سارة الكبير، يغضب، ويقابلها أثناء زيارتها أمهما، ليقول لها: "لقد شوّهت سمعتنا، سنتبرأ منك، يكفي أن زوجك بلا أصل".

منير يعرف أن زوجته مظلومة، وهنالك من دبّر مكيدة البنك. لذا، ذهب إلى أحد القيادات في البنك، وحكى له قصة زوجته، وأن هناك من عبث بأوراقها،

فقال له ذلك المسؤول: "كان من المفترض ألّا تغادر مكتبها حتى تؤمِّن على كل الأوراق لديها وتضعها في الدرج وتقفل عليها".

بعد تركها عملها طلبت سارة من منير أن يذهب بها يومياً إلى بيت أخيها لتطمئن إلى أمها، رضخ منير لطلبها وأصبح هناك موعد يوميّ بعد صلاة المغرب للذهاب إلى حي الشفا لكي تزور أمها، وكان منير ينتظرها في سيارته خارج البيت لأنه لا يرغب في دخوله.

كان منير ينفذ ذلك المشوار اليومي لمعرفته أن وضع أم سارة الصحي يزداد سوءاً، وقد كانت ترفض الذهاب إلى المستشفى. كان لدى تلك الأم إحساس أن ابنتها مظلومة وغير مرغوب فيها من أخويها وعائلتيهما، ولكن لم يكن لديها القدرة على الإفصاح عن ذلك، ولا حول ولا قوة لها. هي تشعر أن أيامها معدودة، لن تذهب إلى المستشفى لأنها لا تحتاج إلى أن تكون بخير، وهي تشعر أن الخير ذهب مع زوجها الراحل. كانت تنتظر موتها في الوقت الذي كانت فيه سارة تتمنى أن تعيش لتسعد برؤيتها ولو دقائق محدودة كل يوم. هي ترى أن الإمساك بيدها وتقبيل رأسها يمنحها راحة تحتاج إليها كثيراً.

تموت الأم وتنتهي علاقة سارة بأسرتها بعد أن تنازلت عن حقها في الميراث لقاء الأموال التي سبق أن اقترضتها من أخويها. كانت تقول: "كل أموال الدنيا لن تعوضني عن فقد أمي".

***

ارتحت قليلاً عندما ابتعدنا عن أسرة سارة. أريدها أن تنسى كل الماضي كما نسيت. أريدها أن تكون العتبة الجديدة لي كما سأكون العتبة الجديدة لها، التي

نصعد بها ونلج حياة جديدة لنا.

فعلاً لقد عشت دوامة لم أتوقع أن تصرفني حتى عن القراءة. المشوار اليومي إلى الشفا يأخذ أكثر من ساعتين ويرهقني كثيراً. كانت عبير تتابع الأحداث وتشجع سارة على تجاوزها. كنت أحلم بطفل وكذلك سارة. لكن السنوات تمر وليس هنالك أي بادرة لقدوم مولود. لم نتوقف عند الأمنيات بل ذهبنا إلى مركز صحي متخصص بالحمل والولادة، وقد أفادنا أنني وسارة لا نعاني أي مشكلات صحية تعوق الحمل. ربما هنالك بعض المشكلات النفسية لدى سارة، وهنا تزداد مسؤوليتي، يا لهذا المأزق! أنا مجموعة من التراكمات النفسية المقيتة، وأريد من ينتشلني منها، هل سأصبح مثل الطبيب الذي يداوي الناس وهو عليل؟

خلال السنوات الماضية كان هنالك أكثر من حدث، ربما أهمها أزمة الأسهم التي مضى عليها بضع سنوات، والتي جعلتني أخسر مبلغاً ليس بالقليل، رغم أنني لست على علاقة بالأسهم والتجارة بأنواعها كافة، ولكن بتوصية من أحد أصدقاء الشركة جعلني أبيع الأرض وأضع أسهمي فيها، وها هي أسهمي تتهاوى. كنت قبل هوس الأسهم أفكر أن تكون قيمة الأرض نواة لشراء أو بناء بيت، ولكن ربما قدرنا، أنا وسارة، أن نبقى في هذه الشقة طول العمر، ولاسيما أنه مضت بضع سنوات على تلك الأزمة ولم تتحسّن الأسهم كثيراً ولن تتحسن، خاصة لرجل مثلي اشترى تلك الأسهم وهي متجاوزة الحد الأعلى.

الآن لديّ راتب بسيط، ومبلغ أبسط في البنك، وزوجة تحتاج إلى رعاية خاصة.

ذات يوم زارني سليمان. لم يتغيّر كثيراً رغم أننا في عهد جديد شهد انحساراً لكثيرين ممن اتخذوا الدين وسيلة للوصول. في المقابل، فُتِحَ مجال الحوار بين

تلك الطوائف وتسنّمت امرأة منصباً قيادياً. جاء سليمان وقد بقي ذلك الرجل المتديّن الحريص على الأخلاق. لمحته سارة، وبعد مغادرته، طلبت مني ألّا أستقبله مرة أخرى، اكتشفتُ أن زوجها الثاني جعلها تكره كل من كان شبيهاً له في اللبس، وقد قلت لها: ذلك الرجل سويّ، إيمانه صحيح، ولكنها أصرّت على رأيها لأن شكله يسبب لها الضيق.

أنا الآن أصبح يهمني هذه المرأة، لا أريد أن تكون تعيسة، كفاها ما نالته من تعاسة، كفاها ما يسبب لها من عذاب بهجران عائلتها لها ونبذها إياها، كفاها ابتزاز زوجها السابق لها، وتحوّل المشروع الذي حلمت به إلى وهم، حتى أجر الآخرة فقدته... قصصها تُشيب الرأس وتُتعب، وأنا أنشد السعادة، ولكن كلما بدأت النسيان، جاء من يفجر همّها ليزداد الألم، كأنه جرح كلما بدأ يندمل، جاء من يفتقه ليسيل دماً.

سنوات مرّت على فقد عملها وفقد أمها بعد ذلك لتصل مرحلة فقد الأمل بمولود يعيد تشكيل حياتها، أعرف، أنا وهي، أنه لا يد لنا في ذلك. لذا، كنت صارماً وقررت أن أنسيها الماضي لنعيش حياة جديدة. قررت أن أعود إلى الطائف.

***

كنتَ مندمجاً في كتابة سيرتك مع سارة، ربما لم تتحدّث عنها كثيراً، لم تشعرنا أنها أنثى، لم نجد فيها سارة العقاد ولا سارة جلسة القبو مع أصدقاء السهرة اليتيمة، ولا حتى سارة "ابن حصيّص"، التي جعلت المطوع يعجّل بأداء الصلاة. أعرف أنها سمراء قليلاً، ممتلئة الجسم، ولكن شكلها مقبول، فليست أبداً قبيحة.

لقد أشعرتكَ أنها زوجتك، وسعت إلى إسعادك، ولكنك لم تكن قوياً لتدافع عن حقوقها. المجال مفتوح أمامك: بإمكانك أن تذهب إلى المحاكم وتشتكي باسمها، أو تذهب معها، أنت وهي زوجان تعيسان، ما نهاية هذه التعاسة؟ كنت ستواصل الكتابة لولا رنين هاتفك المحمول الذي جعلك تتوقف مباشرة لتجيب المتصل.

خفق قلبك عندما عرفت أن المتصل عبد العزيز، سمعته يقول:

- كيف حالك يا منير؟

- بخير، هل من جديد؟

- كل خير، قابلت الأخ الأكبر لعائلتك، هو على ما أعتقد أصغر منك بسنتين أو ثلاث سنوات، وطلب مني إمهاله أسبوعاً أو أسبوعين حتى يجتمع ببقية العائلة، إخوتك وأخواتك.

- إخوتي، أخواتي، كم أخاً وأختاً لي؟

- كما علمت، كان والدك مزواجاً، تزوّج أكثر من امرأة، في أكثر من بلد؟

- هل طلبت منه أن يتصل بي، يكلمني قبل اللقاء أو أكلمه أنا؟

- الأمر ليس بالهيّن، عليك بالصبر، حين يحدد الموعد سأتصل بك مباشرة، ونذهب معاً، أنا أعرف بيته، وقد قابلته بحضور بعض إخوتك، وهم أيضاً يحتاجون إلى تهيئة نفسية لأنهم سيقابلون رجلاً من المفترض أنه ميّت.

- وماذا عن والدي ووالدتي؟

- لن أتحدّث الآن، ستعرف كل شيء عند لقائك عائلتك، إلى اللقاء!

مكالمة جاءت في الوقت المناسب، أنت محتاج إلى شحنة أمل، أعرف أنك حريص على إكمال سيرتك رغم أنها شائكة، ولكن لا بد أن تكملها، والآن هي ليست سيرتك وحدك بل سيرة امرأة معك، ولنقل كانت معك، معك بعض الوقت

لإكمال السيرة. لديك بعض الأوراق كنتَ قد فرزتها قبل مدة وعرفتَ تاريخها الزمني، وهي متأخرة قليلاً. ارجع إلى تلك الأوراق، وارصد ما كتبته عليها، ربما قد تكون نسيت شيئاً.

٣٢

مشروع الانتقال إلى الطائف تأجل لحصول سارة على عمل في مؤسسة في حي العليا ولصعوبة حصول منير على عمل في الطائف، ولاسيما أن الرجل الطيب مدير الشركة التي كان يعمل فيها هناك قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، وصُفِّيت الشركة وأغلقت، وليس لدى منير مؤهل يمكنه من الحصول على عمل، ووظيفته في الشركة في الرياض لا تمثل خبرة جيدة. لذا، لتبقَ الحال على ما هي عليه، مع تغيير الوضع إلى ما هو أحسن، مع عمل سارة، الذي بكل تأكيد سينقلها إلى حقبة جديدة في حياتها تأمل أن تكون خالية من الحزن والمشكلات، رغم أنه يصلها أحياناً أخبار عن بعض المناسبات السعيدة لعائلتها. هي تعرف أنها لا تقدر أن تحضر تلك المناسبات بسبب المقاطعة، فتشعر بحرقة، ولاسيما أن بعض بنات أخيها مقبل كنّ يضمرن الودّ لعمتهن، ويبلغنها ذلك سرّاً خوفاً من أمهن أو زوجة عمّهن أثناء زياراتها القديمة إلى والدتها. لذا، هي تسلّي نفسها متوقعة أنها ستلتقي بهنّ في المستقبل بعد أن يبتعدن عن دائرة الكراهية.

ذات يوم بلغ سارة خبر وفاة أخيها سيف، حزنت كثيراً عليه، وسامحته على موقفه منها، وتمنت لو كانت العلاقة جيدة لذهبت إلى مجلس العزاء، ولكنها اكتفت بالاتصال بأخيها مقبل وتعزيته، وطلبت أن يبلّغ عزاءها للأهل كافة. كذلك، فعل منير، ولكن ما أزعجه طلب مقبل منه ألا يتصل مرة أخرى لأي مناسبة مختتماً قوله: "نحن في طريق، وأنتم في طريق". لم يعرف أبداً سبب ذلك، ولم يُبلغ سارة بطلب أخيها.

واصل منير وسارة حياتهما اليومية الرتيبة: عمل وجلوس في المنزل، وانتظار تحقق الحلم بالحمل، لكن السنوات تمرّ ولا جديد، ليقتنعا بحياتهما، ويكوّنا صداقات محدودة، ويعيشا كإحدى الأسر المتوسطة الدخل في مدينة متغيّرة تسمى الرياض.

حكاية منير لم تنتهِ لأن هنالك كذبة أُطلقتْ فصدّقها قائلُها، كذبة أطلقتها زوجة سيف التي أصبحت الآن أرملته، وزوج سارة الثاني الذي خرج من سجن دام أعواماً وهو مملوء بالحقد على امرأة لا ناقة لها ولا جمل في كل ما حدث له. كان قرار الاثنين إفساد حياة سارة كما أفسدت حياته.

لقد فقد ذلك الرجل كل تقدير واحترام بعد أن خُلِعَ عن وجهه قناع التقوى والصلاح، فأصبح مدمناً خرّيج سجون. لقد كان ذلك الرجل لعنة أصابت سارة ولم تتخلّص منها، فبحكم علاقاته السابقة غير السوية جنّد ذلك الرجل مجموعة من النساء والرجال لحصار سارة ومنير.

قبل ذلك تتبع زوج سارة الثاني سيرة منير عبر زيارات خاصة إلى بعض الموظفين القدماء الذين يعملون معه في الشركة، ومن ضمنهم بادي الذي دلّه على عبد القادر مدير الشركة الذي أحيل على التقاعد منذ سنوات، ليذهب إليه الرجل متصنعاً هيئته السابقة التي تتّسم بالتقى والورع، مخبراً المدير أنه من أهل الخير، ويعلموه أن منير قد تزوّج أخيراً لكن ليس لديه سكن، فهو يعيش في شقة مستأجرة، ومشروعهم شراء سكن له ولزوجته ولأبنائه مساهمة من أهل الخير.

عبد القادر أحب منير كثيراً وعطف عليه. يعرف أنه رجل بسيط لا حول له ولا قوة. لذا، أخبره بسيرة منير بالتفاصيل التي أخبره بها مدير شركة الطائف إضافة إلى ما عرفه من منير مباشرة حين زاره في بيته قبل محاولات زواجه الأولى.

عرف زوج سارة الثاني أن لمنير والدين لا يعرف عنهما شيئاً، غادرا الطائف إلى مكان لا يعرفه أحد، وتبنّاه رجل يدعى مسعود. رأى ذلك الرجل أن معرفة الأب والأم بعد تلك السنوات ضرب من الخيال. فليكن عن طريق الأب بالتبني، ليصل إلى معلومة لا يعرفها منير، وهي أن إخوة مسعود لم يبقَ منهم إلا الأصغر، فقد توفي الأكبر عوض ولحقه الأوسط فالح، وبقي مهدي الذي عرف منه زوج سارة الثاني أن منير الذي تبناه أخوه "رجل غير صالح" مؤكداً ما تداوله الإخوة عن أنه رجل غير ملتزم دينياً.

أخذ ذلك الرجل معلومات كاملة عن مسعود وأسرته من مهدي بحجة أن منير تقدم للزواج بقريبة له كزوجة ثانية، وعرفوا بعض المعلومات عن منير، ولكن لم يعرفوا معلومات عن الرجل الذي تبناه، فينصح مهدي ذلك الرجل برفض الموافقة على الزواج لأنه من أهل الضلال.

اختُرق عالم منير عبر رجل زعم أنه أحد أبناء عوض، شقيق مسعود، خفق قلب منير عندما سمع اسم أبيه بالتبني، الرجل الذي أحبه كثيراً، وخسر كثيراً عندما فقده. كانت زيارة ذلك الرجل في مكتب منير في الشركة، ليقول ابن عوض: "لقد بحثت عنك منذ سنوات لأقدم إليك اعتذاري عن مواقف والدي عوض وعمي فالح – رحمهما الله – وعمي مهدي". تذكر منير الأشقاء الثلاثة، إخوة والده مسعود، ودعا للميتين بالرحمة، ليطلب منه ابن عوض "أن يحللهما ويتسامح مع موقفهما العدائي منه"، فيدعو منير للجميع أن يسامحهم الله، وليخبره ابن عوض أنه تزوج ابنة عمه فالح، وهي ترغب في زيارة أسرته، فرحّب بهم منير واتفقا على موعد للزيارة.

بسبب الفجوة التي أحدثها ابن الأخ الأكبر لمسعود، الذي كان من مقتحمي الحرم، بين منير وأسرة مسعود، لم يكن لدى منير أي معلومات عن تلك الأسرة، أي أبنائهم وبناتهم. لذا هو لا يعرف ابن عوض ولا ابنة فالح، ولكن لأن فيهما من رائحة المرحوم والده مسعود، فحياهما الله في بيته، وستفرح سارة بذلك الخبر، ولاسيما أن منير حدثها كثيراً عن ذلك الرجل الطيب الذي أنقذه من الموت وتبنّاه.

كان لدى المرأة التي اختارها زوج سارة الثاني لتكون زوجة ابن عوض وهي ابنة فالح خبرة في التصنع والتمثيل، وقدرة على التأثير، فبعد لقاءات قصيرة متعددة باحت لها سارة بكل ما لديها من هموم، من ضمنها العجز عن الإنجاب والقطيعة مع عائلتها، فكانت تخفّف عنها كأنها أعز صديقة.

علم منير أن ابن عوض وزوجته مقيمان في بلدتهما، ويأتيان في أوقات متقطعة إلى الرياض، ويسكنان في إحدى الشقق المفروشة. توطّدت العلاقة بين سارة وابنة فالح التي أشعرتها أنها ستسعى إلى تحسين علاقة سارة بعائلة أخيها مقبل. أمر آخر هو البحث عن دواء للإنجاب، ووصلت العلاقة بين المرأتين إلى الثقة المطلقة، فشعرت سارة أن الله رزقها بأخت بعد الزوج الذي أحبها، وبالطبع هي أخت مختلفة. لا تعي سارة هذا الاختلاف لأنها كانت وحيدة أبويها، وتمنّت كثيراً لو كان لها أخت فربما تغيّرت حياتها.

وصلت خطة زوج سارة الثاني إلى مرحلة بداية النهاية، إذ بدأت سارة المرأة التي اشترت طلاقه والانفصال عنه بالمال تثق بالمرأة التي انتحلت شخصية ابنة فالح شقيق مسعود. بقيت خطوة أخيرة، وعندئذ يبدأ بالانتقام النهائي.

شعر منير بكثير من الأمان والاستقرار لوجود طيف مسعود يخيّم عليه هو وزوجته عبر العلاقة الجديدة التي ربطتهما بابن عوض وزوجته ابنة فالح.

***

لا أعرف أين يعمل ابن عوض ولا طبيعة عمله، اسم مسعود أَنساني كل التفاصيل، ولكن كل الذي عرفته أن زوجته تأتي لزيارة قريبة لها، منوّمة في أحد المستشفيات في الرياض، وكانت لا ترغب أن يعلم أحد من أسرتها بعلاقتها مع زوجها بأسرتنا، أنا وسارة، لأن ابن عوض يقول إنه للأسف لا يزال هنالك موقف سيئ من بعض أفراد الأسرة.

ربما تكون أم المرأة أو إحدى عماتها، وهذا ما جعلني مع زوجتي نرضى بابن عوض وزوجته، ربما يتغيّر الأمر في المستقبل، ولاسيما أنه في عمري إن لم يكن أكبر قليلاً، وهذا ربما له بعض التأثير في المستقبل في بقية أفراد أسرته لتغيير الصورة السيئة عني.

هذه العلاقة جعلتني أذهب إلى الاستراحة في بعض أيام الأسبوع لوجود زوجة ابن عوض عند سارة، فقد كان يحضرها إلى بيتي بصورة شبه يومية أحياناً، ويستأذن مني لقضاء بعض الأعمال الخاصة لديه، فتبقى زوجته عند سارة التي تفرح بوجودها.

من جانب آخر، بدأت أتابع المشهد الثقافي، كل شيء تغيّر في هذه السنوات الأخيرة: صدور عدد كبير من الروايات، بروز أسماء وانحسار أسماء أخرى، اتجاه بعض رموز الدين والثقافة والأدب إلى قنوات إعلامية جديدة تعتمد كثيراً على الإنترنت الذي أصبح مهماً.

بعض "الرجال المهمين" الذين كانوا من رموز الصحوة تحولوا إلى الفضائيات ليصبحوا نجوماً فيها، ولينسى الجميع أن بعضهم طالبوا بتمزيق الصور وتحطيم الأطباق الفضائية، واليوم تحاصر الناس صورهم ثابتة ومتحركة.

زمن تغيّر واختلف لأجد نفسي بعيداً عن الماضي، ولأفتقد متعة الثقافة حين نتابعها عبر الصحف والمجلات، وحين نحتفي بقصيدة أو نصّ شعري يُنشر في صحيفة أو مجلة، أو يُزفّ إلينا بين دفتي كتاب. فن القصة الذي كنتُ متشبثاً به انحسر تحت سطوة الرواية. بدأت أفقد متعة الأدب، أهو بسبب كبر السنّ أم أن الزمن تغيّر! مات بعض المبدعين، وغاب بعضهم الآخر، وبدت كلمة الحداثة رداءً قديماً وباهتاً اكتساه جيل الثمانينيات، وتناقل الناس مصطلحات أخرى منها ما بعد الحداثة التي بحثت عنها ولم أجدها.

غزت ثقافة الصورة، وبدأت أتابع بعض الأفلام الحديثة عبر قنوات الأفلام في التلفزيون، أو ممّا أحصل عليه من الأصدقاء أو الشبكة العنكبوتية. انحسرت الصحوة وتعرّى كل من ادّعى الجهاد. بدأتُ أرى بعض ملامح الدين الوسطي الذي تعلمته من والدي مسعود. بقي أصدقاء الاستراحة كما هم يتابعون مباريات كرة القدم ويستمتعون برقصات النساء في بعض الفضائيات. ربما بعضهم بدت عليه بعض أعراض الشيخوخة أو دهمه السكري والضغط، ولكن بقي هؤلاء الأصدقاء أنقياء يتّسمون بالبساطة. ربما راشد عادت إليه حدّته في الحوار والنقاش، ولكن زاد انفتاحاً ولاسيما أن الدولة تبنّت الحوار الوطني بين جميع الطوائف وكذلك حوار الأديان، لتشهد الساحة أسماء جديدة بعيدة عن الأدب قريبة إلى الفكر.

اللافت للنظر أن هنالك بعض المتحوّلين الذين كانوا ضمن دائرة الصحوة، إن لم يكن أشد، تحوّلوا إلى نسق قريب من الليبرالية، بعضهم بدوا مشوهين، وبعضهم بحثوا عن المجد بالهجوم على زمن سابق كانوا جزءاً منه. في المقابل هنالك أشخاص أطلقوا على أنفسهم تنويريين، بعضهم نالوا قسطاً من العلم،

وجزء لبس ردائي الصحوة والحداثة. هي لعبة مراكز والحصول على موقع متقدّم في المجتمع أو عند الدولة أو حتى عند المعارضة... بعضهم استبدلوا كلمة الأمة بالإنسانية، إنه وضع ثقافي غامض ومربك حرصت على أن أبتعد عن متابعته لألجأ مرة ثانية وثالثة ورابعة إلى الإبداع، وأستمتع بنصّ شعريّ أو روائيّ أو قصصيّ جميل. حاولت أن أبحث عن أصدقاء الأدب، فوجدت أن بعضهم تكلّسوا، وبعضهم يلهثون وراء لقمة العيش، وبعضهم يصارعون ليجدوا من يقرأ لهم أو ينشر لهم، وبعضهم مثلي ليسوا قريبين من المشهد الثقافي، وفي الوقت نفسه ليسوا بعيدين. لم يكن أمامي في الاستراحة إلا رمزي الذي يتابع عن بعد، ويتحدّث عن إدارة الثقافة في البلد، فسمع راشد يقول لنا: "لو يشرف على إدارة الثقافة من يحبها، لتغيّر الوضع".

***

هل تتوقع أن عبد العزيز صادق في حديثه معك، ألا تكون مؤامرة للسخرية منك أو في أسوأ الأحوال للتخلص منك، ولكن لماذا السخرية أو التصفية يا منير؟ هل لأنك بقيت صامداً حتى الآن؟ حينما كنت على رأس العمل، كنت تمارس عملك برتابة، لم تفكر أن تغيّر نسقك، مضت السنوات، وأصبح بعض أصدقائك يحتلون مناصب كبيرة في الشركة، وأنت لا ترغب أن تشغل أي منصب لإحساسك بأن ذلك يجعلك في الواجهة، ليضعك الناس في المقدمة، وأنت لا تحبّ أن تكون متبوعاً بقدر حبك أن تكون تابعاً. حتى عند اتخاذ أي قرار لا بد أن يمسك أحد بيدك لتتخذ القرار، أمر واحد كان القرار لك فيه وهو تحديد نوع قراءاتك. تعرف أن انتقالك إلى الرياض كان بدعم مديرك السابق في الطائف، مشروعات الزواج

كانت جميعها بواسطة أناس أمسكوا بيدك لتُقدِم على الخطوة الجديدة، حتى انفصالك عن زوجتك الأولى يسرى كان بقرارها، هي التي خلعتك.

قابلت بعض النساء، واتصلت على هاتف منزلك ثم هاتفك المحمول كثير من النساء اللواتي يرغبن في التعرف إليك بعد نشرك خاطرة أو قصة. كنت تقطع الاتصال أو تبحث عن عذر لإنهاء المكالمة، وعندما تبدأ إحداهن بالتصريح قليلاً لتحديد موعد للقاء، تجيبها: "ما المطلوب مني؟"، حتى تلك العلاقة الخاصة تحتاج إلى من يمسك بيدك ويوجهك. لم يتوقّف الأمر عند ذلك، بل حتى كتابة سيرتك لو لم يكن هنالك من يحفزك لكتابتها، ما كتبت، ولو بقيت دون تشجيع وتحفيز للكتابة، فلن يعرف أحد أن هنالك إنساناً يدعى منير أحبّ هذا الوطن لأنه يشعر أنه ينتمي إليه، رغم أنه لا وجود لما يؤكد هذا الانتماء. ربما تحدد البصمة الجينية هذا الانتماء، ولكن أنت تخاف من ذلك، فربما تفقد انتماءك إلى هذا الوطن كما فقدت والديك من قبل.

لديك إحساس أن عبد العزيز صادق، وأنه سينهي حكايتك كما في بعض أفلام ما قبل الألفية في السينما المصرية التي تنتهي بنهاية سعيدة، حينما يتزوّج البطل البطلة و"يخلفوا صبيان وبنات، ويعيشوا في ثبات ونبات"، لأقنع نفسي معك بمقولة: "تفاءلوا بالخير تجدوه".

حكايتك لا يزال لها بقية، وحكاية عبد العزيز لم تبدأ فعلاً معك بعد، فأتم حكايتك قبل حكاية عبد العزيز.

٣٣

كان منير يحب أن يتحدث عن والده مسعود. لذا، أكد زوج سارة الثاني للرجل الذي انتحل شخصية ابن عوض أن يطلب من منير أن يتحدّث عن عمه مسعود بحجة أنه مقيم بعيداً عن بلدته ولم يره ولا أسرته إلّا في مناسبات محدودة ومتباعدة.

وذات يوم كان هنالك اتفاق بين الرجل والمرأة بإبعاد منير عن البيت لعدة ساعات. زوج سارة الثاني يعلم أن منير غالباً يذهب إلى الاستراحة، وإذا لم يجد أحد أصدقائه فيها، يعود، وقبل ذلك يتوجّه إلى مكتبة الكتاب ليشتري بعض الإصدارات الحديثة، ثم يعود إلى البيت. لذا، كانت الخطة أن يأتي ابن عوض المزعوم ويطلب من منير الذهاب إلى الثمامة للاستمتاع بالجلوس على الرمال، والاستمتاع بليلة منتصف الشهر الهجري حيث البدر في كبد السماء.

سرّ منير بهذا المشروع ولاسيما أنه يكسر رتابة سهراته الليلية في الاستراحة، وحديثهما سيكون بوح منير ببعض الذكريات عن والده مسعود. لذا، أعدّت سارة برادیْ شاي وقهوة وتمراً وبعض المكسّرات.

ذلك اليوم قَدِمَ ابن عوض بسيارة دفع رباعي ليتمكّن من صعود أحد الكثبان الرملية والجلوس هناك. في الوقت نفسه، كانت ابنة فالح ضيفة لسارة التي حرصت على إعداد عشاء يليق بالضيفة، وكانت في ذلك الوقت تتمنّى لو كان لها أخت أو قريبة، لدعتها للجلوس معهما والاستمتاع بحديث ضيفتها قريبة الرجل الذي تبنّى زوجها منير.

ابتعد "ابن عوض" كثيراً عن الرياض حتى اختفت تماماً أنوارها، فقال لمنير الذي كان برفقته: "أتوقّع أنك لم تستمتع بليالي نجد في الليالي المقمرة".

فضحك منير وقال له: "يبدو لي أنك شاعر"، ليخبره الرجل بأنه يحب الشعر، ولكنه لا يحفظه، ليقول منير مباشرة: "مثلي تماماً".

في شقة منير، يفتح الستار على الفصل الأخير الذي انتظره زوج سارة الثاني و"ابن عوض" و"ابنة فالح"، لا أحد في الشقة غير سارة والمرأة.

كان ذلك الزوج الثاني يفكّر في جعل سارة مدمنة مخدرات، ولكنه وجد أن ذلك سيحتاج إلى وقت، والرجل والمرأة اللذين كلفهما تأدية الدورين سيبتزانه، وربما مع طول الوقت يزلُّ لسان أحدهما فيفضحانه، إضافة إلى أن لدى سارة بعض المعرفة بأنواع المخدرات وعلامات تعاطيها وهو ما اكتسبته من جلوسها معه. لذا، قرر تغيير الخطة إلى الابتزاز، فطلب من المرأة التي انتحلت دور ابنة فالح أن تضع مخدراً في شراب سارة، وعندما تغيب عن الوعي، كأنها تغطّ في نوم عميق، تتصل به، وعندئذ يكمل الباقي. وفضل أن يكون ذلك بعد مغادرة زوجها والرجل منتحل شخصية ابن عوض بنصف ساعة على الأقل. وفعلاً حدث ذلك، إذ اقترحت ابنة فالح على سارة أن تسمح لها بدخول مطبخها وإعداد كأسيْ عصير. وافقت سارة مباشرة على ذلك لتهيئ لها بعض الفواكه التي وضعتها تلك المرأة في خلاط كهربائي مع حليب وبعض الثلج، فتقول لها وهي تسكب العصير في كأسين: "أهلي يعرفون أنني خبيرة في إعداد العصير". كانت سارة تكمل إعداد العشاء لتستأذنها المرأة في حمل كأسي العصير إلى مكان جلوسهما في الصالة، وستنتظرها هناك ليكملا حديثهما.

حين وضعت المرأة كأسي العصير على طاولة صغيرة، تأكدت من أن سارة لا تراقبها، فوضعت المخدر في كأس سارة، وحرصت أن تشرب نصف كأسها حتى تحفزها على شرب العصير، وهذا ما حدث، لتأتي سارة وتقول لها "ابنة فالح": "كنت عطشانة قليلاً فسبقتك بشرب بعض العصير". تناولت سارة كأس العصير وبدأت بالشرب وهي تشيد بطعمه الجميل.

في الخلاء، كان منير يتحدّث بإسهاب عن والده مسعود ذاكراً لابن عوض بعض القصص الطريفة والممتعة التي حدثت لوالده بالتبني في الطائف، وكيف كان يتحوّل إلى مفتٍ في الحي لعلمه ومعرفته بأمور الشرع.

حين قابل زوج سارة الثاني، مهدي، أخا مسعود، لم يخبره عن الأخ الأكبر للأربعة مسعود وعوض وفالح ومهدي، الذي توفّي حزناً على ولده الذي مزّق صور مكتبة منير وبعض مجلاته وكتبه. لذا، كانت المعلومات التي حصل عليها "ابن عوض" من الزوج الثاني لسارة أن لدى مسعود ثلاثة إخوة أكبرهم عوض ثم فالح والصغير الذي على قيد الحياة مهدي. لذا، ساور منير الشك في الرجل الذي برفقته حين سأله عن عمه الكبير وأسرته؟ ليقول إن عمي مسعود هو الكبير، ويبدأ بالضحك معلقاً عليه أنه بدأ يلخبط، فيتجاوز منير هذا الأمر حرصاً على سلامته وسلامة زوجته، وليخبره برغبته في العودة إلى البيت. حينذاك، قرر "ابن عوض" تغيير الحديث عن الأسرة، إذ لو تمادى، سيكتشف منير انتحاله شخصية ابن عوض. لذا، قرر أن يتحدث عن تجاربه في الصيد وسفره مع بعض الوجهاء للمقناص، وبقائهم عدة أيام في البر، ويعلق على رغبة منير في العودة إلى الرياض بأنه لم يعتد الطبيعة البكر.

في شقة منير، تأكدت ابنة فالح من تخدير سارة لتتصل بزوج سارة الثاني الذي جاء وقد لبس عباءة نسائية سوداء، وغطى رأسه حتى لا يعرفه أحد من سكان العمارة. حين دخل شقة منير، كانت سارة غائبة عن الوعي ليحملها مع المرأة منتحلة شخصية ابنة فالح، فعرّياها، ثم التقط الرجل لزوجته السابقة صوراً بأوضاع مختلفة، وطلب من المرأة أن تصوّره عارياً معها دون أن توضّح ملامحه، وبعد ذلك أعادا ملابس المرأة، وأبقياها نائمة على سريرها. وغادر الزوج السابق الشقة بعد أن لبس العباءة وهو يشعر بنشوة الانتصار على امرأة لم يحبها حين تزوجها، وكرهها عندما اكتشفت زيفه.

يعلم "ابن عوض" أن الوقت ما زال مبكراً للعودة إلى الرياض، فالساعة لم تتجاوز منتصف الليل، وإصرار منير على العودة يجعله يفكر في خطة لإطالة مدة ابتعادهما عن البيت والنساء. لذا، أبدى ابن عوض رغبته في العودة إلى الرياض والتوجّه إلى أحد المطاعم لتناول العشاء، لكن منير أخبره أن سارة أعدت عشاءً لهما، ولكن "ابن عوض" أبدى رغبته في الذهاب إلى مطعم كان يرتاده منذ سنوات في البطحاء متخصص بالسمك، وذلك المطعم ليس بعيداً عن البيت. رضخ منير لرغبة الرجل ولاسيما أنه يعتبر ضيفه، وبدأ يردد داخله بعض الأدعية والآيات التي علمه مسعود أن يرددها بينه وبين نفسه حين يشعر بالخوف أو يهدده أحد. كان المطعم مغلقاً عندما وصلا إليه، وهذا ما توقعه منير، فقال لـ"ابن عوض": "المطعم مغلق، سأتصل على سارة لتعدّ لنا عشاءً". فقال "ابن عوض": "طلبتك، دعنا هذا المساء نأكل في أحد المطاعم، وبإذن الله، سنأكل من طبخ زوجتك". رضخ منير مرة أخرى لطلبه، ليتحسس "ابن عوض" جيوب ثوبه باحثاً عن حافظة نقوده، لتتغير ملامحه ويقول: "يبدو أنني فقدت حافظة نقودي".

وقف على جانب أحد الطرق وبدأ يبحث تحت مقعد السيارة ليساعده منير في البحث، ويقول: ''لقد كانت معي، أنت تذكر أننا وقفنا عند محطة الوقود وملأنا خزان السيارة، ثم حاسبت العامل دون أن أغادر السيارة، لا بدّ أنها سقطت في مكان جلوسنا، ألم تلاحظ شيئاً عندما حملت معك الشاي والقهوة والبساط الذي كنا نجلس عليه؟''، فأجاب منير بالنفي. وبالطبع لم يلاحظ منير ''ابن عوض'' وهو يدفن حافظة نقوده في مكان جلوسه. لذا، قررا العودة إلى مكان جلوسهما فوق الكثبان الرملية في الثمامة، وحين وصلا بدأ ''ابن عوض'' يبحث وطلب من منير أن يبحث معه في المكان الذي كان يجلس فيه. بحث منير في الرمل ووجد الحافظة، فتصنّع ابن عوض الفرح بالعثور عليها، وشكره كثيراً، وقررا أن يعودا إلى البيت. أخبره ''ابن عوض'' بأنه عاش وقت رعب لأن كل بطاقاته المهمة في تلك الحافظة، وفقدها سيجعله عرضة للمساءلة، وحين وجدها منير حاول أن يتأكد من هوية الرجل، ولكن ''ابن عوض'' كان أسرع وأذكى منه، فقد احتضنه شاكراً مساعدته في العثور على حافظته.

المشاوير تلك استهلكت الوقت ليصلا إلى شقة منير بعد الثالثة فجراً. طلب ''ابن عوض'' من منير أن يخبر زوجته بوصولهما، ويعتذر من منير الذي دعاه للبقاء وتناول بعض الطعام لتأخر الوقت بأن فقده حافظته التي عثر عليها منير جعله لا يرغب في الطعام ذلك الوقت.

حين دخل منير شقته، كانت ابنة فالح تنتظرهما عند الباب لتخبره أن زوجته نائمة، وقد حاولت أن تسهر معها في انتظارهما ولكنها لم تستطع، وبقيت تصارع النوم في انتظار زوجها. أثناء خروجها من البيت قالت لمنير: ''اشكر لي زوجتك على حسن ضيافتها''.

استغرب منير نوم زوجته، فهذا ليس عادتها وترْك المرأة وحيدة في البيت. ذهب إلى غرفة النوم فوجدها فعلاً نائمة. وذهب إلى طاولة الطعام، فوجد أن الطعام قد تناولته زوجته مع المرأة، فشعر بشيء من الاطمئنان إلى زوجته، ولاسيما أن زوجته كانت معجبة بها، ولكن الزوجة لم تتناول الطعام، بل كان من نصيب زوجها السابق مع المرأة التي انتحلت شخصية ابنة فالح.

غادرت "ابنة فالح" مع زوجها "ابن عوض" شقة منير ليقابلا زوج سارة الثاني في بيته غرب الرياض، فطلب منهما أن يبتعدا عن الأماكن التي يظهر فيها منير وزوجته، وليغلقا هواتفهما المحمولة المسبقة الدفع، التي أعطاهما إياها مع بداية مهمتهما، وأعاد السيارة ذات الدفع الرباعي إلى المعرض الذي يملك نصفه مقبل، ليبدأ بمشروع الابتزاز لزوجة منير، ومضايقة منير باتصالات بعض النساء اللاتي يخبرنه بعلاقات زوجته المشبوهة.

***

لو لم يتحدّث "ابن عوض" عن والدي مسعود وإخوته الذين من ضمنهم والده عوض ووالد زوجته فالح، لبقيت أثق أنه فعلاً ابن شقيق مسعود، ولكن حين أخبر أن عقاب والد مسعود لديه أربعة أبناء فضح نفسه. ليتني سألته ذلك السؤال في أول لقاء معه، ولكنني أعذر نفسي، لأنني مشتاق لرائحة والدي مسعود، فكيف إذا كان الرجل الذي يريد أن يتعرّف إليّ هو ابن أخيه عوض وزوجته ابنة أخيه الثاني فالح.

ما هذا الدهاء الذي جعلهم يعرفون نقطة ضعفي الثانية وهي والدي بالتبني مسعود؟

عندما عدت ذلك المساء، أو بالأصح فجر ذلك اليوم، فوجئت بوجود المرأة في الصالة، حيث كانت تنتظر زوجها لتخبرني عن نوم زوجتي سارة شاكرة حسن ضيافتها. ذهبت مباشرة إلى غرفة النوم فوجدت سارة نائمة، فأغلقت الباب وأبقيت كل شيء على ما هو عليه واتجهت إلى السرير بهدوء لأنام. كنت أعرف أن نوم سارة خفيف يوقظها أي صوت، لكنها لم تستيقظ، فتوقعت أنها مرهقة قليلاً، وبعد ساعات من النوم وجدتها مستيقظة قبلي، لم تكن سارة التي أعرفها، فسألتها معاتباً:

- لماذا تتجهين إلى سريرك وتنامين قبل أن تغادر المرأة؟

أجابت: "لا أدري كل ما أذكره أنني كنت جالسة معها، وبعد ذلك وجدت نفسي نائمة على هذا السرير".

- ألم تتناولي العشاء معها؟

أجابت بالنفي، فطلبت منها الاتصال بتلك المرأة لمعرفة ما حدث لها، لنفاجأ بأن هاتفها مغلق، واتصلت بزوجها "ابن عوض"، وكذلك كان هاتفه مغلقاً. تأكدنا من وجود أشيائنا الثمينة، وحاولنا الاتصال مرة أخرى ولكن الهاتفين خارج الخدمة. قررنا أن نعاود الاتصال في وقت لاحق، فربما كانا في منطقة لا يصل إليها الإرسال. سألتني سارة هل اقتربت منها أو نزعت عنها ملابسها الداخلية بعد عودتي وهي نائمة، فأجبتها بالنفي وسألتها: "أخشى أن تكون المرأة مصابة بالشذوذ وعاثت بجسدك وأنت نائمة؟".

- لم يكن نومي طبيعياً، أشكّ أنها وضعت لي عقاراً منوّماً أو مخدّراً في كأس العصير، لأن آخر ما أتذكره مساء أمس شربي كأس العصير.

ماذا يريد الرجل "ابن عوض"؟ وأشك أنه "ابن عوض" الفعلي، وماذا تريد ابنة فالح؟ وما الذي حدث ذلك المساء؟

ابتعادي عن البيت بصحبة الرجل إلى مكان بعيد حتى تطول المسافة، وفعلاً طالت، بل لو لم ألحّ عليه بالذهاب، لبقينا حتى شروق الشمس، ولكن محاولاته التأجيل، ثم إضاعته حافظة نقوده التي لا أدري كيف خرجت من جيبه لتغوص في الرمل... لو كان الأمر طبيعياً، لوجدناها على البساط الذي كنا نجلس عليه.

أمر آخر تجاوزته عندما قال لي ذلك الرجل إن عمه مسعود، وهو شكله وهيئته التي تختلف تماماً عن شكل وهيئة مسعود وإخوته الثلاثة، وتحديداً عوض، ولكن قلت: ربما ورث هيئته تلك من أهله لأمه، كان من الأولى أن أتأكد من هويته واسمه.

مرّت ثلاثة أيام وهواتف ابن عوض وزوجته خارج الخدمة. ذهبت إلى مبنى الشقق المفروشة التي كان يسكن فيها مع زوجته، فأخبرني موظف الاستقبال أنه لم يسكن عنده أحد يحمل اسم ذلك الرجل أبداً، فقررت الذهاب مع سارة إلى بلدة والدي مسعود لنتأكد من الرجل والمرأة: هل هما فعلاً ابن عوض وابنة فالح؟ كانت صدمة كبيرة حينما أخبرنا مهدي أنه لا يوجد من يحمل تلك الأسماء، إضافة إلى أنه لم يتزوّج أحد من أحفاد عقاب ابنة عمه، لنغادر مباشرة تلك البلدة البعيدة تقريباً من الرياض، وداخلنا خوف يزداد كلما اقتربنا من الرياض.

***

رغم حبك القراءة ومحاولاتك الكتابية البسيطة، لم تفكر أبداً أن تلج بلاط الصحافة. أنت لا تحب أن تبحث عن الأخبار ولا إعداد التقارير أو إجراء

التحقيقات وعقد الحوارات والندوات. لست إنساناً منبرياً، متعتك المتابعة بدءاً من جلوسك على عتبات البيوت لمتابعة تحركات الناس في الشارع أمامك، وانتهاء بمتابعة ما ينشر في الصحف والمجلات، ومتابعة ما تبثه قنوات الإذاعة والتلفزيون. حتى عندما دخلت قنوات التواصل الاجتماعي الجديدة، كنت تابعاً لا متبوعاً. لذا، اسمك موجود في "تويتر" و"فايسبوك"، ولكن ليس لك مشاركات. كنت تكتفي بما تبثّه بعض التطبيقات المجانية من آيات قرآنية وأدعية وأحاديث.

لم تستغل وسائل التواصل هذه للتحدث عن نفسك، لو كان لك حضور في تلك القنوات الإعلامية المهمة وتحدثت عن سيرتك، لو قلت فقط: "كنت الناجي الوحيد من حريق بيت في حي السلامة في الطائف قبل نصف قرن"، لوصلت هذه التغريدة إلى الآلاف، وربما بعضهم سمع بالحادثة. ربما كانوا أطفالاً وقتها أو سمعوا خبر ذلك الحريق من والديهم. ما هو مهم أن تلك التغريدة قد تصل إلى من يعرفك طفلاً أو ربما من يعرف والديك، حتماً سيتواصل معك على الخاص، وبعد ذلك قد يساعدك على معرفة أسرتك، وعندئذ لن يجد عبد العزيز ما يخبرك به، لأنك تلقائياً تتواصل مع أفراد الأسرة وتعرف حقيقة فقْد ولد رضيع في الطائف، وعندما يتم التأكد من ذلك، تنتهي مشكلتك، إيجاباً أو سلباً.

هذا من حسن حظ عبد العزيز الذي لديه معلومات عن رجل لا يحب أن يعرفه أحد أو يتعرف إلى أحد، رجل يحب أن يعيش على الهامش بعيداً عن الآخرين.

٣٤

ثمة رعب داخل سارة بدأ بعد استيقاظها وإجابة زوجها بالنفي عندما سألته عن العبث بجسدها. هنالك من جامعها وهي غارقة في نومها. ليست آثار امرأة شاذة، بل آثار رجل، وهي لم تتناول العشاء الذي أعدته لتلك المرأة، فمن يكون الذي تناول الطعام معها. زوجها كان بصحبة منير... حاصرتها دوامة الأسئلة لتجد الإجابة من صورة وصلت هاتفها المحمول: كانت عارية وبجانبها رجل عارٍ لم تتّضح ملامحه، ولكن ذاكرتها ساعدتها على معرفة الرجل. إنه ذلك القذر الذي تزوجته قبل منير. لقد جاء ذلك المساء ودنّس سريرها الذي تنام عليه مع زوجها، اكتفى المرسل بالصورة، كانت مغمضة العينين بجانبه، وكان جسدها ملاصقاً لجسده.

زوجها مملوء بالهموم ولا تريد أن تحمّله عبئاً جديداً. في المقابل، فكرت في الذهاب إلى الشرطة أو هيئة الأمر بالمعروف وإخبارهم بالحادثة، ولكن ستكون فضيحة، والمتضرر هو هذا الرجل الطيب الذي أحبها وسعى إلى إسعادها.

قررت أن ترد على مرسل الصور قائلة: "ماذا تريد؟".

– هههه أريدك، وماذا أريد منك، إذا أردت لصورك هذه ألّا تنتشر، فادفعي مبلغاً كبيراً.

زوجها الثاني يعرف أنها ستدفع مبلغاً كبيراً من المال سيغطي المبالغ الذي قدمها إلى الرجل والمرأة اللذين مثّلا دوري ابن عوض وابنة فالح. سيبتزّ تلك المرأة التي يكرهها كثيراً، وبعد ذلك سينهيها بأي طريقة، سواء باستدراجها

لتناول المخدرات أو إيصالها إلى الجنون. هو مستمتع الآن بتعذيب امرأة يشعر أنها أول من كشف عنه غطاء الزيف والخداع.

رضيت سارة أن تدفع له مبلغاً كبيراً من المال. كان لديها مبلغ لا بأس به جمعته في السنوات السابقة وادّخرته لأي طارئ، واقترضت من بعض زميلاتها في العمل. لم تخبر أي واحدة بسبب احتياجها ذلك المال سوى واحدة أصرت أن تعرف لتخبرها أن زوجها عليه دَيْن مجبر أن يسدده وإلّا دخل السجن.

جاءت امرأة وقرعت باب بيتها في وقت لم يكن فيه منير موجوداً في البيت وأخذت المال، لتأتيها رسالة عبر هاتفها المحمول نصها: "المال الذي استلمته لا يغطي قيمة صورة واحدة. أريد عشرة أضعافه وإلّا أوصلت صورك وأنت عارية إلى كل فرد من عائلتك، وبكل تأكيد إلى زوجك". بكت كثيراً وحارت: هل تخبر منيراً أم ترضخ لأي طلب من ذلك المبتزّ؟

من جانب آخر، كان منير قلقاً على زوجته، يراها تنوي يوماً بعد يوم، لتخبره بأن نفسيتها بعد تلك الليلة سيئة، وهي تشعر بالخوف من تلك المرأة التي عاثت بجسدها. اتصلت به ذات مساء امرأة أخبرته بأن زوجته على علاقة برجل غيره وعندها الدليل. لم يصمت بل واجه زوجته ليخبرها بأمر المتصلة لتنهار أمامه باكية وتخبره بكل ما فعل وما حاولت أن تفعله حتى تتخلص من ابتزازه، ليقررا الاستنجاد بالجهات الأمنية و"هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" المختصة بالابتزاز، إذ تم التبليغ بحادثة التنويم والتصوير والابتزاز بأخذ المال، ثم طلب مبالغ أكثر.

بدأت الجهات الأمنية عملها لتقترب من بعض المشتبه فيهم من الرجال إضافة إلى النساء اللاتي جنّدهن زوج سارة السابق، الذي شعر أن الدور عليه، ليبدأ

بفكرة الانتقام، فتتكّر بزيّ عامل سباكة، ليطرق الباب برفقة امرأة في وقت كان فيه منير خارج البيت. فتحت سارة الباب لتقول لها المرأة: ''أنا ساكنة في الشقة التي أسفل شقتكم، وهناك تسرب ماء في السقف، هل من الممكن بصورة عاجلة أن يتأكد العامل من مكان التسرب؟''.

سمحت سارة للمرأة والعامل بالدخول للشقة لتغلق المرأة الباب وتسير مع العامل إلى الحمام الداخلي، ثم تتركه، وتعود وتقف عند الباب تنتظره، كانت سارة قد ابتعدت عن طريق العامل، وتوقعت أن المرأة برفقته، وتوجهت إلى غرفة نومها، لكن فوجئت بالعامل يدخل عليها غرفتها وبيده سكين. لو نظرت إلى العامل عند الباب، لعرفت أنه زوجها السابق، لكنها كانت تخاطب المرأة التي كانت متشحة بالسواد ولا يبدو منها إلّا عيناها.

ها هو الموت مقبل، كيف تهرب وقد أَغلق الرجل باب غرفة النوم عليهما وهو يقول: ''هل بلغت فيك الجرأة لتبلغي عني، ألم يكفِ بلاغك السابق لأقضي أكثر من عشر سنوات في السجن، والآن تريدين أن تعيديني إلى السجن مرة أخرى؟''، كان يتحدث وهو يقترب منها، فكر أن يطعنها عدة طعنات ويغادر مسرعاً، ولكنه غيّر رأيه ليقيدها بقطع من الملابس ويكمم فمها ويشعل بولاعة يحملها معه أغطية السرير وملابس لها ولزوجها لتمتلئ الغرفة بالنار والدخان، ويغادر مسرعاً العمارة مع المرأة.

***

في ذلك اليوم المشؤوم، كنت قد وعدت سارة أن نغيّر الشقة، وكان اتفاقنا أن أبحث عن شقق للإيجار في شمال الرياض. أشاهدها أولاً، وحين أجد شقة مناسبة

أُحضُرها لتراها ويكون القرار الأخير بيدها. حاولت أن أبحث في حي النفل قريباً من بيت منصور وعبير. شاهدت أكثر من شقة، بعضها قديم قليلاً. توسّع البحث عن دور أرضي أو علوي لإحدى الفلل، أو فيلّا صغيرة "دبلكس". شاهدت بعض الشقق والأدوار والفلل الصغيرة، وحددت ما أراه مناسباً لأصطحب سارة معي لتقرر الأفضل، ولنباشر إكمال إجراءات الإيجار والنقل بصورة عاجلة.

عدت إلى البيت لأفاجأ بسيارات الإطفاء عند العمارة التي أسكن فيها. لم أعرف أن الحريق داخل شقتي، وأن زوجتي تفحمت داخل غرفتها. لم أصدق ما حدث، اتجهت إلى داخل الشقة وأنا أنادي: سارة! سارة! شعرت بالاختناق، ولم أشعر بوعيي إلا في غرفة في المستشفى، وكان بجانبي بعض الجيران الذين أعرفهم، لأسألهم: "أين أنا؟ ما الذي حدث؟".

كان الجواب صعباً عليّ وعلى كل من أعرفه. سألني طبيب هل لي أو لزوجتي أهل أو أقارب، فأعطيتهم رقم منصور، ليحضر مباشرة هو وعبير. كانت حالتي يرثى لها.

تمنّيت لو أن سارة عندما رأت الحريق جلست عند عتبة الشقة أو العمارة لأجدها جالسة تنتظرني فأحملها وأبتعد بها عن النيران. بعد ذلك لا يهمّني لو احترقت العمارة بأكملها، لكنها لم تستطع أن تغادر غرفتها لتلتهمها النيران. تلك النيران التي التهمت بداياتي في الحياة. ربما لو لم يحترق ذلك البيت أثناء غفوة أهله تلك الظهيرة، ما أصبحت منير، اليتيم المشرّد التعيس. ربما عاد والدي ووالدتي معه، وعشت حياة مختلفة، ربما بقيت في الطائف أو عشت في مدينة غير الرياض.

سارة غالية على قلبي، لقد أحببتها، بهمومها، بعذابها، برغبتها في أن تحمل داخلها جنيناً يحمل اسمي، كيف سأكون بعدها وأنا على أعتاب خريف العمر؟ من يرافقني بعدها؟ لقد أصبحت كتلة من الحزن!

بعد التحقيقات تم التأكد من أن الحريق بفعل فاعل. خرجت من دائرة الاتهام بشهادة أهل العقار الذين كنت عندهم وقت الحادث، وللبلاغ الذي قدمناه، أنا وسارة، عن المبتزّ. حينئذ تذكرت زوجها الثاني الذي سبق أن أخبرتني سارة عن دخوله السجن ليقبض عليه ويعترف بالابتزاز، ويقول: "لا بد أنها انتحرت لتتخلّص مني".

لا أدري كيف استطاع ذلك الرجل أن يجنّد أولئك الرجال والنساء ليفعلوا أدوار الشرّ، هل للحشيش والأفيون والهيروين وحبوب القشطة وغيرها سرٌّ في ذلك الانصياع له وتنفيذ طلباته، أم الحصول على المال بطرق غير مشروعة؟ ولكن حتى الحصول على مال يأتي بطرق أقل قذارة من ممارساته، فالسارق يركّز عمله على أخذ المال، ويحاول جاهداً ألّا يؤذي أحداً. لكن ذلك الرجل مملوء بالسواد. لم يحترم أبداً هيئته التي توارى خلفها، فلو كان الشكل يؤثر في سلوك الإنسان، لأصبح من رجال الدين الذين عرفوا بالنزاهة والتقوى، لكنه جعل شكله غطاء يحجب الناس من الدخول لمعرفة سريرته التي الدين منها براء.

تخلّصت من جميع الأثاث الذي لم تصله النار، ولحسن الحظ كانت مكتبتي في الجانب الآخر من الشقة فلم تطاولها النيران ولا مياه الإطفاء. وبمساعدة أحد الأصدقاء، انتقلت إلى شقة حي الوزارات التعيسة.

***

أنت تبكي، فعلاً، أنت تبكي الآن على تلك المرأة الطيبة سارة، هي خاتمة النساء لديك، هي جرح كبير أضيف إلى جراحك المتعددة. هذه المرأة التي أحببتَها كانت ولادتها في الرياض، هي تعرف أين ومتى، أخبرتك بذلك، وأخبرتك أن والدها يحبها لأنها البنت الوحيدة والصغيرة في العائلة. جاءت بعد سنوات من ولادة مقبل وسيف. تزوّجا وهي في المرحلة الابتدائية، وهي ليست بعمر زوجتيهما، ربما يتجاوز الفارق عشر سنوات. لذا، لم تكن قريبة من جيلهما، وهذا يسبب غياب التفاهم بينها وبينهما. حتى حين حققت نجاحاً بتعليمها وحصلت على معدل عالٍ في تخصص الإدارة، بقيت في عيون أسرتها صغيرة. كان عمها يرغب في تزويجها ابنه الذي يدرس في أميركا. في المقابل، كان أخواها يرغبان في تزويجها بقريب زوجة سيف، الذي أصبح في ما بعد زوجها الثاني. كان صوت العم ورغبة الأب أقوى لتتزوج بابن عمها الذي وصفه أخواها بالعلماني والليبرالي لأنه حليق الشارب والذقن، ولأنه في أوقات كثيرة يرتدي "لباس الكفّار". مع زواجها الأول بدأت القطيعة، وانتهت بموته بحادث شنيع لتكون حادثة السيارة قضاءً وقدراً. هذا القدر ابتسم للزوج الثاني ليطلب يدها بعد انقضاء العدة، ولكنها كانت تعيش حالة نفسية سيئة. من المصادفة ابتعاد ذلك الرجل الذي تقدّم لخطبتها عن أسرته، بل عن الوطن، حيث كادت الدولة أن تقبض عليه وتودعه السجن عندما كشف عن إحدى الخلايا الإرهابية، لكنه هرب دون أن يتعرّف أحد إلى شخصيته. لاذ لمدة سنتين في دولة آسيوية، ليعود إلى مجتمعه السابق بصبغته المعتادة التي توحي بالتقى والصلاح. بعد ذلك حرص على أن يبتعد عن الجماعات التكفيرية التي قد تكون غطاء لممارساته الشاذة التي من أقلّها تعاطي المخدرات وترويجها. لذا، قرر أن يستقر ليكون الزواج غطاء

جديداً لما يفعله. في ذلك الوقت، كانت سارة مضطرة إلى الموافقة بعد تحسّن حالتها النفسية وضغوط أخويها وتنازل والدها عن رأيه السابق الرافض للزواج بذلك الرجل بعد وفاة أخيه عقب حادث ابنه بسنة، وإحساسها أن الزواج ستر للمرأة.

كل ذلك أخبرتك به سارة لكنك لم تدوّنه. أنت تعرف أن حكايتها رواية مستقلة. ربما تكتبها ذات يوم، وربما يساعدك عبد العزيز على كتابتها. بعد كل ذلك الشحن النفسي الذي عشته وأنت تكتب جزءاً من سيرتك، تتلقى اتصالاً من عبد العزيز يخبرك بأن أسرتك وافقت على مقابلتك، وطلب منك أن تعطيه صورة من سيرتك بعد أن تكملها. وحين سألك: متى تتوقّع أن تنتهي من رصد سيرتك؟ قلت له: بعد يومين، فأخبرك أنه سيعود بعد يومين وستذهب معه لمقابلة أسرتك.

يومان، زمن قصير، هل فعلاً ستنجز السيرة خلال هذه المدة؟ إذا كان الأمر كذلك، عُدْ إلى الحاسب وواصل الكتابة.

٣٥

لا أحد يدري هل هو فرح أو حزن ذلك العزاء الذي أقيم في بيت مقبل، والذي حضره عدد كبير من النساء غالبيتهن صديقات لسارة إضافة إلى النساء اللاتي عرفن سارة عندما كانت تعمل في فرع البنك في الشفا. كانت بنات مقبل يشعرن بالحزن لفقد عمتهن، وكانت والدتهن تعيش إحساساً غريباً، فمن جهة، حزنت على تلك المرأة لتي لم تسئ إليها أبداً، ومن جهة أخرى، تشعر بالراحة لأن عبئاً ثقيلاً انزاح عن كاهلها بسبب المشكلات التي أحاطت بها وجعلتها تابعة لأرملة سيف التي لم تحضر العزاء.

منير لم يحضر أبداً العزاء في بيت مقبل. بقي في فيلّا منصور الذي استقبل عدداً كبيراً من المعزّين من ضمنهم إخوان زوجته وعديلاه وأحمد صديق منير الذي قدم من جدة لتعزيته، وكثيرون من الأصدقاء.

عاش منير دوامة الإجراءات الرسمية، وأحسّ بالراحة قليلاً عندما قُبض على زوج سارة الثاني واعترف بممارسته الابتزاز، ليكتشف الأمن بعد ذلك تسببه في الحريق، بعد كشف دائرة الابتزاز التي كان من ضمنها الرجل الذي انتحل شخصية ابن عوض والمرأة التي انتحلت شخصية ابنة فالح، ليغلق مع السلطات الأمنية ملفاً شائكاً وحزيناً خاصّاً بامرأة أحبّها منير كثيراً وفقدها في وقت هو في أمسّ الحاجة إليها فيه.

حاول أن يعود إلى حياته الطبيعية التي كان يعيشها قبل أن يقترن بسارة: الذهاب الروتيني إلى العمل والاستراحة، ثم العودة إلى شقته في حي الوزارات.

وكان في بعض الأيام ينسى ويتّجه إلى حي السليمانية حيث شقته مع سارة.

نسيان سارة ليس بالأمر الهيّن، لقد نسي زوجته الأولى خلال أيام من انفصالهما، أما سارة، فوضعها مختلف، لم تنفصل عنه ولم ينفصل عنها، ولكن فصل بينهما كائن تجاوز الشيطان بخبثه. كيف فكر بدخول عالم زوجين بسيطين يعيشان في شقة صغيرة ويكدحان للبقاء ويسعى كل واحد منهما ليسعد الآخر؟ اختراق أسرة مثل هذه ليس بالأمر السهل، فكانت حكاية مسعود وأخويه. لقد كان لزوج سارة الثاني مشروعٌ تدميريٌّ، ومثل كل المشروعات تكون المعلومة هي أساس نجاحه ودقة تنفيذه، وقد فعل ذلك. بدأ بتتبع سيرة منير لينتقل إلى سيرة مسعود، لكن فاته أن يتحقق من تلك المعلومات، وخاصة ما يخصّ مسعود وعدد إخوته، فكادت خطته أن تنكشف... أو أنها انكشفت في وقت متأخر.

في ذلك المساء، حاول منير عندما شكّ في صدق ''ابن عوض''، وهما جالسان على كثيب رملي في الثمامة أن يحفظ رقم لوحة السيارة التي كان يقودها، ذلك الرقم كان الخيط الذي أوصلهم إلى ذلك المبتزّ القاتل.

انتهت حكاية سارة لتبدأ حكاية منير وحيداً محبَطاً، فكل يوم يمرّ عليه يزداد عمره سنة.

بقيت سمة الحزن طاغية عليه، وبدا كئيباً لا يتحدّث كثيراً، حتى دار حوار بين أصدقاء الاستراحة للبحث عن وسيلة لإزالة تلك الكآبة، فكانت فكرة رمزي ''أن كازابلانكا (الدار البيضاء) خير علاج لمنير، فمن يتطوع لمرافقته؟''، اعتذر ثلاثة أصدقاء أحدهم لارتباطه بمناسبة عائلية تلزمه البقاء في الرياض، وآخر اعتذر لأنه لا رصيد إجازات لديه، وأما الثالث، فقالها صريحة: زوجته ترفض سفره إلى المغرب خاصة، وبقي بادي الذي قال: لن ترفض زوجتي لأنني سأقوم بعمل خير

لصديقي، وسأبحث له عن زوجة. لذا، فرح رمزي بوجود اثنين سيرافقانه إلى المغرب، ولاسيما أنه يبحث منذ زمن عمن يرافقه إلى هناك.

كان منير متردداً في البداية في الذهاب إلى المغرب، وأخيراً وافق، ليتصل بعد أن عاد إلى شقته بصديقه أحمد ويطلب منه أن يرافقه، لكن أحمد اعتذر لقرب زفاف ابنته، فاستعد منير للسفر إلى "كازا" – كما يحب أن ينطقها رمزي – برفقته مع بادي.

ثلاثة غادروا مطار الرياض إلى مطار الدار البيضاء، اثنان كانت زيارتهما الأولى إلى المغرب والثالث تحولت زياراته إلى شيء أشبه بالإدمان؛ "المغرب بلد سياحي جميل، وأهلها أكثر جمالاً"، هذا ما يقوله رمزي لمنير وبادي، ثلاثة رجال تجاوزوا العقد الخامس من أعمارهم، ذهبوا لتغيير الجو وللبحث عن زوجه لأحدهم. بالطبع لم يفكر منير في ذلك، لأنه لا يزال في نفسه شيء من الحزن على سارة، وكان يعرف أن كل النساء لن تعوّضه عنها.

***

بصورة غير مباشرة، ربما أثّر فيّ والدي مسعود في رفض مغادرة الوطن، هو لم يسافر أبداً خارج المملكة. ذهب مرة إلى المنطقة الشرقية، ومرتين أو ثلاث مرات إلى الباحة وعسير، ودعي إلى حفل زفاف في جازان فذهبت معه إلى هناك، ولكن لم يذهب أبداً إلى الخارج. كانت غالية رحلاته بالسيارة عدا رحلة جازان التي خاف فيها من الطائرة.

أما أنا، فكانت رحلاتي إلى خارج المملكة محدودة، فقد ذهبت إلى الكويت والدوحة، وبالطبع البحرين أكثر من مرة، وكذلك دبي، فآخر رحلاتي إليها كانت

برفقة سارة، وكانت فعلاً من أجمل الرحلات. كان هنالك مشروع للذهاب إلى سوريا حين كانت يسرى زوجة لي، ولكن تأجل المشروع إلى الأبد. بالطبع، ذهبت إلى مصر مرة ثالثة بعد المرتين السابقتين اللتين كانتا برفقة أحمد، ولكن لم أقابل فيها سيد إبراهيم، وها أنا أتجه إلى أقصى المغرب العربي.

حينما حطت الطائرة على أرض المطار وانتهينا من إجراءات الجوازات وأخذنا حقائبنا، استقبلنا رجل يدعى بنسعد، لا أدري أهو اسمه الأول أم اسم عائلته؟ ولكنه كان سعيداً بلقائنا، واستقبلنا بالأحضان. رمزي يعرف ذلك السائق منذ سنوات، فقد كان يتّصل به ويطلب منه أن يستقبله أو يستقبل أي واحد من طرفه في المطار، ويبحث له عن سكن مناسب. إضافة إلى ذلك يتصل بمدبرة منزل تدعى جليلة لتهيئ السكن وتشتري الفواكه والخضراوات واللحوم، بمساعدة بنسعد بالطبع.

حينما وصلنا الدار البيضاء كانت الشمس قد غربت، توجهنا إلى الفيلّا الصغيرة المكوّنة من أربع غرف نوم في الدور العلوي وصالة جلوس كبيرة مع غرفتين صغيرتين ومطبخ في الدور الأرضي. كان أثاث تلك الفيلّا جميلاً وراقياً وبسيطاً بحدّ ذاته، وهذا جعلني أرتاح كثيراً، ولاسيما أن هناك غرفة خاصة بي أستطيع أن أغلقها وأحتفظ بالمفتاح معي.

أنا وبادي لا نفقه شيئاً من عوالم السفر إلى المغرب، على عكس رمزي الذي أحضر معه من المطار مجموعة من المشروبات الروحية. كثرتها وتنوّعها تحتاج إلى تفصيل، وأنا قد لا أعرف الفرق بينها.

قبل أن نغادر الرياض كان الاتفاق أن يكون بادي مسؤولاً مالياً، ورمزي مسؤولاً ترفيهياً، وأنا الأمير أو المدير. بالطبع أقنعتهما أن أكون نائباً لكل منهما،

فأنا لا أريد أن أكون مسؤولاً، وبكل صراحة، ليست لديّ القدرة على ذلك. اتجهت إلى الغرفة التي اخترتها وهيأت نفسي للنوم. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء بعد أن بدأ سلطان النوم يخطو خطواته الأولى في جسدي. أحسست بالذي يلكزني بيده. فتحت عيني لأجد بادي واقفاً عند سريري يقول لي: ''هل جئت هنا لتنام؟ تعال! الجميع ينتظرونك في الصالة''.

اعتذرت منه وأبديت له رغبتي عن تناول العشاء لأنني مرهق، وحتى لا يصرّ على نزولي معه أضفت: ''أشعر بصداع''.

- لدي حبوب للصداع.

- لقد تناولت قبل قليل حبة، وعموماً عندما أشعر بالتحسن، سآتيكم.

دعا لي بالشفاء وغادر الغرفة، وأغلق الباب بعد أن طلبت منه ذلك حتى لا يزعجني صوت الموسيقا والغناء.

أغمضت عيني مرة أخرى وقلت لسلطان النوم: واصلْ مهمّتك.

***

المرأة كائن غامض لديك. طوال عمرك لم تلج أبداً عالم النساء. حتى قراءاتك كانت في البدء خارج دائرة النساء. ربما هناك كاتبات وروائيات وشاعرات أعجبت بكتاباتهن، ولكن بعيداً عن المعرفة الحقيقية بالمرأة. لذا، كنت متلهفاً لقراءة كتب فاطمة المرنيسي، واستمتعت بكتابها **أحلام النساء** حين قرأته منذ سنوات. كنت تفكر في العلاقة بين شهريار وشهرزاد، هل القص والحكاية وسيلة لدرء الموت؟ بالطبع؛ وهل الخيال وسيلة للهرب من واقع مؤلم ومخيف في حالة شهرزاد؟ لم تتوقف عند ذلك الكتاب وواصلت شراء بقية كتبها التي غالبيتها إن لم

نقل جميعها تدور حول المرأة.

كنت سعيداً حينما استيقظت باكراً وطلبت من السائق بنسعد أن يذهب بك إلى مكان فيه عدد من المكتبات لتصل إلى حي الحبوس الذي اشتمل إضافة إلى سوق الحرف والمنتجات التقليدية على أكبر مكتبات الدار البيضاء. ربما مكثت أكثر من ساعتين وأنت تطوف في تلك المكتبات لتشتري مجموعة من الكتب التي جعلت لرحلتك طعماً مختلفاً.

أسماء لمفكرين ومبدعين قرأت لهم، وتُسعد عندما تجد إصداراً جديداً لهم: محمد عابد الجابري، محمد بنيس، عبد الفتاح كليطو، محمد زفزاف ذلك القاص والروائي الذي جعلك تعشق القصة، محمد شكري... وقائمة طويلة من الأسماء التي حرصت على أن تقتني ما ينقصك من كتبها. كنت تشعر بالمتعة وكان بنسعد يراقبك عن بعد حينما يرى أنك خرجت من إحدى المكتبات متوجهاً إلى مكتبة أخرى، فيتجه إليك مباشرة ليحمل ما اقتنيته من كتب ويودعها في المقعد الخلفي للسيارة. كانت حصيلة كبيرة من الكتب. كان بنسعد يعلّق ضاحكاً ويقول: "لأول مرة يكون في المقعد الخلفي كتب بدلاً من النساء، ألا ترغب في امرأة تتزوجها؟".

- استمتعتُ بالكتب قبل أن أستمتع بالنساء.

ربما لم يفهم ما تقول، ولكنه توقّع أنك بعيد إلى حدّ ما عن هوس البحث عن متعة النساء. أعرف مقدار المتعة التي تحصل عليها من القراءة وشراء الكتب، ولكنك فعلاً كنت محتاجاً إلى معرفة النساء، فليس كل النساء سارة ولا الشيماء ولا يسرى ولا عشرات النساء اللاتي رفضنك زوجاً، ولا عشرات النساء اللاتي بحثن عنك ليستمتعن بسماع صوتك عبر الهاتف، ولا قريباتك بالرضاع، ولا

النساء اللاتي هرب منهن مسعود في زمن سابق، ولا النساء اللاتي رأيتهن في عرض مسرحي أو في مسلسل تلفزيوني، ولا – بكل تأكيد – نجمات السينما المشهورات.

إن كل امرأة تختلف عن الأخرى كالبصمة، ربما قرأت ما كتبه نزار قباني: ''قرأت كتاب الأنوثة حرفاً حرفاً، ولا زلت أجهل ماذا يدور في رأس النساء''. المشكلة أن ثمة خوفاً في داخلك من اقتراب امرأة تقلّب صفحاتها ككتاب، ربما ثمة صفحات تبهرك، تمتعك، تجعلك مختلفاً، تعرّفك بأمر غائب عنك يتعلّق برجولتك!

لو تحدثتُ معك عن العلاقة بالنساء، فلن يكون هنالك وقت تكمل فيه سيرتك. ربما الآن تشعر وأنت ترصد سيرتك أنك غيّرت أمراً مألوفاً، وهو أن تحكي المرأة والرجل يستمع، كما في العلاقة بين شهرزاد وشهريار. أنت هنا تتحدّث عن نفسك، كل ما تقوله وقع لك فعلاً، لم تذهب أبداً إلى دائرة الخيال، وهذا هو المأزق، لأن الخيال يريح الكاتب، ولا يلزمه التحقق من حدث معين أو اسم معين، هل تتوقع من عبد العزيز أن يضيف إلى حكايتك شيئاً من الخيال.

رجاء ارجع إلى الكتابة؛ الوقت يمضي!

٣٦

اكتشف بادي أن لدى رمزي زوجة مغربية. فكّر أن يقلده ويبحث عن زوجة تبقى معه طول العمر، ولاسيما أن زوجته أم أولاده أصبحت غير قادرة على إمتاعه إضافة إلى انغماسها في مشكلات الأبناء والأحفاد، ولكن واجهته مشكلة: من هي المرأة التي تصلح أن تكون زوجة له؟

ذلك المساء عندما وصلوا إلى الفيلّا، استقبل رمزي زوجته بالأحضان، فقد جاءت بعد وصول الثلاثة بقرابة الساعة، وكان برفقتها صديقتان لها. بالطبع، فوجئن بوجود بادي ورمزي فقط، لكن رمزي أخبرهن أن صديقهم الثالث متعب ذلك المساء.

كانت هنالك فرصة لبادي أن يختار إحدى المرأتين ويقرر من تكون مناسبة له رغم أن جميع النساء يناسبنه، فهو يتمنى أن يتزوّج بأكثر من واحدة ولا يحب البغايا أبداً. يريد زوجة وفق الشرع، وهذا اتفاق الثلاثة ألّا يكون مقر سكنهم مجمّعاً للبغايا، لأن في المغرب نساء جميلات ومستقيمات. ربما كان لبعضهن أو لأغلبهن تجربة قاسية بالزواج ثم الطلاق من عربي أو أجنبي، ولكثير منهن تجارب مع رجال أوهموهن بالحب وغادروهن بعد وعود كاذبة.

رمزي تزوج زينب، فمنذ سنتين ذهب إلى الريف ووجدها مع والدها في أحد الأسواق الأسبوعية. طلبها بصورة رسمية وتزوّجها، وبقي كل تلك المدة وهو يهيئ زوجته وأبناءه لقبول تلك الزوجة المغربية. هم ربما يعرفون لكنهم يتوقّعون أنها نزوة، ولكنه بقي يعيش صراعاً بين تركها والابتعاد عن حياة جميلة تشعره

أنه في ريعان الشباب برفقة امرأة جميلة مطيعة، أو ممارسة حياة الأب والاستعداد لأداء دور الجد وانتظار النهاية مكرراً: "يا الله حسن الختام". لذا، يغادر الرياض إلى كازا كما يطيب له أن يسميها وداخله قرار إنهاء الزواج والانفصال عن زينب، ولاسيما أن الإجراءات الحكومية للزواج من الخارج ليست سهلة، وعندما يصل إلى أرض المغرب، ينسى كل خططه ويردد كلمات إبراهيم خفاجي التي تغنى بها محمد عبده:

ودِّع اليأس وسافرْ واغربِ
واجتلي الحسن بأرض المغرب
واغتنمها فرصة يا صاحبي
وامتع القلب بنيل المطلبِ

لذا، يقرر بعد لقائه بزينب أن يبدأ إجراءات الزواج الرسمية ويضع عائلته أمام الأمر الواقع، وبالطبع، عندما يعود إلى هناك، يتغيّر الأمر.

عاد منير ظهيرة اليوم الثاني محملاً بالكتب، واتجه مباشرة إلى غرفته ليضعها على طاولة صغيرة.

قبل أن يغادر منير مع السائق بنسعد إلى الحبوس، كانت مدبرة المنزل قد أعدّت له طعام الإفطار، وسألته هل يرغب أن يشرب الشاي أثناء الإفطار أو بعده، وقبل ذلك سألته هل يحب أن يشرب الأتاي أو الشاي المغربي. أعجب منير بلغة جليلة البسيطة والواضحة وطريقة تعاملها معه، ولاحظ اهتمامها بالنظافة. أخبرته أنها تعرف رمزي منذ ثلاث سنوات، وتوقعت أن منير يعرف بعض أصدقائه الذين أثنت عليهم مع رمزي، ولكن منير أخبرها أنه لا يعرف أولئك الأصدقاء، فتوقفت عن الحديث عنهم.

بادي كان يتمنّى لو كان لديه القدرة لتزوّج الفتاتين اللتين قدمتا مع زينب، فهو يشعر بالحيرة، ولكن أنقذه من ذلك المأزق قدرة صوفيا على لفت الانتباه والتعليق وخفة الدم حتى جعلته يعجب بها، وشجعته على الرقص معها على أنغام أغنيات عبد المجيد عبد الله وراشد الماجد، وقد تأثر كثيراً عندما غنى راشد "ويلاه، ضاق الصدر وما ذكر، يسأل عليّ ويلاه"، كأنها جاءت على جرح خاص لديه. كاد أن يبكي، وربما بكى داخله، وحرص أن يتصنّع الضحك.

المرأة الثانية التي جاءت مع زينب زوجة رمزي المغربية تدعى رجاء، أكثر اتزاناً من صوفيا وأجمل من الاثنتين. تقرّبت كثيراً من منير، وبدأت تتحدّث إليه، وأبدت إعجابها بشخصيته. كان إيجابياً معها، فارتاحت كثيراً له.

قرر منير أن يندمج مع صديقيه وأن يكون طبيعياً، ولاسيما أنه في المساء يأتي بعض الضيوف ممن لهم علاقة بسيطة غالباً برمزي، فتضجّ الصالة بالرجال والنساء والأغنيات والرقص والانتشاء والنشوة. كان من ضمن الحضور مجموعة من الفنانين أحدهم يعزف على عود والآخر على كمان وثالث إيقاعيّاً. فرقة صغيرة تعرّف إليها أحد أصدقاء رمزي، وحرص على إحضارها مع مجموعة من الفتيات. هذا الصديق اسمه معتوق، وله علاقات كبيرة مع بعض الناس المهمّين والمشهورين، وهو يقيم غالباً في طنجة. تمنّى منير لو زار تلك المدينة التي عرف أنها مسقط رأس ابن بطوطة، ومنها انطلقت رحلته الشهيرة، تلك المدينة ذات التاريخ العريق في الماضي. وفي العصر الحديث، شغف منير بما كتبه محمد شكري عنها وعن لقاءاته بكل من جان جينيه وبول بوولز إضافة إلى صاحب مسرحية **عربة اسمها الرغبة** تينيسي ويليامز الذي مرّ بتلك المدينة،

مدينه يرى منير أنها مختلفة ويجتمع فيها التاريخ بالأساطير بالمألوف الشعبي، وإضافة إلى كل ذلك قربها من أصيلة التي سمع أنها مدينة الثقافة.

كانت أمسيات جميلة، وغالباً ما تمتلئ الصالة بالرجال والنساء فيتّجه منير إلى دَرَج وسط الصالة ويجلس على الدرجة الثانية كأنه يمارس هوايته الخاصة بالجلوس على العتبات. ولكن هنالك فرق بين عتبات مطلّة على الشارع، ودرج في وسط البيت، ربما هنا يشاهد أناساً يحتفلون في مساحة صغيرة، رجال ونساء يرقصون، يغنون... حين يجلس على العتبة تأتي رجاء وتجلس بجانبه، فيفسح له بعض الرجال أو النساء مكاناً، ويطلبون منه ومن رجاء أن يجلسا على المقاعد. ولكن منير يفضل البقاء لو لدقائق جالساً على العتبة الرخامية، فيتوقع بعضهم أن هذه خطوة لصعودهما إلى الأعلى، ولكنه يخيّب توقعهم حين يجلس كل واحد منهما على مقعد شاغر، ويشتركان مع البقية في حوار أو غناء أو ضحك.

أراد بادي أن يتعرّف كثيراً إلى صوفيا لكنه رأى أنها أكثر حيوية منه، وقد وصل إلى عمر لا يسمح له أن يكون له زوجة مثلها. لذا، أبدى رغبته في التعرف إلى واحدة أخرى تكون أكبر قليلاً.

ذات صباح ووفق عادته اليومية بالاستيقاظ باكراً قبل الجميع وتناول الإفطار ثم تصفّح بعض الصحف التي يحضرها بنسعد، بدأت جليلة تتحدث مع منير قائلة: "صاحبك بادي أُلعبان!".

سألها: "لماذا؟"، فقالت: "يريد أن يتزوّج كل يوم واحدة".

ضحك منير وقال: "النساء هنا كلهن جميلات، لذا يصاب بالحيرة ويرغب فيهنّ جميعاً".

ردّت: "القضية ليست جمالاً، المهم أن يبحث عن الزوجة الصالحة، وأرى أن رجاء تصلح لك".

لم يعلق منير على كلامها، لتقول له: "رجاء ستغادر بعد ساعة مع زينب إلى بلدتهما، هل ترغب أن تعود غداً مساء مع زينب، هي محرجة أن تطلب منك ذلك؟"، فأشار برأسه موافقاً.

صوفيا غادرت الدار البيضاء في اليوم الثالث بعد أن وجدت أن بادي لا يصلح أن يكون زوجاً لها، وبالطبع، رأت التقارب بين منير ورجاء، فلم تحاول أن تتقرّب منه أبداً، إضافة إلى أنها تحب المرح، فيكفي أن جعلت كل من كان في الصالة يرقص سوى منير.

وبناء على دعوة أحد أصدقاء بادي، سيغادر الثلاثة إلى مراكش. كان منير حريصاً على الذهاب بالقطار والوصول في وقت مبكر ليتمكّن من مشاهدة عاصمة دولة المرابطين ويلتقط بعض الصور في أقدم ساحة في العالم، كما قال له أحد المواطنين، ويشاهد السحرة والمشعوذين ومروضي الأفاعي وعازفي الآلات الموسيقية التراثية، وقد علم منير حين كان يتجوّل بالساحة بعد وصولهم مراكش أن "اليونسكو" اعتمدت هذه الساحة تراثاً شفوياً إنسانياً عام ١٩٩٧.

ساعات قضاها الأصدقاء الثلاثة بزيارة ذلك الصديق الذي استضافهم أسعدتهم كثيراً وأنستهم مشكلات العالم أجمع.

***

كنت أتمنى لو ذهبت إلى المغرب قبل سنوات، ليس للبحث عن نزوة، ففي كل مكان، يستطيع المرء أن يمارس نزواته الخاصة، ولكن ثمة أمر مهمّ لديّ هو

نسيان مأساتي. لا أحب أن يسألني أحد من تكون؟ وغالباً لا يوجد من يتطرق إلى هذا السؤال في المغرب، يكفي أن لديك الجنسية السعودية.

فكرتُ حقيقة في الزواج، وحينذاك قال لي معتوق صديق رمزي: لا تستعجل، سنبحث لك عن امرأة في الأرياف والقرى الصغيرة حيث تكون الأسر أكثر محافظة، الثلاث النساء الموجودات في الفيلّا من مكان واحد كما فهمت، ومن أسر محافظة، فزينب ورجاء قريبات، ومن بلدة عُرفت بحرصها على بناتها. حتى صوفيا عندما رغب أحد الضيوف أن تصعد معه إلى الدور العلوي، رفضت.

منذ أول يوم قابلتُ فيه رجاء أسرني جمالها، وفعلاً كانت أجمل النساء اللاتي التقينا بهن أو شاهدناهن. إضافة إلى ذلك كانت أكثرهن اتزاناً، لم تكن تشرب ولا تدخّن. لذا، قررت أن أسعى إلى الزواج منها، لكن معتوق طلب مني ألّا أستعجل بطلب يدها، وقال: يجب أن تتعرف كثيراً إلى تلك المرأة.

لذا، بقيت رجاء مع زينب عندما عَلمتْ أنني جادّ بالبحث عن زوجة، وأنني لم أحدد امرأة معيّنة بعد، وبكل تأكيد لن يكون هنالك زواج إلّا بعد الاقتناع التام. عندئذ حرصت على أن أتعرّف إلى المرأة التي ارتحت كثيراً لها، فقررت أن يكون ذلك بعيداً عن أعين الصديقين بادي ورمزي، وقد دلّني أحد الأصدقاء على كورنيش عين الدياب لتناول الطعام والجلوس في أحد المقاهي هناك. استمتعت بالجلوس معها، فتحدثت كثيراً عن حياتها، إذ سبق أن تزوجت قريباً لها وأنجبت منه ولداً عمره سنة ونصف. طلّقها دون أن تعرف السبب، وغادر بلدتهم بعد أن سلبها بعض الأموال التي لديها وما تملكه من حليّ، ووجدت نفسها دون مأوى. اضطرت أن تسكن عند أخيها الوحيد مع والدها المريض الذي لا يحب أن تفارقه

ابنته رجاء خاصة في سنواته الأخيرة. أحبّت الرسم وعملت مراسلة صحافية وأحبّت الأدب.

يا إلهي! رأيت أن هذه المرأة مناسبة لي، هي ضمن دائرة عالمي الثقافي الذي أعيشه دائماً، هذا جانب مشرق من حياتها. أخبرتها بعض المعلومات عن حياتي وحادثة احتراق زوجتي. حزنت وبكت كثيراً. لم نكمل حديثنا لمضيّ الوقت واتصالات رمزي وبادي بنا وطلبهما العودة لوجود بعض الضيوف، لنلتقي بعد يومين في مقهى آخر. كنت متشوقاً إلى أن أطّلع على بعض أعمالها الصحافية وتجاربها الكتابية ولاسيما أنها تحب الشعر وتكتب ربما مثلي بعض الخواطر، لكنها بدلاً من ذلك فتحت صفحات مشكلاتها، وقد قالت لي: "لم أكن أرغب أن يكون أول لقاء معك بعيداً عن أصدقائك مملوءاً بالحزن".

قلت لها: "ألتمس العذر أنني أخبرتك بحادثة زوجتي"، فقالت لي: "الأمر مختلف".

وفعلاً فقد كان لديها كثير من المشكلات. يكفي أن رجلاً حاول أن يغتصبها فاستنجدت بأخيها الذي لم يتمالك نفسه وضربه بقضيب حديدي بقصد تأديبه، ولكن كانت الضربة في مقتل ليودع أخوها السجن على أمل احتساب أنه لم يقتل متعمّداً، ولتبدأ صراعاً مع الحياة وتحدّياً حتى لا تنزلق في متاهات الليل، على أمل آخر في أن تجد من يرضى إعالة أسرة تتكوّن من أب مريض متعلق بابنته التي ستكون زوجة، وزوجة أخيها الذي أودع السجن ولهما أربعة أطفال. فهمت من ذلك أن من يرغب في الزواج برجاء عليه يبقى في المغرب ويتحمّل ذلك العبء.

أنا أريدها، تعجبني حين أسمعها تقول: "مزيان بالزاف"، أو "ديالك"، وحين تستبدل رقم اثنين بقولها "جوج"... كلمات كثيرة أسمعها تتردّد حولي، ربما لدينا كلمات في نجد أو القصيم تحديداً أو الجنوب وبكل تأكيد الحجاز، كلمات قد لا نتوقّف عندها لأننا نردد بعضها، أو نسمعها دون أن يكون للمتحدث جاذبية خاصة، وبالطبع هنا في المغرب، وحين يكون المتحدث رجاء المرأة الجميلة حقاً التي تذكرني بسلمى حايك نجمة هوليوود، والتي أسرتني حتى جعلتني لا أرى غيرها، تصبح كل كلمة تخرج من فمها ذات رونق خاص.

كان الأمر صعباً لديّ: هل أرضى أن أعيش في وطن آخر غير وطني الذي ولدت – ربما – وعشت وترعرعت فيه، أم أبحث عن وطن جديد برفقة امرأة ساحرة مثل رجاء وأتحمّل عبء أسرة لا أعرف متى يخرج ربها من معتقله، ويموت الأب، حتى تنتهي مشكلاتها؟ لماذا هي ذاتها تعاني، لماذا لم تكن زينب أو صوفيا؟ هل لأنني اخترتها؟ ولماذا كل امرأة أقرر أن أقترن بها تواجه مشكلة مرتبطة بالأهل: الشيماء رضاعي من أمها حرمني الاقتران بها، ويسرى أبقاني والدها معها وعلاقة قديمة متجددة بابن خالها جعلتها تخلعني، وسارة لها إخوة نبذوها وزوج سابق سعى إلى موتها؛ هل أعتبر سارة شهيدة العلاقات الأسرية؟ وها هي رجاء تحمل على كاهلها عبء أسرة تواجه مشكلات ليست هي سببها.

أخبرت بادي ورمزي برغبتي في الزواج من رجاء، ولكنها حالياً لا تقدر أن تترك والدها وأسرة أخيها وتفضّل البقاء عندهم لو قُدّر لها أن تتزوج.

قال رمزي: "لتكن مثلي... زوجتي زينب تعيش مع والديها وتنتظر ظروفي أن تتحسن وأكمل إجراءات الزواج من الخارج، ثم تعيش معي في الرياض".

قال بادي: "وضعك مختلف عن رمزي، تستطيع بمعاشك التقاعدي وبعض المساعدات أن تستقرّ هنا مع زوجتك وأهلها، ما فائدة بقائك وحيداً في الرياض؟ وإذا تحسّنت ظروفها، تعودان إلى الرياض، وأتوقع أنك ستستقر هنا".

لكن معتوق الذي كان حاضراً ذلك اليوم طلب مني أن أتريّث بالبحث عن زوجة دون مشكلات.

القرار صعب، ويمثّل مفترق طرق في حياتي، أنا أُصبتُ باليأس من أن تتغيّر حياتي إلى الأحسن، لا أريد أن أغادر وطني، أجل وطني! عرفت الحياة بلا أبوين، وفتحت عيني ووعيت الحياة بوجود أب فقط، ومنه أحببت الوطن الذي منحني الهوية وفرصة العيش الطبيعي. ولولا تقاعسي وتقصيري عن إكمال دراستي، لحصلت على شهادات عليا، وربما أصبحت متميّزاً علمياً. لم يكن الوطن أبداً يقف كحجرة عثرة في حياتي؛ لقد جعل كل الطرق متاحة خاصة في مجال تكوين الإنسان السويّ، لتكون مهندساً، طبيباً، عالماً، حتى رجل دين. لن نسألك من تكون. درستُ وواصلتُ تعليمي حتى الصف الثالث المتوسط، لم يطلب منّي الوطن مغادرة المدرسة حين غادرتها. ربما قلة وعي التلاميذ وأولياء أمورهم، وكذلك بعض المدرسين والإداريين الذين يتوقعون أنه لا يوجد أحد بلا أبوين! ليس من السهولة أن يكتب كل طالب أو تلميذ على جبينه يتيم أو لقيط أو بلا ولي. إجراءات التسجيل تغني عن ذلك، وبعد ذلك تزال كل الفروق، فالتلاميذ والطلبة بلا والدين لا يختلفون أبداً بالشكل عن بقية التلاميذ ممن لديهم آباء وأمهات وأولياء أمور في كل العالم. ربما الاختلاف الوحيد والمهم هو أن داخل كل يتيم أو لقيط حزناً بحجم العالم.

***

اتصال متكرر بهاتفك المحمول يجعلك تتوقّف عن الكتابة وتقطع حبل أفكارك، وتغادر مكانك أمام الحاسب الآلي، لتجد رقماً غريباً. ليس الرقم الذي يتصل منه عادة عبد العزيز. اتصال متكرر كأن هناك أمراً طارئاً.

"مرحباً"، يأتيك على الطرف الآخر صوت يقول لك: "كيف حالك يا أستاذ منير؟ اشتقنا كثيراً لك".

تتذكر الصوت: إنه ذلك الرجل الذي أوصلته إلى بيته في آخر يوم لك في العمل، والذي قابلك قبل أسابيع في حفل زفاف ابن صديق لك بالعمل أيضاً، وأخذ رقم هاتفك المحمول.

قلت في نفسك: ماذا يريد؟، فتسمعه يقول: "أينك يا رجل؟ سألت عنك بعض الأصدقاء وقال لي أحدهم إنك تذهب عادة لاستراحة بالسلي، ذهبت هناك وأخبروني أن لك مدة لم تأتِ، أين أنت يا رجل؟".

تجيبه: "ماذا تريد؟"، ليقول: "أفا، أنت صديق عزيز، أريد أن أطمئن عليك"، فتقول له: "أنا بخير".

يردد: "الحمد لله أنك بخير، المهم أنا وبعض الأصدقاء في مقهى على طريق الملك فهد، سأرسل لك الموقع عبر الهاتف...".

لكنك تقاطعه: "لديّ الآن ارتباط خاص، قد لا أستطيع المجيء".

فيصرّ: "أنا وبعض الأصدقاء في انتظارك، ساعة، ساعتان، ثلاثة، لا يهمّ، تعالَ لنستمتع بالحديث".

تنهي المكالمة وداخلك رغبة في الصراخ. هل تضحك أم تبكي أم تبحث عن لعنة مناسبة لرجل لا يفهم أنك لا تريد أن تجلس أو تتحدث معه. تصل هاتفك

المحمول رسالة فيها موقع المقهى في الوقت الذي تحظر ذلك الرقم.

أعرف أنك كنت محتاجاً أن تواصل الكتابة، ولكن ذلك الرجل برنة هاتف نقلك من أجواء فيلّا الدار البيضاء الجميلة إلى شقة حي الوزارات الكئيبة في الرياض، فعلاً ماذا يريد ذلك الرجل؟ ولماذا يرغب في إيجاد علاقة صداقة معك؟ ليس هنالك ما يشجع على ذلك؛ لست مسؤولاً ولا مشهوراً ولا مرحاً ولا متحدثاً جيداً، وربما يقول بعضهم بالعامية: ''مانت وسيع صدر''، فما الذي يريده؟

أنت لا يعنيك حالياً هذا الشخص الثرثار؛ يهمك أن تكمل كتابة سيرتك، وأنت على وشك الانتهاء منها. أمر آخر مهم هو الالتقاء بذلك الذي فجّر داخلك كل رغبات الانتماء، وأشعرك أن هنالك حلماً قد يتحقق، وأشار إلى أن لا شيء مستحيل في هذه الحياة، فالوصول إلى نقطة النهاية قد يتحقق ولو بعد زمن طويل من السير حتى الإعياء؛ المهم مواصلة السير.

أنت بين بين... أحياناً تقول هذا الذي أوقد شمعة الأمل، وأحياناً تقول لا توجد شمعة لكي تتّقد، ولكن عبد العزيز يتحدث معك وهو واثق من كلامه، أليس هو الذي يعرف عنك كل شيء؟

أنت متوتر جداً؛ قررت العزلة لكتابة سيرتك الذاتية، وفوجئت باتصال ذلك الرجل، ولكن لماذا يتصل ويطلب حضورك إلى المقهى: للتحدث مع بعض الأصدقاء؟ عن ماذا؟ لا تفكر كثيراً، هنالك عشرات بل آلاف مثل ذلك الرجل يتوقعون أن العالم بلا مشكلات.

اهدأ، لن يتصل ذلك الرجل بك مرة أخرى، ولو حدث واتصل من هاتف آخر، فأخبره صراحة أنك مشغول. خذ حماماً دافئاً، واشرب كوباً من القهوة، وواصل كتابتك.

٣٧

عاد الثلاثة من المغرب دون نساء، رمزي كعادته وعد زوجته المغربية بالعودة خلال شهر بعد تهيئة مكان تعيش فيه واستكمال إجراءات الزواج من الخارج، وبادي لم يستطع أن يختار امرأة معينة ليتزوجها، فضاع بين زحام النساء ليجد نفسه بعيداً عنهن. أما منير، فكان يتمنى لو تزوج برجاء، لا يزال يحبها، ولكن كان قراره مساعدتها لجلب محامٍ يدافع عن أخيها السجين، وحين خروجه، سيأتي ليتزوج بها.

تضاعف اكتئاب منير، ولاسيما أنه رأى بصيص أمل شعر أنه قد يغيّر حياته في مقابل الابتعاد عن الوطن لزمن غير محدد. كانت رجاء مصرّة على البقاء بجانب والدها وعائلة أخيها السجين. هو يعرف أن مجرد البقاء في المغرب، وخاصة في هذا العمر، يعني اختيار محطته الأخيرة، لكن وجد أنه لا يقوى على ترك الوطن والابتعاد عنه. لذا، كان قراره اشتراط أن تقيم معه في الرياض، فكلا الاثنين متشبّث بوطنه: رجاء لا تستطيع ترك أسرتها لظروفهم القسرية، ومنير لا يرغب في مغادرة وطن أحبه.

مع مرور الزمن بدأ منير يتناسى تلك المرأة التي رغب أن تكون زوجة له، وعاد إلى سابق عهده: ذهاب إلى العمل، والاستراحة، وعودة إلى بيته، نوم، وفي حال الاستيقاظ قراءة بعض الصحف والمجلات، وبالطبع بعض الكتب، ولاسيما أنه أحضر مجموعة كبيرة من الكتب من مكتبات الدار البيضاء، وهذه حققت له بعض المتعة، وأنسته أنه وحيد.

بعد مضي قرابة أربعة أشهر جاءه خبر أن رجاء تلك المرأة المغربية التي رغب أن يتزوّج بها موجودة في الرياض. استغرب من وجودها ولاسيما أنها كما أخبرته لا تستطيع مغادرة المغرب لوضع أخيها السجين، وكانت صدمته عندما علم أن معتوق الذي طلب منه أن يتريّث بالزواج ولا يستعجل حتى يجد المرأة المناسبة هو من تزوّج برجاء. ما أزعج منير هو حديث رمزي نقلاً عن زوجته المغربية زينب أن معتوق أُعجب برجاء، وحاول أن يلفت نظرها ليتمكّن من إقناعها بالزواج، ولكنها كانت ترغب في منير. حينئذ اقتنص خروجها من الفيلّا متوجهة إلى صالون نسائي لتتجمّل، وطلب منها إعطاءه نصف ساعة ليتحدّث معها عن أمر خاص بمنير. وافقت وتوجهت معه إلى أحد المقاهي الصغيرة ليخبرها أن لدى منير مشكلة نفسية، ولا تبقى معه أي زوجة يتزوّجها إلّا أياماً معدودة، فأخبرته أن منيراً أخبرها عن حادثة احتراق زوجته، فقال لها: "بكل تأكيد هو الذي تسبّب في الحريق ليتخلّص منها". خافت رجاء كثيراً وسألته عن أفضل طريقة للابتعاد عنه، فأوصاها باختلاق قصة تجعلها غير قادرة على مغادرة المغرب، فكانت قصة أخيها وحكاية سجنه. بالطبع، كانت رجاء واثقة أن منير لن يطلب منها الذهاب معها لزيارة أخيها. كانت الخطة ناجحة، فقد ابتعد منير عن رجاء ليتزوّجها معتوق بعد شهرين من مغادرة منير وصاحبيه المغرب.

"ما هي مكتوبة لك"، قالها بادي عندما لاحظ الغضب مرتسماً على محيا منير، وعرف أن لدى معتوق الرجل الذي تزوج رجاء نفوذ وثروة تتجاوز ما لدى منير. لذا، لديه القدرة على التأثير في أي امرأة يرغب أن يتزوجها، وذكر رمزي أن زوجته زينب غضبت على قريبتها عندما لم تحقق رغبة منير بالزواج، وغادرت قبل سفر الثلاثة بعدة أيام لتخبرها رجاء أنها هربت خوفاً على نفسها. لم تكن

تعرف زينب أي شيء عن منير. لذا، صدقتها، وحرصاً على ألا تجرح مشاعر صديقيه بادي ورمزي لم تخبرهما بسبب مغادرة رجاء، ولا بحكاية تخلّص منير من الزوجات كما أشاعها معتوق.

لا علاقة لمعتوق بشلة الاستراحة عدا رمزي. لذا، هو بعيد تماماً عن منير، ومن الصعوبة أن يقابله في مدينة كبيرة مثل الرياض، والأصعب من ذلك أن يقابل منير رجاء في الرياض، لكنه كان يريد أن يخبرها أن كل ما أشاعه معتوق عنه كذب، ويعاتبها على كذبها، ولاسيما أنه أعطاها بعض المال للبحث عن محامٍ لأخيها السجين الذي اتّضح أنه لم يكن كذلك.

رجاء تبحث عن حياة سعيدة مستقرة بعد معاناة مع زوج تركها وابنها في الشارع، فكانت من نصيب معتوق الذي أعجبته تلك الفتاة الجميلة جداً الشبيهة بممثلة هوليوود سلمى حايك، كما تخيلها منير، وامرأة مثلها تشجّع على التحايل لكسب ودّها، وهذا ما أتقنه معتوق ولم يقدر عليه منير.

انتهت حكاية المغرب وبقيت ذكرى تعيسة في أعماق منير، لكنها تركت أثراً بدأ يزداد وضوحاً مع الأيام داخل منير. لقد بدأ يشكّ في كل من يقابله أو يتحدّث معه. توقع أن كل الناس يسعون إلى الإساءة إليه. بدأ يشكّ في أصدقائه وكل من له علاقة بحياته. في البدء، قلّل من مجيئه إلى الاستراحة، ليتوقف بعد زمن عن الذهاب إليها. ابتعد عن أصدقائه، وحرص على أن يكون بعيداً عن أصدقاء العمل. طلب من مديره في العمل أن يكون له مكتب صغير مستقلّ، فوافق مباشرة ولاسيما أنه من قدماء الموظفين. قدّر بادي ورمزي حالته النفسية وابتعاده عن الاستراحة. لم يحاول أبداً أن يحتكّ بجيرانه في العمارة، أصبح رجلاً غامضاً.

بعد قرابة السنتين، وجد أن استمراره في العمل وبقاءه في مدينة كبيرة وصاخبة مثل الرياض لا يضيف إليه شيئاً ولا يحقق له متعة. يريد الهدوء والاستقرار. ما عدا الطائف، ليس هنالك مدينة أو قرية يفكر أن يعيش فيها. لم يفكر أن يرحل خارج الوطن. ذات يوم فكّر أن يقيم في بلدة والده مسعود، استغرب من تلك الفكرة، والده مسعود غادرها وهو حيّ وبقي خارج أرضها وهو ميّت، فما الرابط بتلك البلدة؟ لذا، كان قراره العودة إلى الطائف وشراء البيت الذي عاش فيه مع والده مسعود أجمل أيام عمره في حي الشرقية، وليكن مسعوداً آخرَ يعيش بلا نساء ويستمتع بقراءاته. سيعلّق صور الملك عبد العزيز وأبناءه في مجلس الرجال، ويعيد صور كل الأدباء على جدار كل غرف البيت. لقد عرف أن البيت معروض للبيع قبل سنة أثناء مروره في الطائف وهو متوجّه إلى مكة لأداء العمرة.

سينتهي عقد إيجار الشقة التي يسكنها في حي الوزارات في الرياض بعد أربعة أشهر. لم يجدّد العقد، سيقدم استقالته من العمل، ويغادر الرياض بهدوء.

***

تعبتُ!

تعبتُ كثيراً، ها أنا في هذه الغرفة الصغيرة دون زوجة ولا أبناء. أكوام من الورق ووجوه تحاصرني. ماذا أفعل بنفسي، بذاكرتي الصدئة؟ غرفة صغيرة نسيت فيها نفسي ونسيت أنني كنت على قيد الحياة ذات يوم. لم أمت، ولكن يا لمأساتي! أنا الميت الحي، الحي الميت!

ميت؛ ربما لأنني لم أشعر أبداً بالحياة حقاً!

تعبت، تعبت كثيراً، لأنني عشت باحثاً عن هوية، عن أهل، عن أصدقاء، عن أناس ملامحهم تشبهني!

هل أنا من كوكب آخر، أم أتيت من باطن الأرض؟

تعبت، تعبت كثيراً، فالكل يعرفونني عندما يكون هنالك لقاء، مناسبة، لزيادة عدد الحضور، وعندما أبتعد، فأنا نكرة غير معروف!

أنا لا شيء، أختفي وأتلاشى من ذاكرتهم!

أنا الآن أسكن في حي منسيّ من أحياء الرياض الشعبية.

قررت منذ مدة أن أريح نفسي من هذه الأوراق.

سعيت إلى ترتيبها وفق التاريخ، أعلم أن هنالك كثيراً من الأوراق يصعب تحديد الزمن الذي كُتبت فيه، ولكن غالباً ما يكون رصداً لحدث ما.

بعضها واقعي، وجزء كبير من الخيال، سأعلق على بعضها وأترك بعضها دون تعليق. صدقوني، أنا مختلف جداً، لا أشبه أحداً!

هذه الأوراق ليست سيرة شخصية، وليست رواية، وليست رصداً تاريخياً، هي قصاصات وأوراق متناثرة، ربما إذا اجتمعت كوّنت لوحة خاصة، قد تكون جميلة، قد تكون مذهلة، هذا كتابي الذي أقدمه إلى كل قارئ.

له الحرية أن يصدقه، له الحرية أن يكذّبه، له الحرية أن يتعاطف معي أو يحتقرني، له الحرية أن يبحث عن نفسه في هذا الكتاب، ربما كان أحد الأشخاص الذين رصدتهم في قصاصاتي الورقية في مكان ما، وزمن ما.

ألم أقل إن هناك المئات بل الألوف من الوجوه التي تحاصرني: أطفال، رجال، نساء... سأسعد حتماً عندما يقول أحدهم: هذا أنا!

وبكل تأكيد، ستكون سعادتي وحلمي الأبدي، عندما يقول أحدهم أو إحداهن: هذا منير، ولدنا الذي كنا نظن أنه مات. لكن أنا لا أتوقع ذلك، لأنني بنيت أسرة خاصة، من أصدقاء وأقرباء، بعضهم أحياء، وكثير منهم أموات. انتشلت بعضهم من دفتي كتاب، واستمتعت مع آخرين في مشهد تلفزيوني وسينمائي، وربما عبر صوت أسمعه.

في المقابل، وجدت أنني في حياتي الواقعية محاط بمجموعة من الدراويش، بعضهم يستغلّ الدين، وبعضهم الآخر يرتدي وشاح الأدب. لم أكن أبداً حداثياً، ولم تجتاحني الصحوة. أنا منير الذي لم يتغيّر منذ كان على عتبة البيت المحترق. حتى وأنا جالس على كرسي قديم أمام جهاز الحاسب أكتب سيرتي، لم أتغيّر، مثل والدي مسعود الذي جعلني أعيش معه كما أريد، وليس كما يريد هو أو الآخرون. أنا لم أتغيّر رغم أن الزمن بأحداثه الجسيمة غيّر دولاً، فالناس تغيّرت بعد أحداث الحرم، ثم تغيّرت بعد غزو الكويت ثم بعد سقوط برجي التجارة العالمي، ثم الربيع أو بالأصح الخريف العربي. ليت هذا التغيّر كان للأفضل، بل تغيير جلد دون وعي. لا أتحدث عن دول بقدر ما أتحدّث عن أناس كانوا حولي، متحولين من اليمين إلى اليسار، أو من اليسار إلى اليمين. أصبحوا مشهورين، وبعض المبدعين غيّبهم الموت أو النسيان، وآخرون بعيدون عن الإبداع أصبح صوتهم حاضراً في كل مكان.

أكتب وأنا أعرف أنني لقيط. أجل لقيط! التقطني والدي بالتبني مسعود من أمام بيت يحترق. بحث عن والدين أو أقرباء، لم يجد، فأكمل الإجراءات الرسمية ليتبناني.

مسعود والدي، ولكن أسرتي وطن، هذا الوطن الذي أحببته وأخاف عليه. أعرف أنني خرجت من رحم امرأة لا أعرفها، ولكن ما يريحني أنني عندما أموت، أعرف أنني سأدفن في أرض أنتمي إليها، أرض تحملت وطء أقدامنا القاسية ونحن أحياء، لتهبنا حيّزاً بطول قاماتنا يحتوينا ونحن أموات.

أنا ابن الأرض، ابن وطن نحيا بحياته ونموت بفقده!

***

أربع سنوات مرت على فقدك سارة، أربع سنوات تحولت فيها إلى إنسان تعيس، بدأت تبتعد عن كل أصدقائك، هجرت الاستراحة، أصبحت علاقتك مع أحمد ومنصور وبقية أسرة جابر أبي دحيّم مقتصرة على المناسبات، فتحضر مراسم الصلاة والدفن عندما يموت رجل أو امرأة تعرفهم، وتحضر بعض حفلات زواج أبناء أصدقائك وأقربائك بالرضاع. لا تزال تقرأ، وهذا يمدّك بالحياة، فأنت حين تقرأ، تمارس حياتك الطبيعية. خسرت جزءاً من أموالك في الأسهم وتسديد ديون سارة لتبقى وحيداً لا ترغب في التحدث مع أحد. أحياناً تخاطب نفسك وتقول: لا أحد يبقى، لماذا نتعلّق بمن نحب، وهم في أي وقت سيرحلون؟ لقد حزنت على أنني لم أتزوج برجاء، وبكيت على والدي مسعود وعلى سارة، ولكن ذلك البكاء لم يعدهم مرة أخرى إلى الحياة الدنيا رغم أنني لا أريد أن أفقدهما.

رجل وامرأة: مسعود وسارة، فقدتهما في غياب بسيط عنهما، بين تاريخي موتيهما ثلاثون عاماً تقريباً، حاولت أن ترصد غالبية الأحداث التي مرّت بك. هل تحتاج إلى اتصال من عبد العزيز؟ هل بقيت سنوات أخرى تريد أن تعيشها؟

أنت تعرف أن عبد العزيز اتصل بك وطلب منك جميع الأوراق التي لديك، وأمرك أن تطبع كل ما كتبته في الأيام السابقة وتحضر معك نسختين من سيرتك: ورقية وإلكترونية، ليطّلع عليها ويشعرك بالملاحظات وما يجب حذفه، وما يفضل إضافته. كل ذلك مقابل شيء مهم هو التعرف إلى عائلتك.

دقائق وسيطرق باب شقتك التي وصفتها بأنها تعيسة. البس ثوباً نظيفاً وغترة بيضاء وضع العقال الأسود على رأسك، تطيّب بأي عطر لديك، ضع الأوراق التي طبعتها في مغلف كبير، فقد جاوزت خمسمئة صفحة، ولا تنس النسخة الإلكترونية. عندما تفتح الباب لعبد العزيز، أعطها إياه، أتوقّع أنه سيعيد صياغتها.

ها هو عبد العزيز يطرق الباب، وها أنت تفتحه لتقابل رجلاً ملامحه قريبة منك، أيكون أخوك؟

يبادرك بقوله: ''كيف حالك يا منير؟''.

- بخير!

- هيا لنذهب إلى عائلتك، إنهم في انتظارك!

- وكيف عرفت أنهم عائلتي؟

يبتسم ويقول: ''الحكاية تطول ولكن ثق أنهم عائلتك!''.

تعطيه الأوراق المطبوعة والذاكرة الإلكترونية.

أعرف أنك ترغب في أن ترصد لحظة لقائك بأسرتك، ربما في مشروع مستقبلي تكتب البقية أو يكتبه غيرك عنك.

دبي ٢٠١١ – الرياض ٢٠١٧

كلُّ 'لَوْ' تقود إلى 'لَوْ' أخرى في حياة منير، ذلك الطفل الذي أنقذه 'العم مسعود' من عتبة بيت كان يحترق. مات أهل ذلك البيت عندما كانوا في غفوة أثناء الظهر واحترقت كل الخيوط التي يمكن أن توصل إلى عائلته الحقيقية.

قرّر مسعود، ذلك الرجل الزاهد بالنساء، أن يتبنّى منير حتى لا يعيش الأخير حياة 'يتيم'، لكنّ قسوة المجتمع لم تبنِ له سعادة تعوّضه.

خمسون عاماً من الانتقال بين البيوت والمدن ومشاريع الزواج وتقلبات الصداقة... هي حياة منير التي يتغيّر فيها كل ما حوله، لكنّه لا يتغيّر.

عبد العزيز الصقعبي روائي ومسرحي سعودي. عمل في مكتبة الملك فهد الوطنية، ومارس التحرير الثقافي، ولديه زاوية أسبوعية بعنوان 'ضوء' في صحيفة 'الجزيرة'. قُدِّمت أطروحات علمية ودراسات نقدية عن أعماله، ونُفِّذت بعض أعماله المسرحية.

ISBN 978-614-03-2059-8

9 786140 320598 >

DAR AL SAQI
دار الساقي

www.daralsaqi.com